المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

جلال آل أحمد

الابتلاء بالتغرب

ترجمة وتقديم: إبراهيم الدسوقي شتا

88

المشروع القومى للترجمة

جلال آل أحمـــــد

الابتـــــلاء بالتغـرب

ترجمة وتقديم : د/ إبراهيم الدسوقى شتـــــــا



إهـــــداء إلـــــى

حبيبتى وزوجتى

ماجدة العنانى

مع حبى وكلى

إبراهيم شتا

بين يدي الكتاب

لم أشـــأ أن أسمي هذا المدخل للكتاب مقدمة ، إنما هو مجرد تعريف للقارئ بما هو مقبل عليـــه ، فالكتاب برغم قدمه النسـبي يتناول قضايـــا وموضوعات لا تزال تهم القارئ في هذا الجزء من العالم ، وكلنا في الهم شرق ، وإذا كان هذا الشرق مسلمـــا فالمصيبة أعظم ، كما أنني لن أقدم حياة الكاتب بالتفصيل ،لا ولا إنجازاته الأدبية ، ففضلا عن أنها قدمت بالعربيـــة [1] فإنها أيضـــا لن تفيد القارئ هنا في قليل أو كثير ، فعند الحديث عن " الابتلاء بالتغرب " لا يهم أن نتحدث عن بقية أعمال جلال آل أحمد "١٩٢٣- ١٩٦٩" ، في حين أن الحديث عن أي عمل من أعماله الأخرى الأدبية أو الفكرية لا بد وأن يفضي بنا إلى الحديث عن " الابتلاء بالتغرب" الذي يقف على قمة وحده ضمن الأعمال الفكرية الإيرانيـــة التي أثارت الجدل ، وحولت الوجهـــة ، وطرحت قضايـــا كان لها أقوى الأثر في إقامة صرح الفكر الذي وقف وراء الثورة ، بحيث اعتبره باحث إيراني (حائزا لنفس أهميـــة مانيفستو كارل ماركس من وجهة نظـــر تحديد المهام الملقـــاة على عواتق الدول المبتلاة بالاستعمـــار) [2] ومن ثم فإن هذا الكتاب الصغير في حجمه ، المهم من حيث القضايا التي يطرحها ، يستعصي على العرض ، فضـــلا عن صراحتـــه المرة في الولوج إلى القضايا وتركنا في قلبها ، فلم يكن جلال آل أحمد - كما كان متوقعا - يدعو إلى الحل الديني ، فهو واضح النبرة في الحديث عن أن الحل المطروح من أن الدين أو لنقل صراحـــة التشيع هو الحل البديـــل حل غير مقبول ، وما هو إلا هروب من التأثر بالغرب إلى تقوقـــع وتشرنق أشد وطأة من الانفتاح عن الغرب ، إلى جوار أن جلال آل أحمـــد بخلفية من انتساب مبكـــر إلى حزب توده الشيوعي الإيراني ، كان يرفض الممارسات الشيعية في إيران ، ويرى أن تشيع إيران وخروجها عن الشمولية الإسلامية نكبة ممتدة الأثـــر ، ومظهر من مظاهر الابتلاء بالتغرب ، وزاد من حدة هذه العداوة عنده تأثـــره الشديد بأحمد كســـروي " المقتول على أيدي منظمة فدائيـــان إسلام سنة ١٩٤٧" والذي كان من أوائل من انتبهوا إلى

---

(١) في بحث قدمته الدكتورة ماجدة العـناني تحت عنوان " نون والقلم رواية إيرانيـــة لجـلال آل أحمد "مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة جـ٥٧ ،العدد ٢ / ١٩٩٧م.

(٢) رضـا براهني : قصـــه نويسي - ص ٤٦٥- ط٢- تهران -أشرفي -١٣٤٨هـ.ش.

خطورة التشيــع على إيران ، كما كان أيضـــا من أوائل من هاجموا التغرب [١] ، وحتى عندما انشق آل أحمد عن توده كون مع خليل ملكى " نيروى سوم = القوة الثالثـــة " ، ثم كون " زحمتكشـــان ايران = كادحى إيران " قبل أن يترك الجناح اليسارى كله بعد افتضاحـه المخزى فى أزمـــة مصدق ، ومع ذلك فإن جلال آل أحمد لا يعتبر مفكرا إسلاميـــا ، وبالرغم من إعلانه لإيمانه بأن " الإسلام " وليس التشيع هو السد الممكن أمام الاجتياح الغربى والإلحاق متعدد الجهات ، إلا أنـه لا يزال يعتبر فى إيران الحالية من مفكرى اليســـار ، فهو لا يقبل الحل الإسلامى دون قيـــد أو شرط ، ولا يقبل أيضـــا ما يطرح باسم الإسلام ، سواء فى موطنه الشيعى ، أو فى قلب العالم السنى [٢] وينظر إلى الممارسات الشيعية نظرة فيها الكثير من الشك والسخريـــة .

فى هذا الحيـز الضيق للكتـاب الذى بين أيدينـــا ، تناول جلال آل أحمد موضوعين رئيسيين : جذور التغرب أو الإتجاه إلى الغرب منذ أقدم العصور وحتى الوصول إلى بداية تغرب إيران الحقيقى فى العصر الصفوى ، وآثـــار هذا التغرب الممتدة إلى كافة جوانب الحياة السياسيـــة والإجتماعيـــة والثقافيـــة ، تلك الآثار المتغلغلة التى يزيدهـــا المفكرون المتغربون تغلغلا ، ويزيدون فى تأثيرها المشئوم ، ويمضون بأمتهم إلى مزيد من فقدان الهويـــة والضيـــاع المطلق .

وعندمـــا يتناول آل أحمد هذه القضايا ، لا يتناولها من موقف المفكر المشاهد المحايد ، بل من موقف المتألم المهتم ، فيزيدها عرضــه الساخر المتألم حياة فوق

---

(١) فى كتابه "اروپاييگرى = الأوربة " الذى صدر سنة ١٣١١هـ.ش. "١٩٣٢" والذى على طول ما بحثت عنه لم أجده ، كما لم أجد كل كتب كسروى التى تهاجم التشيع والتصوف ، وإن كان قد قدم لى عرضا لا بأس به لمحتوياته المقال الذى كتبه حجت الله اصيـــل ، نشر فى مجلة نگين " شماره ١٣٠- شماره مخصوص نوروز ١٣٥٥- صص ٢٩-٣٧- تحت عنوان كســـروى ومسأله شرق وغرب .

(٢) خير تعبير عن هذا االجانب من فكر آل أحمد ورد فى مذكرات حجه الذى قام به سنة ١٩٦٤ ونشرت تحت عنوان " خسى در ميقات" سنة ١٩٦٨ وهى ميسرة لمن لا يعرفون الفارسيـــة فى ترجمة إنجليزيـــة قام بها جون جرين ونشرت تحت عنوان "

John Green ،Lost in the Crowd ،Introduction by M.c. Hillman ،Washington Three Coninents Press, 1985

حيـــاة ، وتشمل نظرته الثاقبـــة كل جوانب الحيـــاة وزواياهـــا ، فيمنح قضاياه الصماء حياة مفعمة بالنشاط ، ويتجلى كمتمرد يعتبر امتدادا لتيـــار التمرد الفكرى فى تاريخ إيران [١] .

وبعد فلست أريد أن أخوض فى الكتاب ، فهو بين أيديكم على كل حال ، ومما يؤسفنى حقا أن تتأخر الترجمة العربيـــة عن الترجمة الإنجليزية[٢] بما يزيد عن خمس عشرة سنة ، لكن النص مع ذلك لايزال حيـــا ، وكل قضـــاياه مطروحـــة ، أرجو أن تفجر فى أفقنا ما فجرته من مناقشات فى كل مكان عرضت فيـــه . والله من وراء القصد .

دكتور / إبراهيم الدسوقى شتـــا

أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية

كلية الآداب - جامعـــة القاهـــرة

نوفمبـر ١٩٩٧

---

(١) فى كتابه "در خدمت وخيانت روشنفكران = خدمة المفكرين وخيانتهم" والذى صدر سنة ١٩٧٧ و بعد وفاته ، والذى اعتبره بعضهم بسطا لقضايا الابتلاء بالتغرب ، وهو ليس كذلك ، عرض جذور العصيـان الفكرى فى إيران منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث . صص ١٥٢-١٩٥من الكتاب .

(٢) صدرت الترجمة الإنجليزيـــة تحت عنوان :

Paul Sparchman ,Plagued by the West ,Delmar ,N.Y., Caravan Books, 1982.

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

على سبيل التقديـــم

١ - ستة عشـــر طنـــــا

أتيت إلى الدنيـــــا ذات صباح لم تطلع له شمس

حملت فأسى ، وذهبت إلى المنجم ، وأنتجت ستة عشر طنا من الفحم ، من الدرجة التاسعة

وقال لى رئيسى المباشـــر : أحسنت . فسعدت جدا .

إنك تنتج ستة عشر طنا ، وكل ما لديك فى مقابلهـــــا .

أنك ذات يوم سوف تزداد تقدمـــا فى العمـــر ، وستزداد غوصا حتى حلقك فى الديْن

آه يا بطرس المقدس ! فلتطل على أرواحنـــا

تلك التى أودعناهـــا مخزن الشركـــة .

عندما ترونى قادما ، تنحوا عن طريقى .

كثيرون لم يفعلوا هذا الأمـــر ، وماتوا .

فإحدى قبضتى حديد ، والأخـــرى فولاذ

وإن لم تطلكم قبضتى اليمنى ، طالتكم اليســـرى .

ويعتقد بعضهم أن الإنســـان خلق من طين

لكن الفقيـــر مجنون أيضـــا

فقد خلق من العضـــلات والدم

من العضـــلات والدم والجلد والعظام

ومن مخ ضعيف ، وظهر قـــوى .

إنك تنتج ستة عشر طنا ، وكل ما لديك فى مقابلهـــا

أنك ذات يوم سوف تزداد تقدمـــا فى العمـــر ، وستزداد غرقا حتى حلقك فى الدين

آه .. يا بطرس المقدس ، لا تدعُنا إلى الموت

فنحن لا نستطيـــع المجىء

إذ أودعنـــا أرواحنـــا مخزن الشركـــة .

الكلمات لميرل ترافيس ، والغناء لإرنى فورد

نقلا عن إسطوانة ٣٣لفة إنتاج كابيمول ريكوردر

أمريكـــا " مع الشكر لبتى توكلى التى نقلت

لى كلمات الإسطوانـــة .

٢- قبل المدخل

ما سوف تقرأونه بين دفتى هذا الكتاب ، قدم أول ما قدم فى صورة تقرير إلى " مجلس الهدف من التعليم فى إيران "فى جلستين من الجلسات المتعددة التى عقدها المجلس المذكور ، إحديهما يوم الأربعاء ٨آذر سنة ١٣٤٠(١٩٦١) والأخرى يوم الأربعاء ٢٧ديماه سنة ١٣٤٠، وقد نشرت مجموعة تقارير أعضاء ذلك المجلس فى بهمن سنة ١٣٤٠من قبل وزارة المعارف ، لكن لم يكن هناك قط موضع لهذا التقرير فى تلك الصفحات ، فلم يروه جديرا بهذا ، ولم يروا نشره ممكنا ، ولم يحن الأوان بعد لأن تقوم إحدى إدارات وزارة الثقافة بنشر هذا التقرير رسميا ، بالرغم من أن الأوان كان قد حان لأن يتحمل الأعضاء المحترمون لذلك المجلس عبء سماعه .

ومن ثم لم يكن هناك بد من أن يبقى هذا التقرير بلا نشر ، ووصلت نسخه المكتوبة على الآلة الكاتبة إلى يد هذا وذاك من الأصدقاء والأفاضل ، فقاموا بفحصه ، وأبدوا بعض الملاحظات بهدف تهذيبه ، ومن بين هؤلاء الأفاضل الدكتور محمود هومن الذى أوصانى كثيرا بقراءة أحد أعمال " ارنست يونجر" الألمانى ويسمى " تجاوز الخط " ، وهو مبحث فى العدمية ، وهذا – على حد قوله- لأن كلينا نظر إلى موضوع واحد إلى حد ما ، لكن من وجهتى نظر مختلفتين ، وأننا تحدثنا عن موضوع واحد بلغتين . ولأننى لم أكن أعرف اللغة الألمانية فقد لازمته شخصيا ، وعلى مدى ثلاثة أشهر ، وبمعدل مرتين على الأقل كل أسبوع ، كل منها لثلاث ساعات على الأقل ، واستفضت من محضره ، وتتلمذت عليه ، وكانت النتيجة أن تمت ترجمة " تجاوز الخط " إملاءً منه ، وتحريرا منى .

وكان فى خلال هذه المعمعة أن صدر كتاب الشهر عن جريدة " كيهان " أوائل سنة ١٣٤١(١٩٦٢) محتويا على الفصل الأول من تجاوز الخط ، والثلث الأول من " الابتلاء بالتغرب " ، وهذا الثلث الأول أدى بكتاب الشهر إلى التوقف ، وانتهى أمره إلى أن ألقى ببذرة " الابتلاء بالتغرب " وانقلب إلى " كيهان الشهرية " التى لم تصدر بدورها سوى عدد واحد .

لكننى نشرت نص " الابتلاء بالتغرب " مستقلا وفى ألف نسخة فى شهر مهر

سنة ١٣٤١، وهو نفس هذا النص الذى بين أيدينـــا بزيادات فى بعض المواضع ، وحذف فى مواضع أخرى وبإعادة النظـــر فى بعض الأحكام والآراء كما أذكر هنا أننى أخذت هذا المصطلح أى " الابتلاء بالتغرب " من التعبيرات الشفوية لأستاذ آخر لى هو " أحمد فرديد " وكان أحد المشاركين فى " مجلس هدف التعليم " ذاك ، وإذا كانت قد تمت فى تلك الجلسات بعض المناقشات ، فقد كانت واحدة منها بينى وبينه وكانت لديه هو الآخر أقوال وآراء تحت نفس هذا العنوان وهى جديرة بالسماع إلى حد كبير ، وكنت آمـــلا فى أن يجرأ قلمه على كتابتهـا .

والآن قد صار متن هذه الطبعة الثانية شيئـــا ينكر ، وهى مفصلـــة قليلا عن الطبعة الأولى التى كتبتها أواخر سنة ١٣٤٢ لطبعها طبعة ثانية فى نسخ عديدة وبالقطع الجيبى والتى صودرت وهى تحت الطبع ، وأفلست دار النشر التى كانت تقوم بطبعها وهى " بنـگاه جاويد ".. فسود الله وجهى . لكن هل يصح القعود ؟ أبدا .. وكان أن كتبته من جديد فى فروردين سنة ١٣٤٣وأرسلته إلى اوربـــا بهدف نشره على أيدى الشباب من طلاب الجامعات المقيمين فى تلك الديار ، وهو ما لم يحدث ، وكان أن عادت البضاعة الفاسدة إلى صاحبها كما ترون برغم كل التهذيب والتعديل الذى تعرضت لـــه ، واعذرونى أن لم يكن لدى الصبر على كتابتها من جديد ، ولو كنت فعلت ، لكان أمامكم الآن عملٌ جديد . لكن فى خلال هذه الفترة طبع عدة مرات فى طهران ومرة فى كاليفورنيا طبعة مصورة عن نفس ذلك النص الأول وبشكل سرى ، وبدون إذن من المؤلف " رحمه الله" !! ويا لها من أموال طائلـــة دفعها عباد الله هدرا فى شرائها ، وسلم الله الرقابة التى تسلب حق نشر عمل ما من مؤلفه ، وتعطيه بهذا عمليـــا لآخرين لديهم الشجاعة ويجدون السوق ، ومن السفرة الممتدة ، يجدون فحسب رائحة المسك !! وعلى هذا النسق ، كان أكثر ردود الأفعال التى حدثت حول هذه الأباطيل أشبه كثيرا بالضجيج منها بالكلام ، وجعلت إسما ما مشهورا بين العباد أكثر من أن تثبت حقـــا ، لكن آحاد النقاد الذين انتصحت بكتاباتهم ، وراعيت النقاط الصحيحـــة فى نقدهم ، فقد استيقظوا من نومهم متأخرين بحيث صدقت أن هذا الكتاب قد استيقظ ، وصدقت أن هذه الصفحات المضطربة صارت جديرة – على خلاف انتظار صاحبها – بأن تكون بعد ست أو سبع سنوات من كتابتها جديرة بالنقاش !! وكنت أظن أنا نفسى أنها مجرد جدل حول قضية مثارة لمدة يوم ، وأنها

مـاتت على الأكـثـر بعـد سنة أو سنتين ، لكنكم ترون أن الألم لا يزال مـوجـودا فى الجوارح ، وأن المرض يزيد فى نطاق عدواه يوما بعـد يوم ، ومن هنا فرغم كل هذه الأحكام والآراء والتفسيرات المتسـرعة التى يحتوى عليها ، رضيت بنشـره مرة أخرى ، وعفوا إذا كان بعد مروره على كل هذا التهذيب ، لا يزال قلما وقحـا ، كما آمل أن تحفظوه من تطاول خناسى العصـر ، وهم إخوان الشياطين .

٣- تشخيص مرض مـــا

أقول " الابتلاء بمرض التغرب " مثل الابتلاء بالوبـــاء . وإذا لم يوافق التعبير الذوق ، أقول كالتعرض للفحة حر أو نزلة برد ، لكن لا ، إنه على الأقل شيء أشبـــه بمرض التقدم فى العمر ، هل رأيتم كيف يتعفن القمح ؟ من الداخـــل ، يكون القشر سليما وفى مكانه ، لكنه قشر فحسب ، نفس الجلد الذى يبقى من الفراشة على شجـــرة . على كل حـال ، فـالحديث عن مرض مـا ، عـارض جـاء من الخـارج ، واستفحـــل فى بيئة مستعدة للمرض ، فلنبحث إذن عن خصائص هذا المرض وسببه أو أسبابه ، وسبل علاجه إن كانت هناك استطاعة .

ولهذا الابتلاء بالتغرب طرفـــان ، أحدهما الغرب ، والآخر نحن الذين أصبنا بالتغرب . ونحن أى قسم من الشرق . وبدلا من الطرفين ، لنقل قطبين أو نهايتين لأن الحديث على الأقل عن نهايتين لمدرج واحد إن لم يكن عن ناحيتين من العالم . ولنضع بدلا من الغرب وإلى حد ما كل اوربا وروسيـــا السوفيتية وكل أمريكا الشماليـــة ، أو لنضع الدول المتمدينة أو الراقية أو الدول الصناعيـة ، أو كل الدول القادرة بمساعدة الآلة إلى تحويل المواد الخام إلى أشكال أكثر تعقيدا وعرضها فى الأسواق كبضائع ، وهذه المواد الخام ليست فحسب حجر الحديد أو النفط أو النحاس أو القطن وصمغ الكثيراء بل والأساطيـــر أيضـــا وأصول العقائد والموسيقى أيضـــا والعوالم العلويـــة .

وبدلا من أن نقـول نحن ، ونحن جـزء من القطب الآخـــر ، لنقل آسـيـــا وأفريقيـــا ، أو الدول النامية أو المتأخرة ، أو الدول غير الصناعيـــة أو مجموعة الدول التى جُعلت مستهلكـــة لمصنوعات الغرب ، تلك المصنوعات التى ذهبت موادها الخام – التى ذكرتها – من نفس هذه الناحيـــة من العالم أى من الدول النامية : النفط من سواحل الخليج والكتان والتوابل من الهند والغاز من افريقيا ، والحرير والأفيون من الصين ، وعلم الإنسـان من جزر المحـيط ، وعلم الإجتمـاع من أفـريقيـــا ، وهذان العلمان الأخيران من أمريكا الجنوبية أيضـــا ومن قبائل الأزتيك والأنكا التى أبيدت تماما نتيجة لدخول المسيحيـــة ، على كل حـــال كل شيء من مكان ، ونحن من بينها، لدينا نقاط مشتركة مع هذه المجموعة الأخيرة ، أكثر مما لنا من تميز وفروق .

وليس فى طاقة هذه الأوراق أن تقدم تعريفا لهذين القطبين أو تلك النهايتين من وجهة نظر الإقتصاد أو السياسة أو علم الإجتماع أو الحضارة ، فهو أمر دقيق وفى وسع أهل التخصص ، لكن سوف ترون أننا سوف نستعين مرغمين وبين الحين والآخر بالأصول العامة لكل هذه الميادين ، النقطة الوحيدة التى يمكن أن نوردها هنا ، أنه انطلاقا من هذا المفهوم ، لم يعد الشرق والغرب مفهومين جغرافيين بعد ، فبالنسبة لأوربى أو أمريكى يعنى الغرب اوربا وامريكا ، ويعنى الشرق روسيا السوفيتية والصين ودول شرق اوربا ، أما بالنسبة لى لا معنى سياسى هناك للشرق والغرب ولا معنى جغرافى بل هما عندى مفهومان إقتصاديان ، فالغرب يعنى الدول الشبعى والشرق يعنى الدول الجائعة ، وفى رأيى أن جنوب أفريقيا قطعة من الغرب ، بالرغم من أنها تقع أقصى جنوب القارة الأفريقية ، وأغلب دول أمريكا اللاتينية قطعة من الشرق ، بالرغم من أنها تقع فى نصف الكرة الغربى . على كل حال فمن الصواب أن نسأل عن الخصائص الدقيقة لزلزال ما من جهاز قياس الزلازل التابع للجامعة ، لكن قبل أن يسجل جهاز قياس الزلازل شيئا ، يكون جواد الفلاح وإن لم يكن أصيلا قد هرب واتجه إلى خلاء الأمان ، ويريد صاحب هذا القلم ، على الأقل بحاسة شم أكثر حدة مما لدى كلب الراعى ، ورؤية أكثر بعدا مما لدى غراب ، أن يرى شيئا مر به الآخرون مغمضى العيون ، أو لم يروا فى عرضه نفعا لمعاشهم أو لمعادهم .

ومن ثم لأقم بتعريف دول المجموعة الأولى بهذه السمات العامة : أجر مرتفع ، ومعدل وفيات منخفض ومعدل مواليد منخفض وخدمات اجتماعية منظمة وكفاية فى المواد الغذائية " على الأقل ثلاثة آلاف سعر حرارى فى اليوم " ودخل عام أكثر من ثلاثة آلاف تومان فى العام ، وجو ولون من الديموقراطية مع تراث من الثورة الفرنسية . كما أعرف دول المجموعة الثانية بهذه السمات وعلى نفس الترتيب والنسق : أجر منخفض ومعدل وفيات مرتفع ومعدل مواليد أكثر ارتفاعا وخدمات اجتماعية منعدمة أو تقليدية وفقر فى التغذية " على الأكثر ألف سعر حرارى فى اليوم " ودخل أقل من خمسمائة تومان فى العام ولا خبر عن الديموقراطية مع ميراث من العهد الأول للإستعمار .

ومن الواضح أننا من هذه المجموعة الثانيــــة ، من مجموعة الدول الجائعة ، والمجموعة الأولى كلها من الدول الشـبعى ، بتعبير خوزيه دى كاسترو فى كتابه "جغرافية الجوع " ترون أنه لايوجد فحسب بين هاتين النهايتين مسافة شاسعة بل – على حد قول تيبور مندو – فجوة غير قابلة للملأ تزداد عمقا واتســاعا يوما بعد يوم ، بحيث صارت الثروة والفقر والقوة والعجز والعلم والجهل والعمران والخراب والمدنية والبربرية فى العالم قطبين متنافرين ، أحدهما تحت سيطرة الشبعين والأغنياء والأقوياء والصناع ومصدرى المصنوعات ، والقطب الآخر للجياع الفقراء العجزة المستهلكين المستوردين . وزخم التكامل فى تلك الناحيـــة من العالم تصاعدى ، أما نبض الركود فى هذه الناحية من العالم فمتجـــه إلى الإنطفاء ، ليس اختلافا ناتجا عن تباعد الزمان والمكان ، أو قابل للتقييم بميزان الكم ، بل اختلاف من ناحيـــة الكيف . هما قطبــــان متباعدان كلاهما يختار البعد عن الآخر ، فى تلك الناحيـــة من العالم التى باتت تخشى من حركتها، وفى هذه الناحية من العالم التى لم تجد بعد مجالا لترشيد حركاتها المتنافرة المبعثرة التى تضيـــع فى المجارى ، وكل من هذين العالمين متحرك فى ناحية مـــا .(١)

ومن هنا فقد مضى ذلك الزمان الذى كنا نقسم العالم فيـــه إلى كتلتين : كتلتى الشرق والغرب أو الشيوعية وغير الشيوعيـــة ، بالرغم من أن المادة الأولى من دساتير أغلب حكومات العالم لا تزال تمثل الخدعة الكبرى فى القرن العشرين ، لكن الغزل الذى تتبادله أمريكا وروسيـــا " الزعيمتان بلا منازع المعترف بهما لهاتين الكتلتين " فى قضيـــتى قناة السويس وكوبا ، دل على أن صاحبى القريتين المتجاورتين يجلسان معا فى سلام حول مائدة واحدة ، وبعدها معاهدة منع التجارب النووية والقضايا الأخرى ، ومن هنا فإن عصرنـــا–علاوة على أنه لم يعد عصر المواجهة بين الطبقات الغنية والفقيرة داخل الحدود أو عصر الثورات الوطنيـــة ، لم يعد أيضـــا عصر المواجهة بين المذاهب والأيديولوجيات ، فتحت غطاء أية مصيبة أو انقلاب عسكرى أو ثورة فى زنجبار أو سورية أو اورجواى ، ينبغى أن نلمح ما الذى يختفى وراءها من مؤامرة لأية شركة استعماريـــة والحكومة التى تظاهرها ،

---

(١) نقل بتصرف عن " جهانى ميان ترس واميـــد= عالم بين الخوف والرجاء " لتيبور مندو ترجمة خليل ملكى تهران، ١٣٣٩

وأيضـــا لايصح فى عـصـرنا أن نصنف الحـروب الأهليـــة بأنها حـروب آراء مـختلفـــة حتى فى ظاهر الأمـــر ، ففى هذه الأيام – حتى طفل الكتاب – لا يرى فحسب تحت غطاء الحرب العالمية الثانيـــة الرغبة التوسعيـــة للمنتجات الصناعية الميكانيكية لطرفى الصراع ، بل ينظر فى أحداث كوبا والكونغو وقناة السويس أو الجزائر أيضـــا وعلى الترتيب إلى مشاجرات السكر والماس والنفط ، أو فى مذابح قبرص وزنجبار وعدن وفيتنام إلى الحصول على رأس جسر للمحافظة على طرق التجارة المحددة فى المقام الأول لسياســـة الحكومات .

لم يعد عصـرنا بعـد هو ذلك العصر الذى يُخوف فـيه الناس فى الغـرب من الشيوعية وفى الشرق من البورجوازية والليبرالية ، والآن يستطيع حتى ملوك الدول أن يكونوا ثوريين ، وأن يتحدثوا بأحاديث ذات خبىء ، ويستطيـــع خروشوف أن يشترى القمح من أمريكا ، والآن صارت كل هذه الأيديولوجيات طرقـا إلى العـرش الأعلى للميكنـــة والآلـــة . وأهم ما فى هذا المجال هو انحراف البوصلة السياسيـــة لليساريين والمتظاهرين باليسارية فى كل العالم نحو الشرق الأقصى ، ويتسعين درجـــة عرجوا من موسكو إلى بكين ، وذلك لأن روسيـــا السوفيتية لم تعد " زعيمة الثورة العالمية " بعد ، لكنها على رأس مائدة أصحاب الصواريخ النووية من الدرجة الأولى ، وهناك ما بين قصر الكرملين فى موسكو والبيت الأبيض فى واشنطن خط تليفونى مباشـــر ، بحيث لا تكون هناك حاجـــة لوساطة الإنجليز بينهما ، ومسألة أن خطر روسيـــا السوفيتية قد انحســـر أمر فهمه حتى أرباب السلطـــة عندنا ، والمرعى الذى لا تزال روسيـــا السوفيتية ترعى فيـــه هو بقيـــة المائدة الملعونة للحرب العالميـــة الأولى ، الآن هو عصر القضـــاء على الستالينيـــة ، وفاجأنا راديو موسكو بأنه مؤيد لاستفتـــاء السادس من بهمن (١) وعلى كل حال ، حلت الصين الشيوعية محل روسيا السوفيتية الآن ، وذلك لأنها تماما كما كانت روسيـــا سنة ١٩٣٠ تدعو جوعى العالم الآن إلى الإتحـــاد أملا فى الوصـــول إلى جنة الغد ، وإذا كان تعداد روسيـــا فى ذلك الزمان نيفا ومائة مليون ، فإن تعداد الصين الآن سبعمائة وخمسين مليونـــا .

---

(١) المقصود ما أطلق عليه الشاه الثورة البيضـــاء . لمعلومات أكثر أنظر : الثورة الإيرانية – الجذور والأيديولوجيـــة للمترجم صص :٢٦٣–٢٦٥والجزء الثانى صص ٢١–٢٢٠ المترجم .

حقيقة أننا الآن كما يقول ماركس لدينا عالمان فى صراع ، لكن هذين العالمين قد وجدا حدودا أكثر اتساعا بكثيــــر مما كان فى زمانه ، والصراع بينهما ذو سمات أكثر تعقيدا من الصراع بين العامل ورب العمــــل ، فعالمنـــا هو عالم المواجهة بين الأغنيـــاء والفقراء فى ساحــــة العالم الواسعــــة ، فعصرنا هو عصر عالمين : أحدهما متجــــه إلى صناعة الآلة واستخدامها وتصديرها ، والآخر متجه إلى استهلاكها وافسادها واستيرادها ، أحدهما صانع والآخر مستهلك . وما هى ساحة هذا الصراع ؟ العالم بأكملـــه ، أما أسلحته فعلاوة على الدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات الصواريخ التى هى فى حد ذاتها من مصنوعات عالم الغرب ، هناك اليونسكو وال "F.A.O." و "A.K.F." وبقية المؤسسات التى يطلق عليها دوليــــة ، والتى تبدو فى الظاهر جماعيــــة وعالميــــة ، لكنها فى واقع الأمر حيل غربية تذهب فى رداء جديد إلى استعمار ذلك العالم الثانى فى أمريكا الجنوبية وآسيـــا وأفريقيـــا ، وأساس تغرب كل الشعوب غير الغربيــــة يكمن هنا . وليست المناقشــــة هنا حول رفض الآلة أو ردها ، كما كان أنصار اليوتبيين أوائل القرن التاسع عشــــر يتخيلــــون . مطلقا ، فإن سيطرة الآلة على العالم حتميــــة تاريخيــــة . النقاش حول أسلوب التعامل مع الآلــة والتكنولوجيـــا .

النقاش هو حول أننا نحن الدول الناميــــة – سكان دول المجموعة الثانية – لسنا من صناع الآلــــة ، لكن بحتمية الاقتصـــاد والسياســــة وتلك المواجهــــة بين عالم الفقر وعالم الثروة من الواجب أن نكون مستهلكين مؤدبين ومطيعين لمصنوعات الغرب أو على الأكثر نكون مصلحين لها قانعين مستسلمين ضعاف الأجــــور [(١)] ، وهذا يستلزم منا أن نجعــــل أنفسنـــا " على مقاس " الآلــــة وكذلك تكون حكوماتنا وثقافاتنا وحياتنا اليوميــــة ، وكل شيء عندنـــا بقدر حجم الآلــــة وطولهـــا ، وإذا كان ذلك الجانب يصنع الآلــــة ، فقد اعتاد بالتدريج وطبقـــا للتطور التدريجى الذى استمر مائتى عام أو ثلاثمائــــة عام على هذا الإله الجديد وجنته وجحيمــــه ، فماذا يقول الكويتى الذى حصــــل على الآلة بالأمس أو الكونغولى أو أنا الإيرانى ؟! بأى شكل نريد أن نعبر هذه الفجوة التاريخيــــة ذات الثلاثمائــــة عام ؟ لنترك

(١) أو مجمعين لمفرداتها توفيرا لنقل المواد الخام واستغلالا للأيدى العاملة الرخيصــــة ، ولكى يُنعم علينـــا بلقب التمور .المترجم.

الآخرين ولنتناول أنفسنـــا . الموضوع الأصلي لهذا الكتاب هو أننا لم نستطع أن نحافظ على شخصيتنا الثقافية التاريخيـــة في مواجهة الآلة وهجومها الحتمي ، لكننا أصبنا بالإضمحلال [1] الحديث حول أننا لم نتخذ موقفا محسوبا ومتزنـــا في مواجهة غول العصور الحديثة هذا ، والموضوع هو أننا ما لم ندرك ماهيـــة الحضارة الغربية وأساسها وفلسفتها ، وأخذنا نقلد الغرب شكلا وفي الظاهر باستهلاك آلاته ، فإننا نشبه تماما ذلك الحمار الذي دخل في إهاب أسد ، وقد رأينا ماذا حدث له ، وإذا كان ذلك الذي صنع الآلة يرتفع صراخه الآن ويحس بالإختناق ، فنحن لا نشكو أبدا حتى من أننا دخلنا في زي خادم الآلة ، بل ونتبجح ، على كل حال ، لنا مائتا سنـــة ونحن كالغراب نقلد القطا " إذا كان من المسلم به من هو الغراب ومن هو القطـــا " ومن كل ما ذكرت نحصل على إحدى البدهيات هي أننا ما دمنا مستهلكين فحسب وما دمنا لم نصنع الآلـــة ، فنحن متغربون ، ومن الطريف أننا إذا صنعنا الآلة ، فسوف نصير مبتلين بمرض الآلة ، تماما كالغرب الذي يرتفع صراخـــه من التكنولوجيـــا والآلـــة . [2]

دعنا من هذا ، فليست لدينا الكفاءة لأن نكون مثل اليابان التي اهتمت منذ مائة عام بمعرفة الآلـــة ، وعندما نافست الغرب في الابتلاء بالآلة ، وهزمت القياصرة " سنة ١٩٠٥" وأمريكا " سنة ١٩٤١" ومن قبل استولت على أسواقهم من أيديهم ، قمعوها في النهاية بالقنبلة الذرية حتى تعلم أن هناك رعدة وأي رعدة بعد أكل الخربوزك ، والآن وقد بسطت دول الغرب الحرة جانبا من مائدة أسواق العالم الحافلة أمام بضائعها ، فبسبب أنها تستثمر أموالها في كل الصناعات اليابانيـــة ، وأيضا بهدف تعويض النفقات العسكرية اللازمة للمحافظة على هذه الجزيرة التي تعقل رجالها بعد الحرب العالمية الثانيـــة ، وتجاهلوا أمور الجيش والتسليح والتكتلات العسكريـــة ، وربما أيضا لكي تخلص الإنسان الأمريكي العادي من عذاب الضمير الذي

---

(١) النموذج العيني لهذه القضيـــة ذكرته في كتابي " جزيره، خارك " من انتشارات دانش – تهران – ١٣٣٩ .

(٢) كنمـوذج إرجع إلى : France contre les Robeots تأليف الكاتب الفـرنسي جـورج برنانوس .

سببه جنون طيار [1] تلك الطائرة الجهنميـــة الذى أعاد قصة عاد وثمود فى هيروشيما ونجازاكى .

ولدينا بدهيـــة أخرى ، وهى أن الغرب عندما سمانا " من السواحل الشرقية للبحر المتوسط وحتى الهند " بالشرق ، كان ذلك عندما استيقظ من بياته الشتوى فى العصـــور الوسطى ، وبحثـــا عن الشمس والتوابل والحرير والبضائع الأخرى ، جاء إلى الشرق بداية فى زى حجاج الأماكن المقدســـة المسيحيـــة " بيت لحم والناصرة .... الخ " ثم فى سلاح الحروب الصليبيـــة ، ثم فى رداء التجار ، ثم فى حماية مدافع السفن المليئة ببضائعـــه ، ثم باسم مبشر بالمسيحيـــة ، وفى النهاية باسم داعية مدنيـــة وحضـــارة ، وهذه الأخيرة إسم صحيح سقط لهم من السماء ، فالإستعمار فى النهاية من مادة " العمران " والذى يقوم بالعمران لابد له من أن يتعامل مع مدنيـــة .

والمهم أنه من بين كل تلك الأراضى التى اجتاحها كل هؤلاء السادة واستولوا عليها ونهبوها ، كانت افريقيا أكثر قابلية ، وأكثر بعثا على الأمل ، هل تعلمون لماذا ؟ لأنه إلى جوار المواد الخام التى كانت تملكها " وهى كثيرة : الذهب والماس والنحاس والعاج ومواد خام أخرى كثيرة " ، لم يكن سكانها يخطون على أرضية حضاريـــة أو دينيـــة ممتدة قط ، كان لكل قبيلة آلهتها الخاصة ورئيسها وتقاليدها ولغتها ، وياله من تشتت وتبعثر ويالها من فرقة ، ولا محيص لها من قبول السلطـــة ، وأهم من هذا كله أن المحليين فى أفريقيا كانوا يتجولون عراة ، وعندما عاد استانلى السائح الإنجليزى المحب للبشر نسبيـــا إلى وطنه بهذه البشارة فى النهاية من الكونغو إلى وطنه ، أقاموا الاحتفالات فى مانشستر ، ولهجوا بالدعاء ، وفى نهاية العام أرسلوا إلى كل فرد ثلاثة أمتار من قماش مصانع مانشستر ، تصلح ثوبا يرتديه رجال الكونغو ونسوتها ليصيروا " متحضرين يشتركون فى مراسم الكنيسة ، وهذا يعنى ٣٢٠مليون

---

(١) كان إسم ذلك الطيار كلود تيرلى ، أنظر الكتاب التالى الذى يحتوى على مراسلاته مع كاتب نمسوى وصدر بمقدمة لبتراند راسل. Avoir detruit Hiroshima Ed Robert، Ed Robert Laffont Paris. وقد نشرت ترجمة هذا الكتاب سنة ١٣٤٢في أعداد متتالية لمجلة فردوسي على يد ايرج قريب تحت عنوان " ويران ساختن هيروشيما = تدمير هيروشيما " .

باردة من قماش مصانع مانشستر [1] ونحن نعلم أن هذا الرائد من رواد الإستعمار كان مبشرا مسيحيا أيضا ، وإلى جوار كل تمثيل تجارى فى كل أنحاء العالم ، كان يقيم كنيسة أيضا ، وكان يدعو المحليين بكل حيلة ممكنة إلى الحضور فيها ، والآن وقد حمل الاستعمار رحله من تلك الأماكن ، فكل مفوضية تجارية كانت تغلق ، كان يغلق إلى جوارها باب إحدى الكنائس .

وكون أفريقيا أكثر قابلية وأكثر بعثا للأمل بالنسبة لهؤلاء السادة لسبب آخر هو أن سكان افريقيا أنفسهم كانوا من المواد الخام لكل نوع من المعامل الغربية فى علم الإنسان وعلم الإجتماع وعلم الأجناس وعلم اللغة وآلاف الأنواع الأخرى من العلوم تدون على أرضية التجارب الأفريقية والأسترالية ، ويستقر أساتذة كمبردج والسوربون وليدن بهذه العلوم على كراسيهم ، ويرون الوجه الآخر لعملة حضريتهم فى بربرية أفريقيا وبدائيتها .

لكننا نحن الشرقيين فى الشرق الأوسط لم نكن قابلين إلى ذلك الحد ولا باعثين على الأمل . لماذا ؟! إذا أردت أن أكون صريحا مباشرا ، أى أن أتحدث بشكل لا كلفة فيه ينبغى أن أسأل : لماذا لم نكن نحن الشرقيين المسلمين قابلين ؟! ترون أن الجواب موجود داخل السؤال ، لأنه داخل شمولنا الإسلامى لم نكن فيما يبدو شيئا قابلا للدراسة ، ولنفس هذا السبب ، فإن الغرب فى تعامله معنا ، لم يشتبك فحسب مع هذا الشمول الإسلامى " فى قضية التشجيع الدموى للتشيع فى العصر الصفوى – فى بذر بذور الشقاق بيننا وبين العثمانيين – فى تشجيع البهائية فى أواسط الحكم القاجارى – فى تفتيت العثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى ، وأخيرا فى وقوفه أمام رجال الدين الشيعة فى مصيبة الثورة النيابية وما بعدها " بل وجاهد فى أن يفتت بأسرع مايمكنه تلك الوحدة المفتتة من الداخل والتى تبدو شمولية فى الظاهر فحسب ، ويبدلنا فى البداية – مثل سكان أفريقيا – إلى مادة خام ، ثم يحملها بعدها إلى المختبرات ، وهكذا كان أنه من بين كل دوائر المعارف التى كتبها الغربيون ، تعد دائرة المعارف الإسلامية أهمها ، ونحن حتى الآن لا زلنا نغط فى

---

(1)Du Zambeze au Tanganika .1858-72 , Par Livingatone et Stanly .Paris .1958 .

المترجم : أو هكذا حدثونا عن أفريقيا ، وإلا فإن المواجهة في افريقيا بدأت وما زالت مستمرة – ضد الإسلام .

النوم ، لكن الغربي حملني في دائرة المعارف المذكورة إلى باب المختبر. والهند في النهايــة مكان قريب الشبه من افريقيا إلى حد ما ، وذلك بما فيها من تعدد لغات وتبعثر عروق ومذاهب وأديان ، أما أمريكا الجنوبية فقد صارت كلها مسيحيـــة بحد السيف الأسباني ، وجزر المحيط مجرد أرخبيل أي أفضل مكان يمكن أن يوجد فيه خلافات . وهكذا كان أن صرنا نحن فحسب شكلا وأيضا حقيقة شمولا إسلاميــا السد الوحيد في مواجهة انتشار استعمار " = مسيحية " الحضارة الأوربيـــة ، أي في مواجهة بحث الصناعة الغربية عن أسواق ، وعندما توقفت المدافع العثمانية في القرن التاسع عشر "؟!" خلف بوابات فينا ، كان هذا نهايـــة حادثـــة كانت قد بدأت في أسبانيـــا " الأندلس " سنة ٧٣٢هـ (١) وماذا نعتبر هذا الصراع والمنافســة بين الشرق والغرب خلال إثنى عشر قرنا إن لم نعتبره صراعا بين الإسلام والمسيحيــة ؟ على كل حال ففي هذا العصــر الذي نعيش فيه ، فإنني أنا الأسيوي بقيـــة تلك الشموليـــة الإسلاميـــة تماما وبقدر ذلك الأفريقي أو الأسترالي بقية البربرية والوحشية على السوية وبقدر واحد ، وتماما في نفس درجة القبول بالنسبة للأمم المتحضـــرة في الغرب وصناع الآلة ، إذا قنعنا بالتواجد في المتاحف فحسب ، وبأن نكون " شيئا " فحسب ، شيئا قابلا للدراسة في متحف أو مختبر ، هذا وليس أكثر ، وذلك خشيـــة أن تمد يدك إلى المادة الخام . الآن لم يعد النقاش قائما بعد حول : هل يريدون نفط خوزستان خاما أو ما هو ملك لقطر ، أو ماس كاتانجا دون صقل أو حجر كرويت كرمان دون تنقيـــة ، بل يدور النقاش حول هذا الموضوع وهو أنني أنا الأسيـــوي أو الأفريقي ينبغي أن أحفظ أدبي وثقافتي وموسيقـــاي وديني وكل شيء آخر لي تماما كأنه أثر خرج من تحت التراب دون أن تمسســـه يد ، حتى يأتي أولئك السادة ويتفحصونه ويحملونه معهم ويضعونه وراء صناديق العرض في المتاحف قائلين :

---

(١) أشير هنا إلى هزيمة عبد الرحمن الأموي " رأس أسرة الخلافة الإسلاميـــة في الأندلس " من شارل مارتل القائد الفرنسي في " بواتيه = بلاط الشهداء " وتوقف امتداد الخلافة الإسلاميـــة الغربية أوائل القرن الثامن الميلادي . ولتتذكروا أيضا أن مارتل هذا هو اليوم اسم كونياك فرنسي معروف !! .

– أجل .. هذه بربريـــة أخرى !!! (١)

وبعد هذه المقدمات ، اسمحوا لى كشرقى قدمى فى التقاليد ، وأتوق إلى قفزة مائتى سنة أو ثلاثمائة سنة ، ومضطر إلى تعويض كل هذا العجز والقصـــور ، ومقيم على أرضية تلك الشمولية الإسلاميــة المفتتة ، اسمحوا لى أن أعبر عن الابتلاء بالتغرب على هذا المنوال :

هو مجموعة من الأعراض طرأت على حياة سكان بقعة ما من بقاع العالم وثقافتهم وحضارتهم وأسلوب تفكيرهم بدون أية تقاليد تمثل نقطة ارتكاز ، وبدون أية استمرارية فى التاريخ ، وبدون أى تدرج فى تطور البناء ، بل كهدية حملتها الآلة فحسب . ويكون من الواضح إن قلنا بعد هذا التعبير أننـــا بعض هؤلاء الناس

ولما كان النقاش يدور فى هذا الكتاب فى البداية حول أقليم كاتبه وبيئته ولغته وتقاليده ودينه ، يتضح أكثر إذا قلنا أننا إذا امتلكنا الآلة أى صنعناها ، فإننا لا نعود بعد فى حاجة إلى تلقيهـــا كهديـــة مع ما يتقدمها وما يقترن بها .

والابتلاء بالتغرب سمة عصر من تاريخنـــا ، إذ أننا لم نحصـــل على الآلـــة حتى الآن ولا نعرف أسرار نظمها وبنيتها . التغرب سمة فترة من تاريخنـــا لم نعرف فيها مقدمات الآلـــة أى العلوم الجديدة والتكنولوجيـــا . الابتلاء بالتغرب سمة عصر من تاريخنـــا حيث اضطررنا تبعا لحتمية السوق والاقتصاد وتداول النفط إلى شراء الآلـــة واستهلاكهـــا .

كيف حدث هذا العصر ؟ كيف حدث أنه فى انصرافنا الكامل عن تطور الآلة ونضجها أن قام الآخرون بصنعها واستخدامها ، وجاءوا ووصلوا ، وعندما استيقظنا كان كل حفار نفط مسمارا دُق فى كل هذه الأنحـــاء ؟ كيف أصبحنا مبتلين بالتغرب ؟

---

(١) للسيد ثمين باغچه بان بان صديقي العزيز عالم الموسيقى ملاحظات " لم تنشر حول مؤتمر الموسيقى المنعقد في فروردين سنة ١٣٤٠في طهران يقول فيها " بالنسبة لدانييل او ممثل فرنسا لم يكن لديه أهم من أن نكون في العصر الساسانى ، ونكون جديرين بالنسبة للدراسة منه وهو الذى جاء من قلب القرن العشرين ، حتى يأتى هو بأجهزته الدقيقة ومسجلاته من آخر طراز ، ويتخذ طريقه مباشرة إلى البلاط الساسانى ، ويسجل فنون باربد ونكيســا ، ثم يعود إلى باريس بالطائرة النفاثـــة من المطار الذى يكون قد أقيم بالقرب من العاصمة الساسانية خصيصـــا للمستشرقين وخبراء الشعر والرسم والموسيقى .

لنعد إلى التاريخ .

٤- أول جذور المرض

هكذا يُستنبط من التاريخ أننا كنا ننظر إلى الغرب دائما ، بل إننا أطلقنا إسم الغربي قبل أن يسمينا الأوربيون بالشرقيين . عد إلى ابن بطوطة المغربي ، أو إلى جبل طارق الذي هو نقطة النهاية في الغرب الإسلامي ، ومنذ فجر حضارة الإسلام حتى انهيار قيمة كل مثال في مواجهة سلطة التكنولوجيا ، كنا دائما في هذه المنطقة من العالم كقبضة من حمل بعير من شمولية حضارة ما ، وكنا نعرف العالم بمثلنا ومقاييسنا ، وكنا نصفه بناء على قيمنا قبل أن يقوم الآخرون بالتصرف معنا بنفس الشكل ، أليس لكل دنو علو ؟ وإذا عدنا ألف سنة أو ألفي سنة إلى الوراء ، ونظرنا نظرة أكثر شمولية حولنا- في نفس منطقتنا – الشرق الأوسط "!!" ، كان أن كلده وآشور وعيلام ومصر واليهود وبوذا وزرتشت قد ظهروا في ساحة متسعة تمتد من وادي السند حتى وادي النيل ، وصاروا بناة لشيء لا يوجد سواه في خرج الحضارة الغربية .. لاجدال بعيدا عن التفاخر والتفيهق ! .

هذه ال " نحن " ذات الأطراف المتعددة ، في كل هذه العصور ، وقبل أن تركز أنظارها على المشرق الأقصى " الصين ومنشوريا والهند " بحيث تأخذ منها الصيني والطباعة والكرسي " المدفأة الإيرانية " والعرفان والتصوير ورياضة الجوك والمراقبة الصوفية " تعاليم زن " والزعفران والتوابل والرشيدية .. إلى آخره ، نظرت إلى وادي النيل وإلى ليديا " تركيا الحالية " وإلى المغرب الأقصى وإلى بحر الشمال الغني بالعنبر .. ونحن سكان هضبة إيران كنا جزءا من هذا الكل الذي ذكرت ، ولماذا كنا هكذا ؟ لنجد جوابا على سبيل الحدس والتخمين ، وانتبهوا إلى أنني قد ضيقت الدائرة ، والحديث عنا الآن نحن الإيرانيين .

ربما كان الفرار من الهند الأم هو أول اهتمام لنا بالغرب .. الفرار من المركز ؟ لست أدري . هذا ما يجب أن يوضحه علم الأجناس والألاعيب الآرية وعلم اللغات الهندو- اوربية . أنا أخمن . على كل حال ، لاجدال في الحضن الدافيء لنفس هذه الأم ، والذي كان جاهزا من أجلنا في أيام الأزمات . ونفس هذه الهند أعطت الملجأ لبقية الزرتشتيين الذين عاندوا ، ولم يستسلموا حتى لدفع الجزية الإسلامية وهربوا

مقتلعين جذورهم ولاجئين إلى الهند ، وأمامنا البارسيون وهم من أخلافهم ، أولئك الذين أعانوا الإنجليز على ظلمهم بشكل سيء فى سنوات استعمار الهند ، كما أنهم الآن يستولون على الأرستقراطية الصناعية فى الهند ، ثم مرة أخرى عند الهجوم المغولى ، ومرة ثالثة هربا من السيوف الصفوية المتعصبة ذات المظهر الصوفى ، وفى هاتين المرتين الأخيرتين ، كم من الكنوز الفكرية بقيت فى أمان نتيجة لهذا الهروب ، وكم من الثروات الفكرية صارت محفوظة من أذى الدهر ، وهذا الحضن الدافىء الأمومى ، بالرغم من أنه كان ملجأ لنا نحن المشربين ، إلا أنه لم يوجد طفلٌ قط وصل إلى نتيجة ما من تنعمه وتربيته فى حضن الأم ، الإسلام نفسه لم يصل إلى نتيجة ما وهو فى مكة ، ومن هنا حدثت الهجرة إلى المدينة ، ثم كان فى بغداد وفى دمشق والقاهرة أو فى اشبيلية وقرطبة أن وضع أساس عظمة جديرة بإمبراطورية ، والمسيحية التى رفعت نداءها من الجليل والناصرة ، رفعت أعلامها مباشرة فى قلب العالم الوثنى فى روما ، وظهرت المانوية فى طيسفون ودفنت فى تورفان . وبوذا الذى نبت من الهند أطل برأسه من بلاد الشمس المشرقة ، ومن هنا فنحن أيضا عندما هربنا من الهند " إذا كان الأمر هكذا " ، أو أدرنا لها ظهورنا ، اتجهنا نحو الغرب ، وإن كان هناك ثم تعامل مع هذه الأم المحتملة ، فهو تعامل بحب فى شكل تردد الحكيم بوزرجمهر عليها ، أو تسكع العارفين لزيارة سرنديب ، أو تصادم بالعنف فى شكل غزوات محمود الغزنوى ونادرشاه لابس الفراء ، لكن فى هذا التعامل مع الهند ، لم يكن قصدنا التقرب قط ، ولم نقم قط بصلة الرحم ، وأنا أعتبر أن هناك سببا أساسيا لما أسميه بالابتلاء بالتغرب يكمن فى نفس هذا الهروب من المركز والذى هو هروب من الحرارة أيضا .

وربما كنا ننظر إلى الغرب لهذا السبب الذى يكمن فى أن ضغط سكان الصحارى الشمالية الشرقية كان يسوقنا إلى تلك الناحية ، مثلما جاء الآريون وطردوا الشياطين المذكورين فى الشاهنامه حتى سواحل الخليج ، وبداية من التورانيين فى الشاهنامه حتى الهياطلة فصاعدا ، وكل عدة عقود كانت عشيرة ما " تركية أو فارسية " مساكنها على سروج خيولها ، تهاجم هذه المناطق بحثا عن مرعى حتى تعوض القحط المفاجىء بل والمزمن الذى ربما قضى على هذه الصحارى البعيدة ، وقد مات "قورش" فى تلك الصحارى البعيدة وهو يطارد السيث ، وعبر الغز والسلاجقة

والمغول أيضا هذه الصحارى على صهوات جيادهم ، وسفك دم سياوش على يد افراسياب فى تلك الصحارى . على كل حال لايوجد قرن واحد من عصورنا الأسطورية أو التاريخية ليس على جبهته موضع سنابك خيول عشائر الشمال الشرقى ، وكل الأسرات الحاكمة فى العصر الإسلامى – باستثناء واحد أو اثنين – أسسها هؤلاء الغلاظ العشائريون ، وبل وفيما قبل الإسلام ، وإلا فمن يكون البارثيون؟ ودفتر تاريخنا فى الأصل قد طوته العشائر دائما ، لا العائلات . وفى كل مرة نبنى منزلا ، عندما نصل إلى شرفه ، يصل نوع من الجياع المغيرين من الشمال الشرقى ، ويقومون بسحب السلم من تحت أقدامنا .. أبدا ، كانوا يقومون بهدم كل شيء من الأساس ، وكانت مدننا فى هذا الميدان الواسع للسباق المسمى بهضبة إيران دائما قطع شطرنج مبسوطة على الرقعة ، ومثل كرة أمام أقدام فرسان البدو الذين يعانون المجاعة ، يحملونها من هنا ويضعونها هناك (١) ، وقبة السلطانية بالرغم من عظمتها المعمارية وأبعادها الضخمة ، انقلبت الآن إلى مئات الكوات تثير مئات البسمات على هذا المفرش المتلون ، وفى هذه الصحراء الشاسعة ، وجد عدد قليل من مدننا الفرصة لكى تنمو فى شبابها وتتضخم وتصل إلى نضج

---

(١) وهناك حقيقة تاريخية غير معترف بها ، وهى أنه بالرغم من أنهم يخوفوننا منذ انقلاب اكتوبر وحتى الآن وطوال أربع وأربعين سنة من روسيا والشيوعية ، فإن حضارة المدن عندنا بعد استقرار روسيا السوفيتية والجمهوريات التابعة لها مثل التركستان وقيرغيزستان وتاجيكستان ، قد استراحت من شر الهجوم المزمن للبدو فى تلك النواحى ، واستقرار الحكومات من النوع السوفيتى في هذه المناطق التى نكرتها ، قد أسكنت بعد ١٩١٧البدو الرحل ، وجعلت الصحارى عامرة إلى حد ما والمدن ذات مصانع ومزارع ومدارس ومؤسسات حضرية أخرى ، ولم يعد هناك بدو رحل حتى يكون هناك هجوم ، وإن كان هناك ، فلا حاجة هناك إلى امتطاء الخيول والمجيء ألف فرسخ للوصول إلى خراسان ، فيكفى أن يقف عند أقرب المدن والقرى والمزارع والقيام بالعمل فيها . ومن هنا فإن غارات العشائر أى هجوم البدو الأجانب من الشمال الشرقى للبلاد قد فقد مفهومه ، ومنذ بداية القرن العشرين حتى الآن ، حل محله هجوم الصناعة " من النفط " وهجوم المتمدينين الأجانب من الغرب والجنوب الغربى . المترجم : بالطبع ينظر جلال آل احمد إلى الموضوع من ناحية واحدة ، فلو كان العمر قد امتد به إلى فترة انهيار الاتحاد السوفيتى واستقلال الجمهوريات المذكورة ، لأدرك السبب الحقيقى فى توقف الهجوم وهو أن الجمهوريات المذكورة وطبقا لسياسة تذويب الشعوب السوفيتية ، واحلال الروس مكانهم في الجمهوريات المتاخمة ، لم تكن تحتوى على بدو أو مسلمين أو عشائر ، بل كان أغلب سكانها من الروس ، ولا تحتوى من السكان الأصليين إلا على ما يكفى لإدارة عجلة الإنتاج السوفيتى . أما نمو الحياة الحضرية ، فلا يساوى الترويس ومحو الشخصية .

السنين ، ثم تقف عن النمو فى شيخوختها ، وتبدأ فى الاضمحلال ، ثم مثل بغداد التى ظهرت بين خرائب طيسفـــون ، تسلم الروح وكأنها طائر القفنوس بين النيران تربى لها خلفا فتيا جميلا ، ومن هنـــا ظهرت بعض التعبيرات عندنـــا مثل " فليمر هذا أيضـا " و واسـتقر حـجر " لكل إنسـان عدة أيام هى نوبته " حـتى قيعـان آبار وجودنـــا ، وصار شعارنا " كل من أتى بنى عمارة جديدة " .

وعلى هذا النسق يمكن القول أننا طوال تاريخنا المدون ، قليـــلا ما منحت لنا الفرصـــة للإقامة فى الحضر ، وبالمعنى الدقيق للكلمة لم نصـــل إلى الحضريـــة أو الحضارة المدنية " البورجوازيـة " ، وإن كنتم ترون الآن أننا أخيرا - وبالقوة الجبرية - لدينـــا الآلـــة وآخذون فى التعود على الإقامة فى المدن وتبعاتها ، فإن هذا الأمر لما كان طفـــرة و جاء متأخرا ، فلا محيص من أن يكون له مظهـــر سرطانى ، وكل مدننا تنمو الآن فى كل مكان نمو غدة سرطانيـــة ، غدة إن وصلت جذورها إلى الريف وقضت عليه ، فواويـــــلاه !! .

وبالنسبـــة لاستمرارية الحيـــاة الحضريـــة ، إن كنتم ترون استثناءات فى ماضى التاريخ فى صحراء خوزستان مثل " الشوش = صوصا" أو فى الصحراء الوسطى مثل اصفهـــان وكاشان والرى ، فلا يمكن الحكم اعتمادا عليهـــا فحسب ، ولا يقوم بناء تاريخنا الماضى على أكتاف الأساسات والأعمدة والجدران والبيوت والأســـواق ، لأن كل أســـرة حاكمة تبسط نفوذها تقوم فى البداية بالقضـــاء على ما فعلته الأســرة السابقـــة ، بداية من الساسانيين الذين فعلوا ما أرادوا و قضوا على ما كان الأشكانيون قد فعلوه ، حتى القاجاريين الذين لوثوا بالملاط كل جدار وباب أقامه الصفويـــون ، وحتى أيامنـــا هذه ، قاموا ببناء البنك الوطنى " بانك ملى " فى مكان تكية الدولـــة ، ووزارة المالية فى مكان مخدع " كريم خان زند " أو حيثما بنوا مدرســـة فإنهم يبنونها فى مواضع المساجد أو أضرحـــة الأئمـــة .

ولا زلت أتعجب : لماذا نحن ضيقو الأفق هكذا مع هذه الآفاق المفتوحة التى لدينا؟! بحيث ترى أنه فحسب فى العهدين الأكمينى والصفـــوى يقوم الأب والإبن بالسعى فى إتمام بناء ما ، أما فى بقيـــة العصـــور " فكل من جاء بنى عمارة جديدة " وبأى شكل ؟ من مواد عمارات السابقين ، وحتى أمس كانوا يحضـــرون المرمر من مقابر المسلمين فى ابرقوه للقصور الملكيـــة ، وكلما غصت فى ناحية ما من نواحى البلد ،

ترى أن أساس كل بناء من حجارة قبور المتوفين ، ومواد كل كوبرى صغير حجارة قلعـــة قديمة مجاورة .

ومن هنا فإن بناء الحضارة نصف الحضريـــة ليس بناءً وضع أساسه أحدهم وعلاه آخر وزينه ثالث ووسع فيه رابع .. إلخ ، فبناء الحضارة الموصوفة بالحضريـــة التى كانت تقبل مركزيـــة الحكومات داخلها بناء مستند على عمد الخيـــام ، ومرتبط بظهور سروج الدواب ، كان الأكمينيون يقومون برحلات الشتاء والصيف والساسانيون أيضا ، هذا والشوش موجودة وهگمتانه " همدان " أيضـــا وكلتاهما عاصمة ، وطيسفون موجودة وأيضـــا فيروز آبـــاد ، وهكذا فإن علماء الآثار قد وصلوا بالأمر إلى درجة أنهم وجدوا فى أقواس أبنيـــة عديدة من العصـــور التاريخيـــة عندنا تشابها شديدا مع الخيام ، وإذا حدست بأنه لهذا السبب عجزنا وتقدم الغرب ، لا أكون قد جدفت كثيـــرا .

وتذكروا أيضـــا أننا طوال تاريخنـــا فى هذه الصحراء الواسعـــة ، كنا نقضى طوال ليالى الصيف فوق الأسطح وتحت سقف النجوم ، حقيقة أن الطبيعة الجافة والجو القاسى كانا قد قاما باحتوائنا إلى هذا الحد ، لكن هذه القسوة من الجفاف ومقاومتها – إن لم يكن هناك سيل وهو من خصائص هذه الطبيعة – ليس صعبا إلى هذا الحد إلا فى شتاء قصيـــرجدا ، ولا توجد مدينة واحدة من مدننا ليس فيها أكثر من ثلاثة شهور فى السنة من البرد والمطر والثلج ، وعلى هذا النسق : هل من الممكن أن يُعطى تيبور مندو الحق فى رأيه القائل بأن الحضارات المدنيـــة العظمى التى وصلت إلى التكنولوجيا هى التى استقرت فحسب فى تلك الناحيـــة من الكرة الأرضيـــة التى تتميـــز ببرودة جوهـــا والتى تقـــع بين مدارى السرطان والقطب الشمالـــى ؟[1]

ولاشك أن الأمر ليس كذلك ، فقد هوجمنا دائما من الصحارى الشماليـــة الشرقيـــة ، وكان الإسكندر أيضا قد جاء من مناطق الشمال الغربى لهضبـــة إيران ، والإسلام من صحراء الجنوب الغربى . لكن ما يقال بشأن الإسكندر – مع كل تلك الفترة الطويلة أو القصيرة من الإيرانية فى عهد خلفائـــه وأول فترة من مظاهر

---

(١) انظر ترجمة كتاب تيبور مندو التى سبق ذكرهـــا .

الابتلاء بالتغرب فى تاريخنا المدون – أى الطابع الميال أى اليونان عند البارثيين – فإن هذا الصدام مع الإسكندر وجنوده لم يكن صداماً مع بدو على سروج خيولهم ، كان صداما مع مغامرين وجنود مرتزقة من المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، الذين كانوا قد شجعوا من قصة " اناباريس" لإجزنفون ، وامتطوا صهوات جيادهم طلبا لثروة الملوك الإيرانيين ذات الأسرار بهميان مفتوحة وأفواه يسيل لعابها ، وجاءوا إلى هذه المناطق طمعا فى الحصول على كنوز " اكبتانه" والشوش واصطخر ، هؤلاء هم أول استعماريين فى التاريخ بعد الفينيقيين ، كما نعلم أن هؤلاء كانت لديهم عقدة بناء المدن أيضا ، ومن مصب النيل إلى مصب السند ، بذروا بذور عدة مدن باسم " الإسكندرية" فى مواضع مستعمراتهم المؤقتة ، لا تزال اثنتان منها تشمخان برأسيهما وقامتيهما تطلان على رواح الأثرياء الجدد وغدوهم على ساحة ماء البحر المتوسط . وفى الصدام مع هؤلاء الجنود المرتزقة ، إن كان ثم تدمير قد حدث ، فقد حدث على أيدينا[1] فقد كانت كل صفعة نتلقاها من بدو الشمال الشرقى نردها فى الغرب لسكان موانى البحر المتوسط ، ولقد احترقت اثينا بحيث يكون حريق اصطخر ردا على حريقها .

ولقد صار الإسلام إسلاما عندما وصل إلى المناطق العامرة بين دجلة والفرات ، وقبله كانت بدوية العرب وجاهليتهم ، ولم يقم قط على سفك الدماء ، حقيقة أننا قد سمعنا الكثير عن سيف الإسلام ، ولكن ألا تظنون أن هذا السيف إن كان فعالا فقد كانت أغلب فعاليته فى الغرب وفى مواجهة عالم المسيحية ؟ وعلى كل حال أظن أن هذه الشهرة تعود فى الأغلب إلى المقابلة بين الجهاد الإسلامى والتظاهر المسيحى بالاستشهاد فى عهدها الأول ، وإلا فإن المسيحية عندما استقرت ، نعلم ما الذى قامت به ، وفى فترة الابتلاع فى اسبانيا ، أو فى واقعة الاستيلاء والنهب فى أمريكا الجنوبية والوسطى ، أو فى السيطرة على أفريقيا ، أو فى آسيا الجنوبية الشرقية ،

---

(١) انظر مقال " اسكندر گجسته يا بزرگ = اسكندر الملعون أو الكبير " بقلم پرويز داريوش فى العدد الأول من " كتاب ماه كيهان " خرداد ١٣٤١

أو في تخريب حضارة " الخمير [1] على كل حال فإن السلام الإسلامي هو أكثر الشعارات سلاما في أي دين من أديان العالم ، وعلاوة على هذا فإن الإسلام من قبل أن يأتي إلينا نحن الذين دعوناه ، دعونا من " رستم فرخزاد " الذي دافع عن الفروسية الساسانية والتقاليد المتحجرة الزردشتية دفاعا نبيحا ، لكن أهل المدائن وطيسفون كانوا قد وقفوا في الشوارع وفي أيديهم الخبز والتمر استقبالا للعرب الذين كانوا متجهين للهجوم على القصر الملكي وسجادة " بهارستان " ، وقبل أن يفر يزدجرد إلى مرو ، كان سلمان الفارسي قد هرب منذ سنوات من "جي " في اصفهان إلى المدينة ، ولجأ إلى معية الإسلام ، وكان له دور في بناء الإسلام ، لم يكن قط لهؤلاء المجوس المنجمين في بناء المسيحية ، ومن هنا لست أظن أنه يمكن اعتبار الإسلام فاتحا للعالم بالتعبير الذي نعتبر به الإسكندر كذلك ، فإن الجنود المرتزقة مفلوتو العنان عند ذلك المقدوني ، وكل منهم كان منفيا من داره ودياره ، جاءوا إلى هنا بحثا عن الغنيمة ، ولم يكن أحدهم يخفي في جعبته ذلك الإيمان الذي جر العرب الحفاة حتى سيحون وجيحون ، برغم ما يقوله حتى الآن أصحاب اللحى والشوارب ، فهم شعوبيون أتوا إلى العالم متأخرا ، وأيضا برغم ما يقال عن إحراق عمر للكتب في الري والإسكندرية ، فقد كانت الاستجابة للإسلام بناء على دعوة سبقت منذ ثلاثة قرون قبل ارتفاع نداء الإسلام في هذه الصحراء المحرقة للملكيات ، واختنقت في فم ماني ومزدك بالرصاص المحمي ، وإذا نظرنا بشكل أكثر علمية ، فقد كان الإسلام في حد ذاته نداءً جديدا قائما على أساس مطالب سكان الحضر في واسط والفرات والشام ، فقد كانت كلها قد تعبت من الحروب الطويلة بين ايران والروم ، وكثبان الصحراء المجربة ، كانوا مساعدين بالقوة لكل حركة تستطيع أن تقيم سلاما دائما في هذه المناطق ، ونحن نعلم أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم كان يتاجر في

(١) بالنسبة للابتلاع أنظر إلى أي تاريخ للحضارة الأوربية يكون في متناول يدك ، وبالنسبة لأمريكا الجنوبية أنظر إلى سير الفاتحين هناك الذين قضوا تماما على نسل حضارة الأنكا والأزتيك باسم التبشير بالمحبة والسلام المسيحيين ، وبالنسبة لأفريقيا وآسيا الجنوبية الشرقية أنظر بالترتيب كآخر وثائق إلى : " العودة من تشاد " لأندريه جيد و" الطريق الملكي " لأندريه مالرو ، وأهم منهما إلى كتيب تحت عنوان " كفتاري درباب استعمار = مقال في الاستعمار" لإيما سيزار ترجمة هزارخاني ونشر نيل .

شبابه مع الشام ، وأنه تحدث مع فلان الراهب فى دير الشامات ...إلخ ، وهل هناك أبسط من " قولوا لا إله إلا اللـــه تفلحوا " يمكن أن يُدعى بها إلى أى دين ؟ وفى آخر هذا التحليل : أليس اهتمامنا بالإسلام هو أيضـــا من قبيل اهتمامنا بالغرب ؟ والجواب الدقيق على هذا السؤال يمكن أن نقدمه عندما نعلم أية مظالم قد انصبت على رؤوس الناس فى قلب التقاليد الساسانية المتحجرة .

وربما كان اهتمامنا بالغرب ناشئـــا من أننا فى هذه الصحراء الواسعة القاحلة كنا دائما فى انتظار سحب البحر المتوسط ، حقيقة أن النور قد ظهر من الشرق ، لكن السحب المطرة تأتينا نحن سكان هضبة إيران من الغرب ، وفى هذا الاهتمام بمنشأ السحاب والمطر والعمران ، كنا نهرب أيضـــا من صحارى الجنوب والشمال الشرقى. تماما على عكس ما يجذب اولئك الذين يعيشون فى شمال اوربا من البرد والرطوبة والثلوج المتراكمة فى ديارهم إلى الجنوب والبحار الدافئة حتى يجدوا طريقـــا إلى افريقيـــا والهند وأمريكا بحثا عن التوابل المبهية ، ثم يأتى من بعده ما سمى فيما بعد بالإستعمار الحاد ، هذا الجذب الثنائى واضح فى كل تاريخ الحضارة البشرية ، ومجيء الآريين إلى ايران فى حد ذاته أحد مظاهر هذا الضيق من الشمال ومن تراكم الثلوج فى " ورجم كرد " و" آرياويج " . وأنا أظن – وإن كان فى الأمر بعض التجرؤ – أن لو كان الروس قد وصلوا إلى البحار الدافئـــة ، واستطاعوا فى النهايـــة تحقيق حلم بطرس الأكبر ، ولو استطاعوا بقيمة الإغارة على المستعمرات الجنوبية والجنوبية الشرقية لأرضهم الفعلية أن يرفعوا الأجور والتأمينات والمعاشات الخاصة بعمال بطرسبرج وبادكوبه إلى مستوى أجور مانشستر وليون ، ولو لم يضطروا إلى الإعتياد على سيبيريا وثلوجها وبردها ، أو على التركستان ورملها المتحرك ، لما كان انقلاب ١٩١٧ رائدا للبشرية ، وتصدير تقاليد الثورة الروسيـــة إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيـــا الذى يعد آخر التطورات السياسيـــة قبل الثورة الصينيـــة يدل فى حد ذاته على رغبة خنقت وهى نطفة طوال سنوات ، لكنها تظهر الآن فى ثوب جديد .

وإذا كنا ثانية أكثر دقـــة ، فإن لنا آثار أقدام كثيرة عن هذا الإهتمام بالغرب . حقيقة أن ماء الحياة كان فى ظلمات الشرق ، لكن الإسكندر الذى ذهب بحثا عنه كان غربيا ، ونظامى الكنجوى – وهو منا– هو الذى جعلـــه نبيـــا وخلط بينه وبين ذى القرنين ، وجنات عدن غربية أيضـــا ، والعنبر الذى كان يأتى دائمـــا من بحار

الشمال الغربية ، وبغداد التى كانت كعبة الزنادقة المانوية كانت فى نهاية غرب هضبة ايران ، وقطعا سمعتم عن جيش الزنج والروم وإطلاقه على جدائل المحبوبة ووجهها ؟ وربما لنفس هذا السبب ، لم يخلُ أى جناح للحريم فى الشرق من الجوارى الروميات اللائى كن يبشرن بالنهار ويحملن البياض وحسن الحظ " بياض الحظ " ، حتى العرفان بكل شرقيته - إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير اى الابتلاء بالشرق - يجعل الشيخ صنعان البدوى مرتدا يرتدى الزنار فى أسر غرامه بجارية رومية ، حتى نرجس خاتون أم المهدى المنتظر عند الشيعة هى أيضا جارية من أصل رومى ، والخلاصة أننا يمكننا أن نجد دلائل عديدة على هذا النسق .

وما هو مسلم به ، أنه بالنسبة لنا ، لم نكن قط أمة ساقطة فى إسار التعصب والسذاجة ، كان طريق الغرب مفتوحا دائما ، وعندما كنا نذهب إلى مكة مثل سعدى ، كنا نذهب عن طريق طرابلس ، ونستخدم فى أعمال الفعلة (١) أو نذهب إلى كربلاء والنجف حتى نتخفف من ذنوبنا ، ونذهب الآن إلى اوربا كى نلهو ونمرح .

وإذا تجاوزنا الاحتمالات والظنون ، فإن التردد على الغرب فى حياة أمة كانت تريد أن تعيش يومها أفضل من سابقه وتتعلم أكثر وتموت أكثر راحة أمر عادى ، ليس التردد على الجيران القريبين والبعيدين حادثة خارقة للعادة . وهناك جد وبحث أكثر اتساعا من قبل البشرية فى نطاقات حيوية أخرى ، لكن العجيب هنا أن هذا الإهتمام بالغرب حتى ثلاثمائة سنة خلت كان ذا وجه واحد ، كان له سبب واحد واتجاه واحد ، هو وجه الحقد أو الغيرة والمنافسة ، وفى هذه الثلاثمائة سنة الأخيرة وجد سببا آخر واتجاها آخر ووجها آخر ؛ وجه الحسرة والأسف والعبودية .

حتى قبل هذه القرون الثلاثة الأخيرة ، كنادائما إما نغار من الغرب أو نحقد عليه أو ننهض لمنافسته ، وذلك بسبب أراضيه العامرة وموانيه المزدحمة ومدنه المستقرة وأمطاره المستمرة ، وفى كل هذه العصور التى مضت ، كنا نرى أنفسنا مستحقين لامتلاك مثل هذه النعم ، وكنا نعتبر تقاليدنا ومعتقداتنا هى الحق ، ونطلق عليهم لقب "الكفرة " ونعتبرهم ضالين ، وإلا فإننا حتى فى قلب التعصب الزردشتى الساسانى كنا

---

(١) المترجم : إشارة إلى ما رواه الشاعر سعدى الشيرازى فى كتابه الشهير "كلستان " من وقوعه أسيرا للصليبيين فى بيت المقدس أثناء سفره للحج واستخدامه فى أعمال الفعلة .

نعطى حق اللجوء لعلمائهم الذين كانوا يهربون من الإسكندرية والقسطنطينيـــة ، لكن ما هو مسلم به أننا كنا دائما نقيمهم بمعاييرنا ، وأحيانا كان الأمر يصل بنا إلى اعتبار أرواحهم وأموالهم حلالا لنا ، ومن هنا كنا نقوم بقدر استطاعتنا بالسيطرة على بعض أملاكهم ، على كل حال كانت كل هذه المنافسة والغيرة والحقد سببا أو محركا لنا ، لكى نخفف من الصورة الفظـــة للآشوريين ونزيد فى طولها وعرضها ونأتى بالسدر من لبنان والذهب من ليديـــا ، ونترجم ارسطو فى القرون الوسطى المظلمة للغرب وننشر فلسفته ، ونقبل نظام المحافل الرومى ، أو نتعلم منهم نظام بناء المدن ، وكل ما هو موجود فى هذا التعامل الذى استمر ألفى سنة مع الغرب ، بكل الهزائم الذى يحتوى عليها والانتصارات وألوان التخريب من الطرفين الذى هو فى حد ذاته سر الحياة ، فإن الكسب كان للطرفين حقا ، لم يخسر كلانا شيئا ، وإن لم يكن هناك بيننا تعامل بين صديقين ، فمن المسلم به أنه كانت هناك بيننا مواجهة بين ندين ، وما أفضل هذا ، أعطينا الحرير والنفط ، وكنا معبرا إلى الهند وزردشت والشمس ، وفى كنانة الإسلام رحلنا ، رحلنا حتى الأندلس ، ووضعنا العمامة الهندية والخراسانية على رؤوس أئمة الإسلام ، وبدلنا المجد الإلهى إلى الهالة ، ووضعناها حول وجوه القديسين المسيحيين والمسلمين .. وكثير من المبادلات الأخرى ، لكن فى هذين القرنين الأخيرين أو القرون الثلاثـــة الأخيرة ، كان لنا الوجه الآخر للعملـــة .. أقول : الحسرة والتأوه والأسف .

والآن قد نسى فينا إحساس المنافســـة ، وحل محله إحساس العجز وإحساس العبودية ، لم نعد نعتبر أنفسنا مستحقين أو على الأقل على الحق " إنهم يأخذون النفط لأنه من حقهم ولأننا نفتقد الكفاءة – إنهم يديرون أمورنا سياسيـــا لأننا مكتوفو الأيدى – لقد نالوا الحرية لأننا غير جديرين بها " بل إننا إذا كنا بسبيلنا إلى تدبير أمر من أمور معاشنا ومعادنا ، فإننا نقيم الأمور بمعاييرهم وبأوامر مستشاريهم ومشاوريهم ، وعلى نفس نظامهم ندرس ، وبنفس الطريقة نقوم بالتعداد ، وعلى نفس النسق نقوم بالبحث العلمى .. وهذا يأتى فى موضعه ، وهذا لأن العلم اكتسب أساليب عالميـــة ، والأساليب العلمية لا يتخذ وجهها لون أى وطن . لكن المهم أننا نتزوج كما يفعل الغربيون تماما ، ونقلدهم فى مزاولـــة الحرية ، وننتظر إلى الدنيـــا خيرها وشرها بمنظارهم ، ونرتدى الملابس ، ونكتب شيئا ، وفى الأصل فليلنا ونهارنا هو

وقت الليل والنهار الذى ربما قاموا بتحديده ، وكأننا نسخت كل معاييرنا ، بل إننا لنفخر بأننا المصران الأعور لهم . أجل ، فمن هذين الخصمين القديمين – كما ترون– كانت نهايـــة أحدهما أنه فوجىء بنفســـه كناس الميدان ، أما الآخر فصاحب الحلقة .. وأية حلقـــة !!حلقة الأعضاء التناسليـــة والاتهام بالحمق والتفاخر والفيهقة .. حتى ينتجوا النفط .. ترى ماذا حدث فى هذين القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة ؟! أية أشياء حدثت حتى انقلب الزمان هكذا ؟!

لنعد ثانية إلى التاريخ ..

٥- المنبع الأساسى للسيل

فى هذه القرون الثلاثة الأخيرة ، حدث من ناحيـــة أن تشكل العالم الغربى ونضج فى قدر الثورة الصناعيـــة ، وأسلم الإقطـــاع مكانه إلى الحياة الحضريـــة، ومن ناحية أخرى لجأنا نحن فى هذا الركن من الشرق إلى شرنقة حكومة الوحدة القوميـــة القائمـــة على أساس التشيع ، ونسجنا خيوطنا حولنا أكثر يوما بعد يوم ، وحتى إذا قمنا لنهضة ما قمنا بها فى ثياب الباطنيـــة والنقطوية والحروفيـــة والبهائيـــة ، وفى مقابل كل مدرســـة ومختبر بنى فى الغرب ، شكلنا نحن محفلا سريا ولجأنا إلى البطون السبعة للرموز والإسم الأعظم . وفى هذه القرون الثلاثـــة كان أن حصل الغرب بمساعدة الآلـــة على إنتاج مهول ، وصار فى حاجة إلى سوق العالم المضطرب ، من ناحيـــة من أجل الحصول على مواد خام رخيصـــة ، ومن ناحيـــة أخرى لبيع مصنوعاته . وفى هذين القرنين أو الثلاثة كان أن اختطفنا النوم خلف الدروع التى أسبغنا بها رؤوسنـــا خوفا من العثمانيين ، ولم يقم الغرب فحسب بابتلاع العثمانيين ، بل وصنع من كل عظمة من عظامهم دبوسا حربيا تحسبا لليوم الأسود الذى يثور فيه سكان العراق ومصر وسوريـــا ولبنان ، بل واتجه إلينا بسرعة. وأنا أرى جذور الابتلاء بالتغرب فى نفس هذا الموضع. من ناحية فى عدوانية الصناعة الغربية ، ومن ناحية أخرى فى عجز حكومتنا القومية المستندة على أساس تقليدى ، والتى سلطت على إيقاع قائم على قتل أهل السنة ، منذ ذلك الوقت الذى نسيت فيه الهيئة الدينيـــة عندنا ، وغاصوا كعمال للظلم والجور فى أجساد حكام الزمان ، منذ ذلك الوقت الذى دخل فيه ميرداماد والمجلسى فى خدمة البلاط الصفوى لاختلاق الأحاديث ، ورضوا بالصمت الموافق المبارك للدعوة إلى التشيـــع ، منذ ذلك الزمان الذى تبدلنا فيـــه من فرسان على جواد شمولية الإسلام إلى حراس للقبور وآكلى فتات على مائدة تعرض الشهداء للظلم ، ونحن تماما منذ ذلك اليوم الذى تركنا فيه إمكانية الشهادة وقنعنا فحسب بتعظيـــم الشهداء ، فوجئنا بأننا بوابون للجبانات . ولقد أشرت إلى هذه المسألة فى روايتى " نون والقلم " (١) .

---

(١) المترجم : عرضتها فى كتابى " مطالعات فى الرواية الفارسيـــة " ، وقمت بمراجعـــة ترجمة الدكتورة ماجدة العنانى لها " تحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافـــة ".

وها أنتم ترون ثانيـــة أن القضيـــة ذات طرفين ، ومع أننى فى هذه العجالـــة لا أدعى أبدا أننى أقوم بيحث فى فلسفة التاريخ ، لكننى مضطر إلى الإشارة إلى هذين الطرفين إشارة عابرة .

أما فيما يتصل بالأسباب التى أدت إلى التطور الصناعى فى الغرب ، فلا شأن لى بها ، ولقد ذكر الغربيون أنفسهم ملاحم وقصص بشأن هذا الأمر ، ونحن أيضا الذين كنا مبتلين بالتغرب تماما ، لا زلنا نكرر فى أبواق مدارسنـــا وأذاعتنا وصحافتنا لسنوات أباطيل الغربيين قائلين : إنها عصر النهضـــة واكتشاف البوصلة وفتح أمريكا واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وكشف قوة البخار ، ودخول الهند واختراع الكهرباء .. إلخ ، بل يمكن التوصـــل إلى هذه البدهيات فى كتاب الجغرافيا للسنة الخامســـة فى المدارس الإبتدائيـــة ، وأنا مضطر فى هذا المجال إلى الإشارة إلى إحدى النقاط ثم أترك هذا الموضوع :

هذه النقطة هى أن الغرب – أى عالم المسيحية فى العصور الوسطى ، عندما وصل إلى أقصى درجة من حصار العالم الإسلامى له ، أى عندما تعرض لخطر الفناء فى مواجهة قوة الأمم الإسلاميـــة من ثلاث جهات " الشرق والجنوب والجنوب الغربى " ، واضطر إلى جمع يديه وقدميه فى نفس ذلك العدد القليل من ولايات البحر المتوسط ، استيقظ بصعوبة ، وتعرض لمواجهة خطر الإسلام يأســـا ، وكأنه قط حُبس فى حجرة.. ومتى كان هذا التاريخ ؟ فى أواخر القرن السادس الهجرى " الثانى عشر الميلادى " أى عندما كان أحد طرفى العالم الإسلامى جامعة قرطبـــة ، وطرفه الآخر مدارس بلخ وبخارى ، وكانت كل أراضى القدس والسواحل الشرقيـــة والجنوبيـــة والغربية للبحر المتوسط تحت سلطة المسلمين ، بل وكانت جزيرة صقليـــة قاعدة لهم ، وبعد هذا التاريخ ، وعلى الفور يتحول المسيحيـــون المسالمون والساخرون من الجهاد الإسلامى إلى صليبيين مجاهدين ، وفى الحروب الصليبيـــة الطويلة يضعون أساس الإقتباس من الفنون والمعارف الإسلامية ، بحيث تبدل الغرب المسيحى بعد خمســـة قرون إلى أرباب رأس المال والفن والمعرفة ، وبعد سبعة قرون أو ثمانيـــة إلى أرباب الصناعة والآلة والتكنولوجيا ، ومن هنا : إذا كان الغرب المسيحى فى خوفه من الفنـــاء والاضمحلال فى مواجهة خطر الإسلام قد استيقظ دفعة واحدة وشكل جبهته ونهض للمقاومة ، ولا شـــك أنه نجا ، ألم يصـــل الدور إلينا الآن لكى نحـــس فى مواجهة

قوة الغرب بخطر الفناء ، وننهض ، ونشكل جبهتنا ونقـــاوم ؟

لكن فيما يتصــل بقصر أيدينـــا ، وذلك النوم المفاجىء ، هناك نقطة أو نقطتـــان قليلا ما سمعتم بهما ، أو قرأتم عنهمـــا ، وسأتناولهما ، وراجعـــوا بقية النقاط فى تاريخ الحضارة .

النقطة الأولى : أن هضبة إيران حتى ما قبل كشف الطرق البحرية ، وإن لم تكن الطريق الوحيد ، فإنها كانت على الأقل معبرا لأعظم الطرق من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، من الصين والهند إلى سواحل البحر المتوسط ، كانت معبرا للحرير والتوابل والورق والبضائع إلى العالم الغربى ، وفى طريق هذه القوافل التى تحمل الثـــروة ، كان أن رفعت مدننا الكبرى أسوارها ، ومثل محطات الأمن أعطت الملجأ لرجال القوافل من طرفى العالم تحت أروقتها ذات الظلال ، ومن هذا الطريق منحت الحركة والحياة للمدن والريف ؛ الطريق الذى كان يربط قندهـــار وهراة وطوس ونيشـــابور "ذات المائة بوابـــة " والرى وقزوين وتبريز وخوى وارزنة الروم إما بطرابزون أو بديار بكر وطرابلس .. كان هذا هو الطريق الشمـالى للحرير[1] . أو الطريق الآخر الذى كان يربط شاطىء السند عن طريق البحر بهرمز وقشم ثم بكرمان ويزد واصفهان وورامين وساوه وهمدان وكرمانشاه والموصل حتى يصل ثانيـــة إلى موانى البحر المتوسط الشرقيـــة ، وبصرف النظر عن شاطىء مازنداران وصحراء خوزستـــان ، فلكل منهما شأن آخر ومقال آخر ، فإن أقدم حضارات هضبة إيران قامت فى نفس هذه المدن التى ذكرتها أو إلى جوارها ، وهى مدفونة فى باطن التلال الضخمة . لكن منذ الوقت الذى فتحت فيـــه طرق البحر ، ووجد جواب البحار الشجاعة لشق قلوب المحيطات دون توقع من السواحل القريبة والآمنة ، منذ ذلك الوقت فصاعدا ، إلى جوار أن الغرب حصل على القارة الجديدة أمريكا ، وكانت فى حد ذاتها جسرا أخذوه فى الطرف الآخر من العالم ، ما حدث فى هذه الناحية ، أن كل ما تبقى من مدننا ومن حياتنا الحضرية نصف المنضبطة ومن حضارتنا هو الجلد ، مثل حيـــة تنزع جلدها وتمضى ، مجرد جلد ، جلد محطات القوافل ، جلد المدن ، جلد

---

(١) المترجم :لمعلومات أكثر عن طريق الحرير أنظر : طريق الحرير تأليف ايرين فرانك وديفيد براونستون – ترجمة أحمد محمود – المجلس الأعلى للثقافـــة – القاهرة ١٩٩٧ .

التقاليد والثقافة ، جلد الدين والعقائد ، جلد الأسس الإقتصادية . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، جاء الفقر بمعناه الدقيق ، وصرنا المنسيين فى دنيا الأحياء ، جبانة الذكريات والتذكارات السعيدة للطرق المفتوحة والقوافل الغنية بالبضائع (١) ومنذ أن حسرت الثروة ظلها عن رؤوس مدننا ، وحملت الهند والصين مباشرة عن طريق البحر إلى الغرب ، صرنا منسيين . تماما منذ ذلك الوقت ، كان أن انكمشنا فى شرنقة التصوف على الطراز الصفوى ، وفى شرنقة حكومة الوحدة القومية على أساس التشيع ، وعندما أدبرت عنا الدنيا ، أدبرنا عنها واعتبرنا الغرب نجسا ، وعندما اتفق طرفا العالم فى الاستغناء التام عن محطات قوافلنا ، صرنا نحن منطقة محايدة على حدود الهند ، منطقة ينبغى أن تظل هادئة ودون تدخل غير مرغوب فيه ، ومهمتها الوحيدة ألا تعد أية مضايقة للهند ، أو تكون مصدر تهديد لشركة الهند الشرقية . ويظل هذا الوضع قائما حتى تطل رأس غول النفط من خوزستان ، إذ تصير مرة ثانية مركز اهتمام عالم الوجود وأساسا للنزاع بين الشرق والغرب والأمريكان والإنجليز مما يأتى فى موضعه ، على كل حال ففى دراسة أسباب تأخر الشرق الأوسط فى هذه القرون الثلاثة وتقدم الغربيين فى نفس الفترة ، لم أر حتى الآن أحدا أشار إلى هذه النقطة رغم أنها فى حاجة إلى أبحاث كثيرة .

---

(١) لدينا الكثير حتى الآن من هذا النوع من المدن : هرمز وبندر عباس وبوشهر وكرمان وابرقو وغيرها ، ولقد رأيت معظمها ، انتبهوا إلى هذه السطور من مخطوطة " راهنماى ايران= دليل طرق ايران " لفرخ غفارى " وجد الإصطخرى سنة ٣٤٠ هـ ابرقو مدينة مأهولة ، وبعد خمس وعشرين سنة اعتبر ابن حوقل أسواق المدينة عامرة ، وتقع هذه المدينة فى مسير إحدى الشعب المهمة للطريق التجارى فى عصر المغول ، وهو الطريق الذى كان يمتد من هرمز إلى كرمان فيزد فكاشان فالسلطانية فتبريز ومنها إلى البحر المتوسط ، وقد رآها حمد الله مستوفى سنة ٧٤٠ للهجرة . وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى " التاسع الهجرى " أدى كشف الطريق البحرى إلى الهند على أيدى البرتغاليين إلى بوار الطريق المعروف تماما ، وأخذت محطات القوافل والدور والمساجد فى ابرقو فى الخراب ، وقد خرب هجوم الأفغان سنة ١١٣٥هـ المدينة بحيث يرادف إسم ابرقو اليوم أكثر مدن البلاد التى أصبحت مغمورة " المترجم : وانظر : فصل مدن تحت الرمال من كتاب طريق الحرير سالف الذكر .

والنقطة الثانيـــة : أن دوقات جمهوريـــة البندقيـــة " رواد المسيحيين التجار أو التجار المسيحيين " لم يكونوا أول باحث عن حليف لمقاومة شر المسلمين- أى الأعداء فى الحروب الصليبيـــة – فتوسلوا بالبدو الوثنيين فى شمال شرقى إيـــران ، فكان أول من عـرف هذا اللحن قـبلهم هم خلفـاء بغـداد ، فـمن أجل إخـمـاد الفتن فى خراســـان والعراق ، قاموا كماء تحت تبن ، ومدوا نطاق دسائسهـــم حتى صحراء قره قورم ، وبالتدريج أعطوا جوازات المرور والسكنى والرعى فى كل المنطقة الشرقية للإسلام لجماعات مختلفة من القبائل وبدو الغز والسلاجقة والمغول ، وبلغ الأمر حدا أصبح معه كل القواد العسكريين فى خراسان وبلخ والعراق منذ أواخر العهد السامانى من القبائل ممن يحملون ألقاب اتابك وأسمـاء أرسلان وسبكتكـين ، على كل : إن لم يكن هذا الأمر قـد تم عن عـمـد ، فـمن المسلم به أن البـحث عن حليف ومـعين اليـوم الفـاصل فى مـواجـهـة شـمـولية الإسـلام كـان قـد بدأ قـبل بنـاء أبراج تجـارة جنوة والبندقيـــة وأسوارها بسنوات [1] وهذا هو قول أحد الأوربيين فى هذا الشأن : " إن الأهميـــة التاريخيـــة لتنصر الترك كبيرة جدا ، ونعلم أن ولاية الصغد التى سكنها الترك الغربيون منذ سنة ٥٦٥م فصـاعدا كـانت واحـدة من أكبـر مـراكز الكنيســـة النسطوريـــة ، ومن هذا المكان وأيضـا من ولاية بلخ انطلق المروجون [2] النسطوريون لتنصير آسيـــا ، وفيما يبدو أنه حوالى سنة ١٠٠٠م قد يكون المروجون النسطوريون قد أتموا تنصير أعقاب قبائل الترك فى آسيـــا الوسطى ، وهذه القبائل عبارة عن " الأونجوت " فى منغوليا الداخليـــة وال " قره ايت " فى منغوليـــا الوسطى والنايمان

---

(١) عندما أدرك حسن الثانى الإسماعيلى المسمى بجلال الدين حسن أن المغول قادمون ، أرسل من خوفه سفيرا إلى فرنســـا حتى يستمد العون من أهل الكتاب فى دفع الكفار ، لكن أهل الكتاب لم يكن لديهم الحماس للمساعدة ، وعندما يئس السفير من الفرنسيين عبر البحر وذهب إلى انجلترا ، وحمل نفس الرسالة ، ووصل السفير سنة ٦٣٦هـ إلى بلاط انجلترا ، وقد أورد المؤرخ الإنجليزى ماثيو باريس فى تاريخه تفصيـــلا للقاء المؤسف للسفير مع ملك انجلترا ، وقد أجاب أسقف وينتشستر الذى كان حاضرا فى المجلس على استشـــارة ملك إنجلترا له قائلا : أترك هؤلاء الكلاب يتقاتلون ويبتلع كلاهمـا الآخر ، ومن ينجو منهم سوف نقتله نحن عندما نمضى لقتال أعداء المسيح " نقلا عن مقال مه وآفتاب = القمر والشمس بقلم مهرداد صمدى صص ٦٥و٦٦ – كتاب هفته- ١٤ مهر ,١٣٤٢ "

(٢) المترجم : المصطلح الذى ارتضاه أستاذنا المرحوم الدكتور احمد السعيد سليمـان بدلا من المبشرين وهو فى محله .

فى منغوليـــا الغربيـــة ، إلى جوار الأويغـــور الذين كانوا منذ فترة سابقة قد تأدبوا بآداب المسيحية فى صحراء جوبى ، وعلى كل حال لا يمكن تمييز الملامح نصف المسيحيــة لإمبراطورية جنكيزخان دون الإهتمام بالإيمان النسطورى لكل هؤلاء الأتراك الغربيين الذين كانوا يحاربون فى جيشـــــه ." (١)

وبهذه المناسبـــة لن أتعجب أو أعتبره من قبيل المصادفة إذا رأيت العالم الإسلامى فى القرنين السابع والثامن الهجريين " الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين " يتعرض الخطر دفعة واحدة من ناحيتين : المغول بطابعهم نصف المسيحى من الشرق ، والصليبيين المسيحيين تماما من الغرب ، ويدخل ماركو بولو وأضرابـــه على هذا النسق إلى الساحة " والأوربيون الذين كانوا يقاتلون العثمانيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ويكتشفون السواحل الغربية لأفريقيـــا ، ويطوفون حول رأس الرجاء الصالح ، ويقاتلون المسلمين فى المحيط الهندى ، وينساقون خلف هذا التصور الخاطىء بأنهم سوف يجدون فى الناحية الأخرى من المحيط الهندى حليفهم القديم – أى خان المغول – معهم ضد المسلمين ، كانوا جميعـــا أحفاد الصليبيين الأوائـــل" (٢) وها أنتم ترون أن المسألة فى غاية الوضـــوح .

النقطة الثالثـــة أن الصليبيين الأوربيين الذين كانوا قد اجتاحوا أرض العالم الإسلامى ، كانوا يتجمعون من كل أوربـــا – من السويد حتى روما – وكان أمر البابا فى أيديهم ، وخلف ظهورهم أموال بيوت التجارة فى جنوة والبندقيـــة ومؤنها وخيولها وعلفها . وآنذاك : مع من كانوا يتقاتلون باسم عالم الإسلام ؟ ليس مع مجموعة الدول الإسلاميـــة ، بل مع مماليك مصر فحسب – المعينين البعيدين عن الخلافة التى كانت فى سبيلها إلى الفناء . ولست أظن أنه حتى سعدى قد أسر فى خندق طرابلس كمتطوع للجهاد ضد الكفار . وفى تلك الأيام لم يكن هناك أحد فى تلك المنطقة من ديار الإسلام يهتم بأن يرى الخطر ، ويقلع عن اللعبة الطفوليـــة المسماة

1) Rene Grousset .La Face de L'Asie .Ed, Payot- Paris,1962,PP ... 55

(٢) تاريخ تمدن غرب ومبانى آن درشرق = تاريخ حضارة الغرب وأسسها من الشرق – ترجمة پرويز داريوش – طبعة تهران – ابن سينا – ١٣٣٨ هـ.ش. ص ٢٣٣ .

بملوك الطوائف ، أو أن يتغاضى عن البحث فى قضية قدم القرآن وذلك من أجل قمع الخصم ، إلى جوار أن هجوم المغول كان قد وحد عالم الإسلام فى الخراب ، بحيث لم يكن قد بقى ميدان واحد يرفع فيه رجلٌ رأســـه . وفى مثـــل تلك الأيام كان ماركو بولو يجوب تلك الساحة مناديا : هل من مبارز كسفير للبابا فى الواقع وكتاجر فى الظاهر ، ويمضى إلى تهنئة الخان الأعظم ، لأنه مهد طريق النفوذ لتجار البندقية إلى هذا الحد . والنتيجة الفورية لتردد هذا البندقى انتظام طرق الحرير والتوابل ، وكانت قصور البندقيـــة فى مقابلها تصير مسرحا لأمثال قصة روميو وجوليت . ونتيجة لمساعى سفراء المغول وتجار البندقيـــة ، فتح طريقـــان كبيران : أحدهما طريق ارمينيا الكبير " تبريز- خوى - مناز كرد - ارزنة الروم - طرابزون " ، والآخر طريق ارمينيـــا الصغيـــر " تبريز - ارزنة الروم- سيواس- الإسكندرونـــه"[1] ، لكن فتح القسطنطينيـــة على أيدى المسلمين العثمانيين ، ونهاية حكم الدولة الرومانيـــة الشرقية" البيزنطيـــة " سنة ٨٥٧هـ. " ١٤٥٣م" ، قطع من جديد هذين الطريقين الجديدين الآمنين ، وجاهدت أوربا المسيحيـــة التى اعتادت على خيرات الشرق فى البحث عن طريق جديد ، ونتيجة لهذا البحث ، كان أن اكتشفت امريكا فى البداية ، ثم تيسر المرور من رأس الرجاء الصالح ، وتماما بعد فتح القسطنطينيـــة بثلاث وخمسين سنـــة ، وبعد تأسيس الأســـرة الصفويـــة بأربع عشرة سنة " ٨٩١هـ.١٤٨٦/م " عبر بارتلوميو دياز من رأس الرجاء الصالح ، وبعدها بخمس سنوات وصل فاسكو دى جاما من نفس ذلك الطريق إلى البحار الدافئـــة ورســـا فى ميناء كالكتا فى الهند ، وبعده بسبع سنوات استولى البوكرك بقوة مدافعه على مركز حكومة أمراء هرمز ، وحط على فوهة خليج فارس [2] حتى يستطيع بعدها أن يدق المسمار الأول للإستعمار فى "جوا " بالهند ، نفس ذلك المسمار الذى أُقتلع من الأرض بعد خمسمائـــة سنـــة .. أى فى أيامنا هذه .

---

(١) مطالعاتى در باب نحرين وجزاير وسواحـــل خليج فارس لعباس اقبال – ط. تهران١٣٢٠ص ٥٠

(٢) " جزيره خارك " لكاتب هذه السطور – ط تهران – دانش – خرداد١٣٣٩صص ٧١و٧٢ .

كل هذه وقائع تاريخيـــة ، وهى صحيحـــة فى موضعها ، لكن الغرب كان قبلها وبعدها يفكر فى وسائل أخرى ، وآخر نقطـــة أنكر بها هى أنه إذا كان أحد الأسبـاب الأصليـــة لهجوم المغـول على العـالم الإسـلامى لا يرجع إلى تمهـيدات مسبقـــة من المسيحيين فى صحـارى الغور البعيدة ، فعلى الأقل فى هجوم تيمور على هذا الجزء من العـالم بآثار أقـدام أكثر من تحـريض الأوربيين العـاجـزين فى الحروب الصليبية والمحتاجين إلى خيرات أسـواق الشرق ، ولن أمضى فى تتبع آثار الأوربيين لأنهـم – على كل حـال – منتبـهون إلى أقوالهم وأفعـالهم فى مـثـــل هذه المواقف ، ومن الأفضـــل أن نتصفح أوراقنا حيث يمكن أن نرى البله والصمم أكثر .

يقول إبن خلدون الذى لحق فى أواخر عمره بتيمـــور وتحدث معه : (عندما كنت لا أزال فى المغرب ، كنت قد سمعت نبوءات كثيرة عن ظهور تيمور . كان المنجمون فى انتظار ظهوره حوالى عام ٧٦٦هـ ، وذات يوم رأيت فى فاس فى مسجد القرويين واعظ قسطنطينه أباعلى بن باديس وهو حجة فى رأيه ، وسألته عن قران الكواكب الذى ينبغى أن يتم ، قال : يدل على ظهور شخصيـــة قوية من الشمال الشرقى من بين سكان البدو سوف ينتصر على هؤلاء الملوك ، وسوف يستولى على أغلب دول العـالم ، وعلاوة عليه ؛ كتب إلى "إبن زرزر" الطبيب اليـهودى لملك الفرنجـة " بن الفونسو " عن نفس هذا الأمـــر)[1]

انتبهوا إلى راويى هذه الأخبـــار ، أحدهما واعظ جاء من القسطنطينيـــة التى كانت قد فتحت حديثا على أيدى المسلمين العثمانيين [2] والآخر طبيب يهودى من بلاط أحد ملوك الفرنجـــة ، ومن هنا ألا تظنون أن الحق معى فى أن أقرأ هذه الآثار الصريحـــة للخطوات ؟ وهذه الحقيقة التاريخيـــة القائلة أن قيام المغول بالكنس لم يكن قد قصم ظهر الإسلام بالقدر الكافى ، وفى الغرب كانوا يحلمون دائما بأن يأتى طاغية همجى آخر ويمرغ ظهر هذا البطل بالتراب فى النهايـــة ، وإذا كنتم حتى الآن تشكون ، إنتبهوا إلى أنه لا من نار المغول المدمرة ولا من مذابح تيمور وصلت شرارة واحدة إلى طرف ثوب المسيحيـــة ، وروسيـــا التى تعرضت

---

(١) ابن خلدون : تيمور لنك ترجمة سعيد نفيسى ونوشين دخت نفيسى – تهران – زوار – ص ٥٧ .

(٢) المترجم : من الواضح أن الأمر قد التبس على المؤلف بين قسنطينه والقسطنطينية .

قليلا للتأنيب ، كان ذلك لأنها ارثونكسية ، ولم تكن تحنى جبهتها على عتبة البابا فى روما ، وثانية .. إذا كان لديكم شك ، انتبهوا إلى أنه تماما بعد فتح القسطنطينية بخمسين عاما على يد المسلمين ، أسست الحكومة الصفوية فى اردبيل (١) أى تماما لتكون فى ظهر العثمانيين ، أنسب مكان لطعنة الخنجر ، وهل تعلمون أنه فى موقعة چالديران حدث إلى جوار من ذبح من الطرفين " العثمانى والصفوى " أن سفكت دماء نصف مليون مسلم ؟(٢) لا تظنوا أنى قد قمت للدفاع عن الأتراك العثمانيين ، لا .. بل أريد أن أقول أنه نتيجة لهذه المشاحنات غير الحاسمة والدموية المحلية ، ونتيجة للدماء التى ضاعت من جرائها ، أننا أهل الشرق الأوسط قد ابتلينا بهذه المصائب اليوم ، وأريد أن أرى : هل لدى مؤرخينا الكبار من ذوى اللحى والشوارب الحق فى الدفاع عن سياسة التفرقة المذهبية أو لا ؟ ربما كانت الأمور لتصح لو كان العثمانيون قد انتصروا أو لو لم يكن الصفويون قد عزفوا لحنا نشازا ، لكنا الآن ولاية من ولايات الخلافة العثمانية

---

(١) بتتويج الشاه اسماعيل سنة ٩٠٧هـ. وفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ. ، وأيضا انتبهوا إلى هذه الحقيقة التاريخية الأخرى : كانت زوجة اوزون حسن إبنة لكالوجان وأختا لداود آخر أباطرة طرابزون واسمها دسبينا كاترينا ومن هذه المرأة أنجب اوزون حسن ثلاث بنات وإبنا واحدا ، وإحدى هؤلاء البنات تزوجت من سلطان حيدر " والدالشاه اسماعيل " وهذه المرأة هى أم الشاه اسماعيل الصفوى وبنت دسبينا كاترينا المسيحية اليونانية . " من مقال اوزون حسن بقلم دكتور عبد الحسين نوائى ص ٤٣من مجلة ماهنامه فرهنگ شماره٤ سال ١٣٤١ " المترجم : واوزون حسن هو الذى استعان به الغرب لقتال محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية !! .

(٢) لم يقو إحياء القومية الإيرانية على أساس التشيع من الداخل فحسب ، بل كانت ضغوط العثمانيين من الخارج تساعد على هذا الأمر ، إذ كانوا قد أعلنوا أن التشيع زندقة ، وبلغ الأمر بالسلطان سليم العثمانى أن أعلن أن قتل شيعى واحد يثاب بثواب قتل سبعين مسيحيا ، وبناءً على نفس هذه الفتوى سفكت دماء أربعين ألف شيعى فى مذبحة عامة بالأراضى العثمانية " من ص ١١٢ من كتاب سيماى آسيا لرينيه جروسيه " وعلينا ألا ننسى أن ضعفى هذا العدد من أهل السنة قتل فى ايران " المترجم: أكثر من هذا بكثير فقد كان الشيعة فى ايران قبل الصفويين لا يزيدون عن عشرة فى المائة من تعداد السكان وبالقتل والهجرة والتغيير الجبرى للمذهب لايبلغ أهل السنة الآن فى ايران أكثر من عشرة فى المائة أغلبهم من الكرد والبلوش ." بقية هامش المؤلف : ومن المؤسف أننى سمعت أن مزار الشهداء فى اردبيل والذى كان المدفن العام لكبار الجند الإيرانيين فى موقعة چالديران قد أزيل منذ فترة ، وكالمعتاد بنيت فى مكانه مدرسة جديدة .

ولكن ألا يعنى هذا أن نكون الآن دولة من الدول المحتلة بالغرب ؟ وثانية : ألم يحدث أننا منذ بداية الإسلام وحتى ستة قرون أو سبعة من عمره أننا كنا على نفس الصورة؟ وفى حين أننا كنا فى الظاهر ولاية من ولايات خلافة بغداد ؛ أى كل حملناه على أكتافنا مع كوننا جزء من هذا الكل ؟ وألم يحدث أننا فى أشد سنوات سلطة الأمويين سوادا ، ألم نكن نحن الذين – استنادا على القومية وما كنا قد أعطيناه للإسلام من الصبغة الإيرانية – ألم نكن نحن الذين حملنا لواء العباسيين الأسود من خراسان حتى بغداد وصبغنا الإسلام بصبغة الحضارة الإيرانية وشعاراتها ، بحيث أن المستشرقين المبتدئين لا يزالون عاجزين عن تحديد كم فى المائة من الحضارة الإسلامية يجب أن تكون عناصر غير ايرانية قامت بها ؟

هدفى من كل هذا أن نتميز بسعة الصدر وننظر إلى أنه نتيجة لمثل تلك السياسات التى تثير الفرقة ، وإشعال تلك النيران الدموية غير الحاسمة والتى لم تصل إلى نتيجة ، والتى استمرت بالمساعدات الخفية للهيئة الدينية آنذاك ، وباستحسانات السفراء الغربيين المسيحيين الذين كانوا يوسعون فى نطاق الخلافات السنية الشيعية ، أية بلايا حطت على أم رأس الشرق أو على رؤوسنا نحن كلنا الذين يسمينا الغرب بسكان الشرق الأوسط ، وأية خسارات مزمنة فى الدماء ورثناها عن ذلك العهد ، وانظروا إلى الكاتب الأوربى يتحدث عن هذه السياسة التى تثير الفرقة ، والتى تضعف الشرق ، بأى فخر يملأ أردانه ، وأى تدليس بالنسبة لنا ، أجل يقول نفس السيد رينيه جروسيه : (وهكذا تجد إيران مكانها فى صف الدول العظمى التى التى تدير أمور العالم ، وأول علاماتها علاقات بلاط اصفهان من ناحية بخان المغول الأكبر " المقصود بالطبع امبراطور المغول التيموريين فى الهند " ومن ناحية أخرى بالقوى الغربية ، وهذه العلاقات مع الغرب ذات أهمية قصوى على وجه الخصوص من وجهة نظر تاريخ العالم ، ذلك لأنها خلافا للإمبراطورية العثمانية حولت ايران إلى صورة الحليف الطبيعى للعالم المسيحى ، وبسبب هذه المسئولية التاريخية كان أن توجه السياح الأوربيون الكبار فى القرن السابع عشر إلى بلاط اصفهان ، فى البداية الأخوة شارلى هؤلاء المغامرون الإنجليز الدهشون الذين صاروا أصدقاء شخصيين للشاه عباس ، ومن بعدهم تافرنييه وشاردان ..... الخ) .(١)

---

1) La Face de L'Asie . PP. 116 - 117 .

والآن دعونى أعطى القلم مرة أخرى لابن خلدون مصداقا للقول الشائع " أنا لا أشكو من الغرباء ....الخ " يقول هذا السيد عن شخصيـــة تيمور " يعتبره بعضهم صوفى المسلك ، ويعتبره بعضهم رافضيـــا ، لأنهم رأوه يقول بأفضلية لآل على "(١) وها أنتم ترون أن اللغط قد بدأ قبل الصفويين بكثيـــر ، ثم ماذا فعل هذا التيمور الرافضى ؟ قام مرة أخرى بتدمير العالم الإسلامى ، بحيث لم يبق عن الكرمة علامة ولا منها أثر ، وإذا كان هولاكو المغولى سنة ٦٥٦هـ. كتم الخليفة العباسى باللباد حتى خنقـــه ، وذلك خوفا من زلزلة الأرض والسماء والغضب الإلهى ، فإن هذا البلطجى الثانى – أى تيمور – وضع يلدرم بايزيد " أى بايزيد الصاعقة " الذى كان آخر سلاجقة تركيـــا (٢) فى قفص وعرضـــه كالببر راقصا أمام المسيحيين غير المسلمين ، وبعد هذه الأحداث تساوت الدويلات المتنازعة فى القرن الثامن الهجرى فى الرعب والخراب والعجز ، بحيث أن الصفويين كانوا يستطيعون عدم الالتجاء إلى المذابح لأخذ البيعـــة .

والغرض من كل هذا التحليل ليس التأوه أو التأسف على ما مضى أو الفخر الأجوف من قبيل : أنا رستم الوحيد الفريد كان فى سجستان أو لم يكن ، بل هدفى هو أن أعلم كيف دب الدود فى الشجرة نفسهـــا ، بحيث أن سعدى الإنســـان الصادق يقول قبل مقتـــل خليفة بغداد وفى معمعة غارة المغول :

فى تلك الساعة التى طاب فيها وقتنا كان قد مر على الهجرة ست وخمسين سنة وستمائة .

وابن خلدون الذى جاب غرب العالم الإسلامى كقاض ووزير وكاتب لجلسات الأمراء ، وكتب مثل كتابه هذا فى فلسفة التاريخ ، كيف استسلم هو نفسه للقضاء ، وفى الهمود الناتج عن الصراعات الداخلية لأمراء المسلمين فى الأندلس ، كان قد بلغ من اليأس والإحباط مبلغا بحيث كان ينتظر مع مختلقى الأخبار بشوق همجيا موحدا للعالم ، حتى وإن كان هذا التوحيد فى الخراب .

---

(١) نفس كتاب ابن خلدون عن تيمور لنك ص ٧٣ .

(٢) المترجم : لم يكن السلطان بايزيد الملقب بيلدرم أو الصاعقة آخر سلاجقة تركيا بل أحد السلاطين العثمانيين .

٦- أول أنـــواع العفن

وهكذا ففى شرقنا الأوسط المعاصــر لبزوغ عصر النهضـــة فى الغرب ، كان شيطـــان محاكم تفتيش العقائد فى العصور الوسطى يرفع رأسه ، وكان أوار تنور الخلافات والحروب المذهبيـــة يزداد ، وكما رأينا فى الصفحات السابقـــة ، علاوة على أن هذه المنطقة من العالم كـانت آخذة فى الخلو من القـوافل التى تحضـــر البضائع ، وتقبع لهذا السبب فى خلوة فقرها وتصوفها ذى الطابع الصفوى . ومن هنا كما قال السيد فرديد بدأنا نحن من حيث انتهى الغرب تماما ، وعندما استيقظ الغرب فى بعثه الصناعى ، استغرقنا نحن فى نوم أهل الكهف . دعنا من هذا ، فلدينا نفس لعبة الميزان هذه فى فترة التنوير التى بدأها الغرب فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وبدأناها نحن فى أوائل القرن العشرين " الثورة النيابية " حين بدأت اوربـــا تميل إلى الإشتراكية والنظم الموجهة فى الاقتصـــاد والسياســة والثقافـــة .

ولتأخذوا مذكرات سفر كل اولئك الأشخاص الذين جاء وا إلى هذا الجزء من العالم طوال العصر الصفوى كسواح أو تجار أو سفراء أو مستشارين عسكريين ولتقرأوها ، وأغلبهم من اليسوعيين الجزويت [١] ترون كم كانوا من المشجعين لكل هذا التخريب ، وكم من التبريرات ، وكم من اخفاء القبيح بالملق ، والزينات التى وضعوها على تعطش الشاه عباس الصفوى للدماء ، أو بلاهات السلطان شاه حسين . وحقيقة أننا منذ ذلك الوقت وآذاننا رهن باستحسانات الأوربيين الجالسين على حافة المستنقع ، وهم فى الحقيقة المربون الأصليون لأمرائنا ورجالاتنا فى الثلاثمائة سنة الأخيرة ، وكل صيحات الاستحسان هذه مثل رقية فى أذن حارس شيخ متعب ، لكى ينام مستريحـــا حتى يسرق الآخرون القافلـــة .

هؤلاء هم الينابيع الأصيلـــة لهذا السيل من الابتلاء بالتغرب ، ولسوء الحظ لا

---

(١) أسماؤهم تملأ دفترا ، وأفضل مصدر من أجل التعرف عليهـم جميعـا كتاب " زندكى شاه عباس = حياة الشاه عباس " لنصر الله فلسفى فى ثلاثة مجلدات والمهم أن أول وأغزر مادة لعلم الاستشراق هى مذكرات هذه الرحلات ، وأغلب المستشرقين أنفسهم هم من صغر الأبدال إلى جوار هؤلاء الأقطاب .. اقرأوا كتاب نصر الله فلسفى لتعلموا ما أقول .

تزال آذاننا معتادة على هذه الاستحسانات المغرضـــة لموظفى وزارة الخارجية الذين يأتون كل بضع سنين إلى هذه الناحية فى رداء مستشرق أو سفير أو مستشار ، وفى النهاية يعدون دفترا جالبا للوهن من قبيل : أجل رؤوسكم رؤوس أسود ، وذيولكم ذيول فيلة ، ونحن – أى نفس اولئك المصابين بماليخوليا التعاظم الكاذب منذ عهد خسرو انوشيروان وتفتننا المجاملة – على ما نحن عليه ، وفى أثر هذه الزيارات والترددات من النوع الجديد ، يعرف الأوربيون أخلاقنا وطباعنا ، ويتعلمون كيف يحتفظون بنا وأيدينا على أفواهنا ، وكيف يمنحون القروض ثم يسيطرون على الجمرك فى مقابلها ، أو كيف يكسرون فى أسواق منافساتهم احتكار الحرير فى الدولة ، والذى كان فى يد الملك آنذاك " فى عصر الصفوية ، وعندما تستقر أحوالهم ، يريحون بالهم من ذلك البطل الصفوى المزعوم على أيدى الغلجيين الأفغان ، بحيث يصير بالتدريج مخيفا بقدر ما يخيف الملواح " خيال المآتة " ، وبعدها أيضا يأتى نادر ويهاجم الهند بذلك القدر من الغبـاء ، وتمامـا فى نفس الوقت الذى كـانت فـيـه شـركـة الـهند الشـرقـيـــة – أى الاستعمار الغربى – منهمكة فى دق خيامها ومعسكراتها فى جنوب الهند ، كان من اللازم أن يكون رأس بلاط محمد شاه فى شمال الهند مشغولا ، وبعد أن تدق رأس نادر أسفل الجدار ، تكون قصة " تركمان چـاى " ١٨٢٨/١٢٤٢" التى كانت آخر نهيق من ذلك الغافل الذى يرتدى جلد الأسـد ، ثم بعدها قصة محاصـــرة هـــرات " ١٨٥٧/١٢٧٣" وحصار واحد لمدينة بوشهر نتف آخر صوفة من هذه اللحية والمسن ، وهكذا ووريت جثـة هذا البطل فى التـراب .[1] وفى هذه الخمسين أو الستين سنة الأخيرة ، عندما ظهر النفط ، ووجدنا ثانية شيئا ما كسبب للوجود ، ونتيجة لنفس تلك

---

(١) المترجم : يمر المؤلف مرورا عابرا على أحداث مهمة فى تاريخ ايران المعاصر معلومة لدى قرائه فى ايران ويربطها ربطا شديدا بتقدم النفوذ الغربى وبالتالى تفشى داء الابتلاء بالتغرب ، وأى كتاب من كتب تاريخ ايران المعاصر يمر على هذه الأحداث دون أن يلقى بالا إلى ما ورائها ، لكن على كل حال من يريد أن يعرف تفصيلات هذه الأحداث كأحداث ليرجع إلى : دونالد ولبر: ايران ماضيها وحاضرها – ترجمة عبد النعيم حسنين –ط٢ ١٩٨٥– صص ٨٦–١٠٢و تاريخ ايران بعد الإسلام – تأليف عباس اقبال – ترجمة محمد علاء الدين منصور – دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة – صص ٦٣٩– ٨٥٥

التمهيدات والسوابق ، جرت الطواحين بكثير من المياه ، بحيث سقط مصير سياستنا واقتصادنا وثقافتنا دفعة واحدة فى أيدى الشركات والحكومات الغربية ، أما الهيئة الدينية التى كانت آخر أبراج المقاومة وأسوارها فى مواجهة الأوربى منذ عهد الثورة النيابية ، فقد غاصت داخل أصدافها فى هجوم تباشير الآلة ، وأغلقت باب العالم الخارجى أمامها ، ونسجت شرنقة حول نفسها ، ربما تتمزق يوم الحشـــر ، وذلك لأنها تقهقرت خطوة بخطـــوة .

وأن يُعلق أحد رجال الدين فى الثورة النيابية على المشنقة لأنه مؤيد " للمشروعة " (الشريعة فى مقابل الدستور) أمرٌ فى حد ذاته يعد دليلا على هذا التأخر والتقهقر ، وأنا أوافق الدكتور تندر كيـــا الذى كتب أن الشيخ الشهيد نورى قد شنق ليس لأنه من أعداء الدستور بل لأنه مدافع عن الشريعـــة[1] وأنا أضيف : وباسم مدافع عن شمولية التشيع الإسلامى ، ولنفس السبب قبع الجميع عند مقتل ذلك الشيخ منتظرين فتوى من النجف . وأيضـــا فى نفس ذلك الزمان الذى كان فيه أئمة الفكر عندنا هما ملكم خان المسيحى وطالبوف الإشتراكى الديموقراطى " الشيوعى " القفقازى [2] ، وعلى كل حال منذ ذلك اليوم رسموا على جباهنا صورة التغرب كأنها الوسم ، وأنا أعتبر جثـــة هذا العظيم على المشنقـــة مثل راية (تدل على سيطرة التغرب بعد مائتى عام من الصراع) نصبت على سطح قصر هذه الدولـــة .

---

(١) نقلا بالمعنى عن " شرح حال شيخ شهيد نورى = سيرة الشيخ الشهيد نورى " بقلم دكتور تندركيـــا – فى مقدمة آخر شاهين – ط . تهران سنة ١٣٣٥صص ٢١٠-٠٢١٩. المترجم : وعن ملابسات المجلس النيابى الأول وظروف مصرع الشيخ فضل الله نورى أنظر للمترجم : الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية – ط٢- الزهراء للإعلام العربى – القاهرة ١٩٨٨- صص ٨٢-٨٦ .

(٢) المترجم : كتبت رسالتان للدكتوراة ، قدمتا إلى جامعة القاهرة فى العامين الأخيرين ، إحداهما عن ملكم خان والأخرى عن طالبوف ، وكلتاهما دليل على الغيبـة الكاملة عن لب الموضـوع ، ومجرد نقل من المصادر الشاهنشاهية ، ولم تتكر كلمة التغرب مرة واحدة ، ولم يذكر جلال آل احمد مرة واحدة أو شريعتى ، ناهيك عن عشرات المصادر الفارسية والأوربية " !!" التى تحلل وتنكر الرأى الآخر . والرسالتان مع ذلك أجيزتا بمرتبة الشرف "!!!!" .

والآن تحت لواء هذه الرايــة ، نشبه قومــا غرباء عن أنفسنــا ، في ملابسنا ومسكننا وطعامنا وأدبنا وصحافتنا والأخطــر من كل هذا في ثقافتنا ، نُربى كمتفرنجين ، ونبحث عن حل لكل مشكلة كمتفرنجين .(١)

وإذا كان الخطر في صدر الثورة النيابية كان تحت آذاننا ، فقد استقر الآن في أرواحنــا ، بداية من ذلك القروى الذى هرب إلى المدينة ولن يعود ثانيــة إلى القرية ، لأن الحلاق المتجول في قريته لا يوجد " بريانتين " في حقيبته ، ولا توجد سينما في القرية ، ولا يستطيع أن يشترى " ساندوتش " ، حتى ذلك الوزير الذى يصاب بالحساسية من الغبار والتراب ، فيتسكع في السنة اثنتى عشرة شهرا في أركان العالم الأربعة . ولماذا صار الحال هكذا ؟ لأنهم جميعا هذان الجيلان أو الثلاثة الذين وجدوا لأنفسهم حيثية بين الحيثيات بعد الثورة النيابية ، وصاروا معلمين وكتابا ووزراء ونوابا ومديرى عموم ، ولم يتخصص أى انسان في أى مهنة أو حرفة إلا الطب ، كلهم إن لم تكن أعينهم متوجهة مباشــرة إلى انحرافات عهد شبابهم الذى كانوا قد قضــوه في باريس ولندن وبرلين ، فعلى الأقل لا تزال آذانهم رهن " سه مكتوب = الخطابات الثلاثة " لآقا خان الكرمانى ، وخطاب إلى جلال الدولة ، وإلى بقية متغربى

---

(١) انظر " تسخيــر تمدن فرنگى = سيطرة الحضارة الغربية " لسيد فخر الدين شادمان ، ط تهران سنة ١٣٢٦ ، وله فضل السبق على ، إذ نهض قبل سنوات من كتابة هذه الأوراق لعلاج " التغرب " ، واقترح التعليم الجدى للغة الأم ، وترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية والأدبية للغرب ، وبالرغم من أنه كان واعيــا ، إلا أنه لم يكن يملك وصفة مجربة ، وذلك لأننا منذ ذلك الوقت وحتى الآن ترجمت آلاف الكتب الغربية ، وكل منا قرأ معلومات عامة أوربية ، لكننا نميل إلى التغرب يوما بعد يوم . وذلك لأن هذا التغرب أو بتعبيرى أنا " الإنحراف " هو في حد ذاته أحد الأعراض البسيطة لمرض أكبر هو التغرب ، وربما كان الذى أكتشف الطريق قبل الجميع للسبب الأصلى لهذه المشكلة هو الدكتور محمد باقر هوشيار ، وبالرغم من أنه كان مشهورا بالبهائيــة إلا أنه كتب سنة ١٣٢٧" لقد رأيتم من فرجة الباب أن الأوربيين كلهم متعلمون ، لكنكم لم تروا رسوخ تقاليدهم ورسومهم ، ولا تعلمون أن جهاز التعليم عندهم من روضــة الأطفال حتى الجامعة قائم على الكنيســة ، ومنذ فترة قمتم بالقضــاء على هذا الأساس في بلدكم وكأنكم إناء أكثر حرارة من الحساء [مجلة آموزش وپرورش = مجلة التعليم والتربية - سنة ١٣٢٧ من مقال تحت عنوان آموزش همگانى ورايگان = التعليم العام والمجانى] .

الصدر الأول للفترة النيابية على ألسنة ملكم خان وطالبوف والآخرين وأقلامهم [1] وإلى مدى رأى كاتب هذه السطور هؤلاء السادة الذين يرى كل منهم أنه " مونتسكيو" وطنه ، وقد افتضح كل منهم فى ناحية ، وإلا ربما اتفقوا جميعـــا فى هذه النقطة ، وأحسوا عن فهم أو غير فهم أنه لا طاقة لمجتمعنا القديم وتقاليدنا للمقاومة فى مواجهة هجوم الآلة والتكنولوجيا الإجبارى ، وكلهم سقطوا فى هذه المتاهة التى هى " الأخذ بالحضارة الغربية دون التصوف الإيرانى "[2] ولكن علاوة على هذه الوصفـــة غير المجربة ، ذهب كل منهم إلى طريق مختلف بحثـــا عن علاج للداء ، كان أحدهم يسعر النار تحت قدر أرز السفارة ، والآخر مقلدا للغرب ظن أنه ينبغى أن تدخل " اللوتريه " ، وبإصلاح دينى يمكن أن ينفث الروح فى التقاليد القديمة ، والثالث دعا إلى الوحدة الإسلامية فى وقت كانت منبحـــة الأرمن والكرد قد دقت طبول فضيحة العثمانيين على رؤوس أسواق الدنيا .. عفوا إن كنت أتحدث بالكنايـــة ، فالموضع ليس موضع صراحـــة .

فى هذا الصدر الأول للفتـرة الدستورية " ١٩٠٦-١٩١٢" ، كانت الركيـزة الأساسيـــة فى أعمال زعماء القوم هى أن الموافق والمعترض كانوا يظنـــون أن "الإسلام = الشريعـــة = المذهب" كان لا يزال يتسم بهذه الشموليـــة الجامعة ، بحيث يكون حافظا أو سدا فى مواجهة نفوذ الآلة والغرب ، ومن هنا قام أحدهم للدفاع عنه ، وقمعـــه آخر . ومن هنا فوجئنـــا بأن الدستور والشريعـــة مفهومان متناقضـــان عن عدم التدين والتدين ، ومن هنا أظن أن كل هؤلاء السادة قد نفخوا

---

(١) فى رسائل " اسلام ، آخوند وهاتف غيب = الإسلام والشيخ وهاتف الغيب " و " هفتاد ودو ملت = ثنتان وسبعون أمة " و " رساله يك كلمة = رسالة كلمة واحدة " و " سياست طالبى = سياســة طالب " و " سياحتنامه ابراهيم بك = كتاب سياحةابراهيم بك " .. الخ ، وكلها دعاية للتغريب ، وقامعة للخرافات باسم الدين .. وفى رأيى أنهم كانوا ممهدى الطريق للتغريب .

(٢) عبارة ملكم خان بنصها . من مجموعة أعماله طبعة محمد محيط طباطبائى – تهران ١٣٢٧– وانظر أيضـــا " فكر آزادى = فكر الحريـــة " لفريدون آدميت – طهران ١٣٤٠ ، وهو بمهارة خاصة يذكر جماعة منهم كماسون ويبرىء جماعة أخرى ، فى حين أننى أعد الماسون جميعا نسخة واحدة ومثال واحد .

فى البوق من طرفه المفتوح ، وبالرغم من اننا لو كنا نعيش فى ذلك الزمان لكررنا تخبط الفريقين ، ولما كنا موجودين الآن لنسجل مثل هذا الحكم الصعب ، وذلك لأن هؤلاء السادة على كل حال كانوا أقرب منا إلى زمان ميرزا الشيرازى الكبير ، الذى قام عن طريق فتوى بسيطـــة بطى دفتر امتياز الدخان الذى أعطى للشركة الإنجليزية رجى [١] ، وبين أية قاعدة تكون للهيئة الدينيـــة وأى خطر ، وعلى كل حال كان هؤلاء الرجال الطيبون فى بداية الحركة النيابية غافلين عن أن إله التقنيـــة فى اوربا نفسهـــا ، وأنه منذ سنوات يتحدى من فوق عروش البورصات والبنوك ، ولم يعد يتحمل بعد إلها آخر ، ويسخر من لحيـــة كل التقاليد والأيديولوجيات ، أجل .. هكذا كان أن قمع الدستور كرائد للآلة رجال الدين ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، أبعدت المدارس الدينيـــة فى فترة عشرين سنة إلى مدينة أو مدينتين ، وقطع نفوذها عن أجهزة العدل والإحصـــاء ، ومنعت من ارتداء زيها ، بينما لم تقم الهيئة الدينيـــة فى مواجهة كل هذه الضغوط بعمل ما كرد فعل فحسب ، بل ظلت فى اسار علوم المقدمات ومقارنات الصلاة ، أو فى اسار النجاسات والطهارات أو حائرة بين الشك والوسوسة ، وعندما اهتمت كثيرا حرمت الراديو والتلفزيون اللذان كانا قد انتشرا ، ولا يستطيع أى رستم " بطل " ان يقف فى مواجهتها ، بينما كان على الهيئة الدينية ومن حقها أن تتسلح بسلاح العدو ، وتقوم من خلال محطة ارسال اذاعية تلفزيونية خاصة بها من قم أو مشهد – كما يفعلون فى الفاتيكان – بمقاومة تغرب محطات الإرسال الحكومية ونصف الحكومية . لأتحدث كناية .. لو أن الهيئة الدينيـــة كانت تعلم أنه بالمبدأ القائل " بعدم إطاعة أولى الأمر " أية جوهرة ثمينة تمتلكهاكأنها النطفة فى مواجهة حكومة الظلمة والفاسقين ، واحتفظوا به حيا فى قلوب الناس ، ولو كانت تستطيع أن توضح الماهية الخاصة لأولياء الأمر هؤلاء للناس بوسائل الإعلام الخاصة بهم " الصحف والأذاعة والتلفزيون والأفلام وغيرهـــا " ، وأن تنقل أحكام الأمور العامة إلى الأمور الخاصـــة ، ولو أنها كانت تستطيع عن طريق التردد على الأوساط الدوليـــة الدينيـــة أن تمنح عملها حركة وحياة ، لما كانت قد وقفت قط على هذه الجزئيات ،

---

(١) المترجم : لتفصيلات أنظر : الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية للمترجم صص ٥٧–٧٤ .

ونتيجتها الغفلة التامة ، والعزلة عن ساحة الحياة .[1] دعنا من هذا ، وكشاهد ومثال أخير ، أشير فحسب إشارة واحدة إلى الدور الذى لعبته شركة واحدة فحسب من شركات النفط فى سياستنا ومجتمعنا فى هذه السنين الأخيرة ، ثم اترك كل هذا المبحث التاريخى .

ولقد منح امتياز النفط بالتحديد فى السنة الأولى من القرن العشرين ، أعطاه الشاه القاجارى لوليام نوكس دارسى الذى باع فيما بعد حقوقـه إلى الشركة المعروفة . ونحن تماما منذ سنة ١٩٠٦ونحن مشغولون بضجة الحركة الدستورية .. وأين كان مجال الإتفاقيـة ؟ السفوح الجنوبية الغربية لجبال البختيارى ، ولا تزال أول بئر للنفط باقية فى مسجد سليمـان ، إذن ينبغى أن تحفظ السفوح الجنوبية الغربية

---

(١) فى الفترة ما بين الطبعة الأولى والطبعة الثانيـة لهذا الكتاب ، صدر كتاب اسمه " مرجعيت وروحانيت = المرجعية والهيئة الدينية " -بيماه ١٣٤١- طهران - شركت انتشار . يحتوى على الثرثرة المعهودة عن الهيئة الدينية ، لكنه يدل على إحساس ووعى نسبيين بهذه القضايا والمسئوليات ، ويحتوى على حلول ، خاصة فى مقالات المهندس بازركان أستاذ الجامعة وسيد محمود الطالقانى إمام مسجد هدايت اللذين اقترحا أن يكون هناك بدلا من مرجع تقليد واحد أن تكون هناك لجنة تضطلع بمهام الفتوى ، ولو اعتبرنا هذا الكتاب برغم كل نقائصـه نوعا من التنبؤ بأحداث ١٥خرداد ١٣٤٢ " المترجم : ثورة الخمينى الأولى فى ٥يونيه ١٩٦٣" ، فأنا الآن وقد مر عام على هذه الأحداث أجد فى نفسى الجرأة على أن أعرض على الهيئة الدينية ما يلى :

أ- إذا كان قد تقرر أن تتخلى الهيئة الدينية عن مبادئها والتى أوردت أحدها

ب- وأن ترضى بالجزئيات كذلك وبتحريم ذلك الشيء أو تكفير هذا وذاك

ج- وتنسى أنه بالإستناد على مبدأ الاجتهاد والفتوى فإن الطريق أكثر انفتاحا بالنسبة لقبول تطورات العصر أمام أقدام الشيعة أكثر مما هو مفتوح أمام أقدام أهل السنة " فى نفس الوقت فإن فتوى حرية المرأة أصدرها الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر وليس علماء الشيعة)على كل حال ، إن لم تستطع الهيئة الدينيـة بالإهتمام بأوضاع العصر أن تمزق الشرنقة المحيطة بها منذ الصدر الأول للحركة النيابية ، فلا محيص إلا أن تقبل أن هذه الجبهة الأخيرة للدفاع فى مواجهة الابتلاء بالتغرب ، قد فقدت تفاعل الحياة وضجيجها ، وتبدلت إلى متحجرات لا مكان لها إلا المتاحف ، أو على الأكثر صارت واحدا من آخر ملاجىء كل القوى الرجعية .

لجبال البختيارى خالية من المنتجع الشتوى لقبائل البختيارى حتى يستطيع حفارو آبار النفط أن يحفروا أرض " مسجد سليمان " وجبلها وصحراءها ، ومن هنا تتجه قبائل البختيارى(١) لمساعدة مجاهدى تبريز ورشت لفتح طهران (٢) وإذا كانت حركتنا الدستورية متسيبــــة ، فلنفس هذا السبب وهو أن الخانات الإقطاعيين قد هبوا لمساعدة حركة تعارض الإقطــاع فى الأصــل . نعم ، من هنا تُشغل رؤوسنا بالدستور والاستبداد حتى تشتعل الحرب العالمية الأولى ، فالشركات قد وصلت إلى النفط ، والبحرية الإنجليزيــــة – وهى رسميا صاحبة امتياز نفط الجنوب – تمتلك آنذاك ما يكفيها من الوقود .

تلاحظون أننى لا أقوم بكتابة التاريخ ، بل استنبط وبسرعة شديدة ، أما الأسباب والأحداث ، فابحثوا عنها أنتم أنفسكم فى كتب التاريخ .

انتهت الحرب سنة ١٣٠٠بتقويمنا " ١٩٢٠ " ، وأصبح أصحاب الشركات منتصرين الآن ، وخمد أتون الحرب ، ولا بد من أن يقل الاستهلاك الخارجى للنفط ، ولا بد أن يوجد " زبون " له فى الأسواق الداخلية ، ومن ثم يجب أن تكون هناك حكومة مركزية قويــــة على رأس الأمر، حتى تؤمن كل الطرق ، وترفع جميع العقبات ، وتستطيع شاحنات النفط أن تذهب بيســـــر حتى قوچـــان وخوى ومكران ، وينبغى أن تبنى محطة بنزين فى كل قرية نائيـــــة ، وأهم من كل هذا لما كان صاحب

---

(١) تذكروا أن أحد المساهمين فى شركة BP. للنفط كان سردار أسعد البختيارى نفســـه وايضا مشير الدوله " نصر الله خان " ، وإذا كان سردار اسعد قد أعدم فى عهد رضـــاخان ، ألا تظنون أنه لابد قد ادعى – كما فعل الشيخ خزعل فى ادعائه ملكية أرض خوزستان – ملكية أراضى مشتى البختيارى الغنية بالنفط وسبب المتاعب لحكومة ذلك الزمان ، تماما كما ادعت عشائر الحياة داوية ملكية خارك وبسببها أعدموا بالرصاص ؟ للكشف عن هذه القضايا أنظر " طلاى سياه يا بلاى ايران = الذهب الأسود أو بلاء ايران " لأبى الفضـــل لسانى .

(٢) المترجم : المقصود زحف مجاهدى تبريز ورشت على طهران بعد أن قصف محمد على شاه قاجار المجلس النيابى الوليد بالقنابل ، وقبض على الأحرار وأعدمهم بالرصاص فى باغشاه ، بينما لجأ القوميون إلى السفارة البريطانية فى ٢٣يونيه سنة١٩٠٨, لمعلومات أكثر أنظر للمترجم : الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية ط٢ صص ٨٣-٨٤ .

الإمتيـــاز الآن هو البحرية الإنجليزيـــة ، ولم يعد لديها الصبر بعد على الفوضى الداخلية والمساومة مع الخانات والمجلس والصحافة ، وتريد أن تتعامل مع شخص واحد فحسب ، كان أن حدث عندنا الإنقلاب العسكرى سنة ١٢٩٩" هـ.ش." وحكومة عسكرية استبدادية من بعده ، وتهجير الكرد واضطهاد لسميتقو[١] وإعدام للشيخ خزعل ، الذى لو كان قد تصرف بتعقل قليلا ، لكان لدينا ثانيا لشيخ البحرين فى خوزستـــان .

ثم وفى سنة ١١٣١ " ١٩٣٢" تكون مدة امتياز دارسى قد جاوزت منتصفها وفى سبيلها إلى الإنتهاء ، فلا بد أن يستغل الصاحب الأصلى للإمتياز أى البحرية الإنجليزية – هذه السلطة المتمركزة الموجودة ، وكل أحاديثها من المجلس ومجلس الوزراء وحتى الجيش والأمن العام يتفوه بها شخص واحد ، وما دام الفرن ساخنا ، تجدد الإمتياز . ، وهنا يصير " تقى زاده" من جديد أداة الفعل ، ويصوت مجلس الأراجوزات ، ويُلغى امتياز دارسى فى البداية ، ثم يُعقد من جديد ، وبكل هذه الأبواق والمزامير ، بحيث لم يفهم حتى شيوخ القوم أية خدعة جرت فى الموضوع ، أو إن كانوا قد فهموا لم ينبسوا ببنت شفــــة ، ذلك لأننا لم نر من واحد منهم حتى شكوى من القضيــــة ، حتى يمنع على الأقل إدانة التاريخ من وسم جبهة مصيره ، اللهم إلا فيما بعد عندما دارت مجريات الأمور ، وعلى رأس جسر السنوات التالية لسنة ٢٠ " أخذوا كل حمار " أى اتهموا كل إنســــان " . ولا جدال ينبغى أن تزين هذه الصورة القبيحة بشكل استعراضى يناسب الزمان ، أى إخفاء الواقع .. وبأى شكل ؟ بهذا الشكل الذى يصــــل إلى توحيد زى الناس بضرب الشوم ، ورفع اللبد من فوق رؤوس الرجال والحجاب عن النساء كآخر التطورات الراقيـــة ، ومد طريق حديدى شامل ، ليس بدخل النفط ، بل بحصيلة ضرائب السكر ، والذى اكتشفنا أخيرا أكبر سبب لإنشائه وهو توصيل المساعدات إلى مؤخرة جبهة ستالينجراد فى سنوات الحرب العالمية الثانيــــة .

---

(١) المترجم : اسماعيل سميتقو ، زعيم طائفة من كرد آذربيجـــان ، ثار على رضاخان ، وشردت طائفته واضطهدت ، قتل سنة ١٣٠٩-١٩٣٠" انظر فرهنگ معين – جلده ص٨٢ .

ثم وفى سنة ١٣٢٠من تقـويمنا " ١٩٤١" تكون الحـرب فى اوربـــا ثانيـــة ، وخطر رشـيـد عـالى الكيلاني ، والغـزل الذى كـانت تتبادله حكومـة ذلك الزمـان مع محـــور " روما – برلين " ، وهى تظنه علامة بلوغ ، وهو خرف شيخوخة . وفى النهاية فإن أبقار حظيرة واحدة وإن لم تتآلف إلا أنها تكتسب نفس الرائحـــة ، ومما لاشك فيه أن هذا الأمر لم ليؤخذ على سبيل الهزل ، ورأينا جميعا ماذا حدث ، كل هذه السلطـــة والجبروت والجيش والركن الثاني والشرطـــة تفسخت فى يوم واحد ، ولا شك مادام نابليون وهو قائد فرنسى قد رضى فى عصر ما بجزيرة سانت هيلانه ، فمن الواضح أن قـائدا ايرانيا سـوف يعتـاد على جـزيرة مـوريس . ثم الولايات المتحـدة الأمريكية التى كانت قد تحركت حول نفسها قبيل الحرب العالمية الأولى ، وينبغى أن تستطيع أن تجعل سفنها المسلحـــة تأخذ النفط من الخليج ، ولو كنتم مكانهم : هل كنتم على استعداد لأن تدفعوا دولارا واحدا من جيوبكم فى مقابل وقود السفن التى كانت تطوف الدنيـــا فى سبيل الإنتصار على الفاشيـــة أى نجاة الروس والإنجليز ؟ وأيضـــا لشركة النفط الإنجليزيـــة ؟ أجل : من هنا تبدأ أرضية تدخل امريكا فى قـضيـــة نفط الجنوب ، وبخـاصـــة أنه فى أزمـة آذربيجـان كـان وزن السيـاسـة الأمريكيـــة هو الذى حرك هيئة الأمم ، فأجلت القوات السوفيتية من آذربيجـــان ، ولا بد أن يوجد التوتر والمطالبة بالحرية والحديث عن امتياز نفط الشمال أيضـــا ، مثل ملواح لا يريد الإنجليز أن يسلموا ساحته إلى أمريكا . وهذه الحرية المحدودة حتى سنة ١٣٢٩" ١٩٥١" حيث يؤمم النفط ، و" تكش " امـريكا ، وتتـغـير قطع الشطرنج واحدة بعد الأخرى ، ينبغى أن" تُكشش" إحداها ، وتمضى الأخرى إلى صندوق العدم . وهذه هى قصـــة الانتفاضـــة القومية فى٢٨ خرداد سنة ١٣٣٢ " ١٩٥٣" [١]

وهذا هو معنى ما نسميـــه بالتبعية بين السياســـة والإقتصاد ، وتبعية الغرب وشركات النفط والحكومات الغربية ، وهذا هـو الحد الأقصى لمظاهر الابتلاء بالتغرب فى عصرنـــا ، وبهذا الشكل تغير علينا الصناعة الغربية وتحكمنا وتمسك فى قبضتها بمصيرنا ، واضح أنك مـا دمت قد أعطيت زمـام اقتصـاد بلد مـا وسيـاسـتـهـا إلى

---

(١) المترجم : المقصود عودة الشاه بعد إسقاط مصدق على أيدى المخابرات الأمريكيـــة .

الشركات الأجنبيـــة ، فإنها تعلم ماذا تبيع لك ، أو على الأقل تعلم ماذا عليها ألا تبيع لك ، ولا جدال تريد أن تكون البائعـــة الدائمة للبضائع التى صنعتهاومن الأفضـــل ألا تستطيع أنت أبدا أن تستغنى عنها .. وليحفظ الله منابع النفط ، فهم يحملون النفط ويعطونك فى مقابله كل ما تريد ، من لبن العصفـــور إلى روح الإنســـان وحتى القمح . وهذا التبادل الإجبارى موجود حتى فى القضايا الثقافيـــة ، وفى الأدب والشعر ، هيا تصفحوا الصفحات المعدودة للصحافة الأدبية ذات الوزن : أى خبر عن هذا الجزء من العالم موجود فيها ؟ أو عن الشرق بوجـــه عام ؟ عن الهند أو اليابان أو الصين ؟ كل الأخبار عن نوبل وتغير البابا وعن فرانسواز ساجان وجوائز كان وآخر مسرحيات بوردواى وأحدث أفلام هوليود . أما المجلات الملونة فأمرها منته . وإذا لم نسم هذا بالابتلاء بالتغرب ، فماذا نسميـــه ؟ !

٧- مجموعة المتناقضات

والآن ، نحن والتشبـــه بقوم غرباء ، وبتقاليد غير معلومة ، وبثقافة ليس لها فى أرضنـــا ولا فى جونا جذور وبالتالى لا تنتج فروعا أو أوراقـــا ، فى الحياة اليومية وفى السياســـة وفى الثقافة ، ولهذا السبب فكل شيء عندنـــا أبتر . ومن تكون فى الأصل هذه ال" نحن " ؟ شيء يشبه من ١٩إلى ٢٠ مليون إنسان ، ٧٥٪ منهم يعيشون فى الريف وتحت الخيام والأخصاص – بتقاليد عهد بداية الخليقـــة– فى غفلة تامة عن القيم الجديدة ، محكومون بتقاليد المالك والأجير ، ولم يرو آلة ، يستخدمون أدوات بدائية ، وطعامهم ووقودهم وملبسهم ومسكنهم كما هو خليق ببدو : أى المحراث وخبز الشعير وروث البقر والدمور والأكوام على التوالى ، والشيء الوحيد الذى تسلل من عالم الغرب إلى هذا الريف التجنيد الإجبارى والترانزيستور ، وكلاهما أسوأ تأثيرا من الديناميت .

والتطور الآلى إلى الحد الذى يحول " الكرسى = المدفأة الإيرانية التقليدية " إلى مدفأة متطورة هو الخطوة الأولى ، لكن فى هذه الأرياف التى عندنا لا يعرفون حتى الفحم ، فما بالك بالنفط ، ونحن دولة منتجة للنفط ، ونجاهد كثيرا من أجل نشر استخدام النفط ، ومع ذلك فإن معدل استهلاك البنزين والنفط عندنا هو ٢٥٠ لتر فى السنة للفرد ، طبعا مع كل هذه السيارات المهترئة التى تستهلك كثيرا من البنزين فى المدن كما ترتكب حوادث كثيرة [(١)] وبهذا القدر من البنزين لايمكن طبخ " عجة واحدة . هذا فى حين أن التغريب يستوجب أن نلقى بهذه القرى بظروفها التى عددتها تحت رفسات التراكتورات متعددة الأصناف ، والتى نحن مضطرون إلى شرائها بضمان أموال النفط أو فى الأصل فى مقابل النفط .. وماذا يفعل هذا الجرار إذن ؟ يخلط كل الحدود والنظم بين الأراضى التى وضعها الأجداد ، تعال وانظر أية مذابح حدثت بسبب هذا الجرار الأعمى المنتسب إلى القرن العشرين ، وكيف سرق ثلاثة أشبار من

---

(١) الاستهلاك الكلى لمنتجات النفط " غير القار والأدوية الكيميائيـــة المشتقة من النفط " سنة ١٣٤٢"١٩٦٣" فى كل أنحاء ايران ٥مليون طن ليترى ، وإن قسم بين ٢٠ مليون يكون للفرد ٢٥٠ لتر فى السنة ، أى أكثر قليلا من نصف لتر فى اليوم .

ارض " كل مدولى " وأدخلها فى أرض " كل عباسعلى " ، ولقد أعددت أرشيفا من هذه المصادمات الدموية ورؤوس القرويين التى شجت بالفؤوس ، وذلك من أجل كتابة رواية . وأخيرا من قبل هذه الأوضاع والأحوال ، اعتبروا آخر وسائل التطور فى القرى هو تقسيم الأراضى وتوسيع نطاق طبقة الملاك الصغار ، أى تبديل كل أرض صالحة للزراعة إلى نسيج عنكبوت من الحدود والترتيبات الفردية ، بحيث تخنق كل آلة فى سداها ولحمتها ، وتسلب منها القدرة على العمل ، ثم تعال وانظر أية جبانة تحولت إليها مزارع الملكة للأشلاء المهترئة لهذه الجرارات ، فلا محطة الصيانة فى متناول أيديهم تشرف على عملها ، ولا أفق مفتوح ، ولا أرض واسعة حتى يمكن أن تجذب منها عملا ، ولا طريق بحيث تستطيع أخذها إلى المدينة لإصلاحها .. ومع هذا فإن أهالى كل قرية يقضون ثلاثة شهور فى السنة عاطلين تماما ، ضحايا البرد والسيل وقلة الماء والجفاف والجراد .. ومتى يمكن حلها كلها ؟

وإذا كان طعام سكان دولة ما صناعية ومتقدمة يكفله عدد فى حدود من ٩٪ إلى ١٥٪ من سكان تلك الدولة ، فقد خصصنا نحن ٦٠٪ من السكان عندنا لخدمة بطوننا ، وفى النهاية نستورد كل سنة القمح من أمريكا والسكر من فورموزا ، نحن الذين نعيش فى دولة اصطلح على أنها زراعية !! وإلى جوار هذا : ففى خلال تلك الشهور التسعة التى يعمل خلالها أهل الريف الغيورون .. ماذا يعملون ؟ جمع الأعشاب لعلف الحيوان ، تجفيف الروث فى الشمس ، وأخذ البقر والخراف للشرب من الجدول ، أو إقامة مراسم صلاة الاستسقاء ، وإن لم تجد هذه الصلاة ، فالترانزيستور يقول لهم ، أنهم يجمعون النقود فى المدينة بالجاروف ، فضلا عن وجود سهرات ليالى الأربعاء ، إذن فلنأخذ الطريق إليها ، وعلى هذا النسق يهربون إلى المدن زرافات ، إلى المدن التى كانوا يحملون إليها فيما سبق الشبان الناضجين البالغين من أجل الجندية وشغل الفعلة أو للتصدير ، إلى المدن التى يعيش فيها ال٢٥٪ الباقية من الأهالى الغيورين تحت سقوفهم الطينية ، وخلف جدرانهم العالية السميكة مصونين من آفات الدهر ، إلى المدن التى أغلبها قرى انتفخت أو بتعبير صديقى حسين ملك : كل واحدة منها عقدة ظهرت فى مكان ما من الطريق الذى يشبه الحبل ، ثم إن كل واحدة

من هذه المدن سوق مكس للصناعات الأوربية ، فإنتاج الدراجات لمدة خمسين سنة من مصنع " رالى " الإنجليزى يمكن أن تراه بأكمله فى يزد ، وانتاج شهر من مصانع " متسوبيشى " فى تربت حيدريـــه ، وانتاج عشرة سنوات من فورد وشيفروليه وفيات فى تهران ، فى نفس الوقت الذى لا يمكن أن تحصل فيه على الزبد فى مدينة كرمان ، وفى تبريز ينبغى أن تأكل العلب المحفوظة الأسترالية ، كل هذا جربته بنفسى .. نعم ، نهرب من تلك القرى إلى هذه المدن .. إلى غابة المدينة المتشابكـــة المتراصة ، ولأى عمل ؟ للعمل كمنادى سيارات أو بيع أوراق اليانصيب ، أو إذا كنا نشطين جدا نشتغل فعلة .. وكم يكون الأجر ؟ عندما يكون الغذاء فى العمارة فاليومية من سبعة إلى عشرة تومانات ، أجر يعطى للفعلة فى الدول الصناعيــة مقابل ساعة واحدة من العمل .

حقيقة أن هذا النوع من الحياة الحضرية أخذ فى التوسع عندنا ، لكن فى أى عهد سمعتم عن مدينة تستطيع أن تعيش بلا قريـــة ؟ وهكذا فسرعان ما تكون لدينا فى كل أنحاء الدولة تلال من بقايا السيارات ويحجم مدينة طهران شبيهة بالجبانات الأمريكية للسيارات .. وفى النهاية فإن السيارة لا يمكن وضعها كالمدفع الجبلى فوق بغل ، لتصحبها القبيلة التى ترحل ، من هذا الجبل إلى هذا التل ، للمحافظة عليها والاطمئنان عليها . حتى إنك إذا اشتريت سيـــارة " بيجو" فلا بد وأن تعد من أجلها مكانا للمبيت ، وإلا فإن البرودة سوف تفجر الرادياتير ، وآنذاك كيف سيمكنك دفع أقساطها ؟ ومن هنا فلدينـــا سائقون كثيرون فى المدن يقضون الليل فى نزل على سرير بتومانين ، بينما سيارتهم الأجرة فى " جراج" كذا بتومان فى الليلة .

أجل ، حتمية استهلاك الآلة ، تؤدى إلى حياة الحضـــر ، وحياة الحضر كما مر نتيجة للإقتلاع من الأرض ، من أجل أن تهاجر إلى المدينة ، ينبغى أن تقتلع نفسك من أملاك آبائك وأجدادك ، أو أن تهرب من مالك القرية ، أو أن تمل تشرد القبيلة وتفر ، وهذا هو أول التناقضـــات الناتجة من التغرب عندنـــا من أجل أن تستجيب لدعوة الآلة للعيش فى المدن ، ترسل الناس من القرى ب...ين إلى المدينة التى لا عمل فيها بالنسبة للقادمين الجدد ، ولا مسكن أو مأوى ، فى حين أن الآلة نفسها قد اتخذت طريقها إلى القريـــة ، وإلا فإن كل آلة تحل محل عشرة أشخاص و" ثور حراثة " ،

لكن فى القرية لا تستغني الآلة أيضا عن الخدمة والعامل الفنى .. ومن أين تأتى بهمـــا ؟ ترون أن الأمور تزداد تعقيدا بشكل سيء .

وهناك تناقضات أخرى عندنا من هذا التغرب، فلأعدها :

أول خطوة يخطوها ساكن المدينة هى أن يسد حاجة بطنه ، ثم مادون بطنه ، ومن أجل سد الحاجة الثانية يهتم بمظهـــره [1] ، ولما كنا فى القريـــة لم يكن ثمة طريق للحصول على كل هذا ، ومن هنا فإن أول مصادر بورجوازى محدث يكمن فى الصناعات الغذائية " صناعة السكر والبسكويت والسمن النباتى والكمبوت واللبن المبستر " وصناعات مواد البنـــاء " صناعة الأسمنت والبلاط اللوكس والموزايكو .. إلخ " وصناعات الملابس " النسيج والتريكو والموضة العامة .. إلخ " ومع مثل أنواع القحط التى أصابتنا والفقر الغذائى المزمن الذى دام عشرة قرون ، وإن كنا هكذا ببساطة ، تعد هذه خطوة إلى الأمام .. مثل هذا القحطان الذى قضى عمرا فى القريـــة يأكل الخبز والمخيض ، عندما يقوم فى المدينة بإشبـــاع بطنه بساندويتش ، يذهب إلى الحلاق والخياط ، ثم ماسح الأحذيــــة ، وبعدها إلى بيت الدعارة ، فالأحزاب والجمعيات ممنوعة ، والنوادى وما يشبهها .. ماذا أقول ؟ ، والمساجد والمحاريب نسيت بدورها ، وإن لم تُنس فمحرم ورمضان يكفيان . وبدلا من كل هذا هناك السينما [2] والتلفزيون والصحافة التى تنشر كل يوم فنون إغراء نجمة السينما فلانة على رؤوس وفى وجوه آلاف من الناس الغيورين من سكان المدن . وآنذاك : من

---

(١) تثبت الإحصائية الدقيقـــة أن ايران من ناحية محال الزينة والحلاقة الدولة رقم ١٦فى العالم ، فى طهران ٢٢٠٠ حلاق رجالى ونسائى بترخيص و٢٥٠٠حلاق بدون ترخيص ، بالمقارنة بلندن التى تحتوى على ٤٢٠٠حلاق رجالى ونسائى وموسكو وفيها ٣٩٠٠حلاق يعملون ، يمكن أن تفهم إلى أى حد فى الكم سنة الأخيرة يعطى أهل طهران أهمية للحفاظ على مظهرهم . نقلا عن ص ٢ من مجلة فردوسى الأسبوعية – السبت ٢١ خرداد ١٣٤٢هـ. ش.

(٢) السـينما فى عداد المواد المخدرة والسجائر فى ايران ، ملاذ الفارين من القلق والمسكن والأســـرة ، والفارين من المدرسة والحرمان الجنسى وأنواع الحرمان الأخرى ، وفى تهران وحدها يذهب الناس ٣٣ مليون مرة إلى السينما وفى سبيل هذا يدفعون ٥٠٠ مليون ريال " نقلا عن مجلة مسايل ايران آذرمـاه ١٣٤٢ من مقال ستمـا ومردم از يكديگرچه ميخـواهند =

أين ينبغى أن يأتى طعام كل اولئك الناس ؟ من القرى ، والقرى قد خلت ، والبقر قد ذبح ، والقنوات قد طمست ، ومسمار البريمة نمرة ٥ لموتور البئر العميق قد كسر ، وسن محراث الجرار قد أصابه الصدأ وانكسر ، كما ردت الشركة بأن قطع الغيار لن تصل قبل سنة ، وفى النهاية لا يمكن أن تشبع مدينة كاملة باللبن المجفف المهدى من أمريكا أو استراليـــــا .

هناك تناقض آخـــر : التمدن أو الاستقرار يتطلب الأمن سواء فى المدينة أو القرية ، وقد رأينا أنه علاوة على أن القرى تخلو ، فإن أغلب هذه القرى وكثير ا من المدن تعد معبرا للعشائر والقبائل عند الرحيل ، ورحيل العشيـــرة هو الذى يدوس المزرعة ويرعى فيها ، ويخرب الجداول ويلقى بالكلاب الميتة فى القنوات ويسرق الدواجن ، ويجر عدم الأمن معه حيثما حل ، ولهذا السبب فحسب بقينا بلا أمان فى مدننا الصغيرة ، فما بالك بالقرى ، ولنفس هذا السبب يعيش الناس فى هذه الديـــار على التقية ، وبدون أدنى ثقة فى الآخرين ، والمواراة ، مختفون خلف الجدران الطينية أو الخراسانية العالية من مصائب الزمان ، وإذا كان السور العالى حول المدن فى بعض العصور كان يغنى عن الجدران حول كل منزل ، فاليوم وقد هدمنا أسوار المدن وبواباتها كجواز لشق الشوارع – معبر البولدوزرات والجرارات والشاحنات – فلا بد لكل منزل من سور حوله .. وأية جدران عالية !! إن بلدنا هى بلد الصحارى الحارقة والجدران العالية . الجدار الطينى فى القرى والمبنى من الطوب والأسمنت فى المدن ، وليس هذا فحسب فيما يحيط بالناس ، بل إن فى داخل كل إنســـان توجد مثل هذه الجدران قد شمخت إلى السماء ، كل إنسان اعتصم داخل سور من التشـــاؤم واعوجاج الفكر وعدم الثقة والسيـــر منبتـــا .

= السينما والناس ماذا يريد كل منهما من الآخر ؟ " وفى نفس المقال يضع عبارات منقولة من " كتاب ايران " وهو تقرير كتبه ستة عشر متخصص امريكى عن ايران "١٩٥٧" فى نفس قضية السينما هذه " فى الفيلم يجد الإيرانى الميال إلى الغرب الحضارة الجديدة التى وعدوه بها فى تربيته وتعليمه الجديدين لكنه محروم منها فى الحياة ، والسينما بالنسبة له مفر فى مجتمع ملىء بالحرمان وملجأ إلى عالم خيالى تتحقق فيه قيمه الغربيـــة " .

ومن ناحيـــة أخرى ، أشرت إلى أن احد سكان المدن أو الفلاحين الساكنين فى قرية عامرة ، إما أنه فر من مالك الأرض أو فر من القبيلة ، او اعتزل قليلا فى ركن بعيدا عن معبر العشيرة السنوى الذى يخفى معه الغارة والتخريب ، وذلك لكى يعد لنفسه فى المدينة أو فى قرية كذا العامرة مكانا آمنا ، وهو غافل عن أن نفس هذا الخان العشائرى قد يصل بعد عشرة سنوات إلى الحكم ويكون أسرة " اتابكة كذا " (أنظر إلى حكومات العشائر لا إلى حكومات الأسر عندنا) ، وبعدها تدخل المدينة أو البلدة التى اتخذها مأمنا له ، أو القريـــة التى أعاد قناتها إلى العمل فى التزام الخان فلان ، ثم من جديد رزق يوم بيوم ، وآخر تقسيم الالتزامات عندنا تم منذ عصر الثورة الدستورية ، ومع هذا الإقطاع والعشائر الرحل التى لدينا ، يعلم الله حتام نظل ضحايا لعواقبها من انعدام الأمن والتشرد والتشـــاؤم واليأس من الغد .. وهذا كله فى أى عصر ؟ فى عصر لم تعد الآلة فيه أعظم خان فحسب ، بل وجلست على مسند الخان الأعظم .. لكنها تطلب الأمن ، ورفع الحدود وهدم الجدران والبساطة " أو من الأفضل أن أقول الغفلة " والطاعة والثقة فى الآخرين والثقة فى الغـــــد .

وهناك تناقض آخر : عندما تدخل الآلة وتستقر فى المدن والقرى ، سواء كانت فى صورة طاحون ذى موتور أو مصنع للنسيج ، فإن عامل الصناعات المحلية يصير عاطلاتجعل طاحون القرية يتعطل ، والمغازل بلا انتاج ، تعطل نسج السجاد والأكلمة وصنع اللباد ، هذا ولدينا فى هذه الصناعات اليدوية والمحلية وفى نسج السجاد والأكلمة ، وفى صناعة القيشانى والقماش المقلم والأخفاف القماشية سوق صغيرة ، رائجة إلى حد ما ، ونحار متسائلين : لماذا كسد سوق السجاد ؟ لماذا تعرضت تجارته الخارجية للخطر ؟ غافلين عن أن هذا هو أول العشق ، وعندما امتدت قدم الآلة إلى القريـــة ، وبهذا الشكل أمامنا مصائب أخرى .. لقد رأيت بنفسى أن كل الطواحين الهوائية بين قاين وكوناباد قد تعطلت مثل شياطين الأساطير التى سقطت من الإعتبار، أو كالحراس الشيوخ الذين راحوا فى النوم فى القرى والبلاد ، ورأيت فى دزفول فحسب بكل مصانع بلاطها الجميلـــة وتخطيطها النموذجى ما يقرب من مائة طاحونة مائية معطلـــة ، ومادامت الآلة قد دخلت إلى القرية ، فكل ملحقات اقتصاد

الرعي والاقتصـــاد القروي سوف تتفسخ أي كل صناعة محلية ويدوية .. وما أجمل هذا .. وحـتى لا تضـيع كل هذه الأعين والأيدي والصدور لشبـاب الريف تحت أنوال السجاد ، ومن أجل أن تتزين بيوت الأرستقراطيـــة . وأعظم ميزة لدخول الآلة إلى المزارع والقرى ليس فحسب التحطيم الإجباري لتقليد المالك والأجير ، وتفسخ تقاليد الرحيل والتنقل والعشائرية والخان خانية ، بل وإلى جوار ذلك أنها أيضـــا تقضي أيضـــا على الصناعات المحلية ، أو تحميها إذا كانت ذات تخطيط وبرنامج ، تستطيع أن تعطيهم نقودا أكثر وقيمة أكثر ، لأنها تستطيع أن تجد مشتريـــا جديدا للصناعات اليدويـــة ، لأنها تستطيع أن توسع سوق الأخفاف القماشيـــة ... إلخ .

وهناك تناقض آخر : عندما تكون أدوات الحيـــاة بدائيـــة من محراث ومدفأة ايرانية وخف قماشي وكلوب ، حتى المنجل والمغزل ونول السجاد ، فإما أن تجلب معها نمط تفكيـر بدائي أو العكس . والاعـتـقـاد في الخـرافـات والدق على الطسوت عند الخسوف والكسوف ، والتوسل بالأدعية والأحجبة ومضادات الحسد من أجل الهروب من المرض ومن الآفـــة [1] وتعـاليم كـتـاب كلثوم ننه [2] كلهـا من هذا القـبـيل ، ولا جدال في أن الآلة وقد دخلت ، لا بد وأن يمضي أيضا هذا النسق من التفكير ، لكن لا تتصوروا أن يتم الأمر بهذه السرعـــة ، لأن هؤلاء البشـر المؤمنين بالخرافات ، والذين يتبعون تعاليم كلثوم ننه ، هم فعلا الذين تقاطروا على المدينة ، وصاروا عبيدا للآلة ، أو يسـوقـون في تلك القـرى البـولدوزرات والجـرارات ، لن نأتي بالبشـر من السـمـاء أو نستوردهم مع الآلة ، ولكي تروا هؤلاء البشــر الذين نشأوا اليوم معتادين على الآلة ، تلزم دورة تعليميـــة واحدة على الأقل . ولقد رأيت بنفسي سائق بولدوزر كان يكنس " خارك " وقد علق تميمة ضد الحسد في عجلة قيادة سيارته المهولة ، وسيارات الأجرة عندنا مليئة بهذه الطلاسم ، والحوانيت مليئة بالأدعـية والشتـائم والأشعار القـائلة :

---

(١) رأى صهري منوچهر دانشور في نوروز سنة ١٣٤٠ صلاة استسقاء في آغاجاري إحدى مراكز استخراج النفط ، كل واحدة من النسوة حملت حملا أو شاة على يدها ، واتجهت إلى السماء وأخذت تقول : يا الهي إذا كنا مذنبين فأي ذنب ارتكبته هذه العجماوات ؟!

(٢) المترجم : كتاب رائج بين العوام يحتوي على كثير من الوصفات البلدية والتعاليم لعلاج كل داء ومواجهة كل مصيبة .

تجاوز عن هذه أيضا و هذه أمانة لدينا من أجل الرزق . فى مثل هذه البيئة التى نفاجأ فيها بأن صاحبنا قد يخرج فى لباس رعاة البقر ويسطو على بنك ، فإن الرجل البدوى الذى جاء إلى المدينة ، وعقد الحزام لخدمة الآلة بكل بلادة ذهنه ، وتكاسل حركاته ، وبكل قدريته ، ينبغى أن يسرع خطوة بخطوة مع الآلة ، أو أن يبدى أمامها ردود فعل عكسيـــــة ، هذا الرجل الذى يقوم بالإستخارة والذى يقدم العقيقة ويأكل الأغذية النذرية ، يتعامل مع الآلة ، التى لا هى تفهم شيئـــــا عن القدر ، ولا تعمل مكابحها بسرعة أكثر بسبب الخروف الذى تقدمه كأضحيـــــة كل شهر ، وإلا كان موتورها أكثر بطئا . وهكذا فعندما لا تجدى أضحيته كل شهر فتيلا ، وتكثر حوادثـــــه ، ينفد صبره دفعة واحدة ، ويخرج عن كل شىء ، ويصير مجرما أو غير مؤمن بشىء أو استغلاليـــا نفعيـــا .

وهناك تناقض آخر : فمن واجبات التغرب أومستلزماته منح الحرية للمرأة ، ولا بد أننا أحسسنا أننا محتاجون إلى مقدرة هذا النصف للقدرة البشرية فى المملكة بحيث أوصينا بأن تكنس الطرق وترفع العوائق ، لكى تصل قافلة النســـــاء .. لكن بأى شكل قمنا بهذا الأمر ؟ وهل تتساوى حقوق المرأة مع الرجل فى كل الأمور ؟ لقد قنعنا فحسب بأن نرفع الحجاب عن رأسها بضرب الشوم ، وفتحنا عددا من المدارس أمامها ، ثم ؟ لا شيء قط ، يكفيها هكذا ، فالقضـــــاء لا يتأتى من المرأة ، والشهادة لا تستطيع أن تؤديها ، والتصويت وعضوية المجلس أمور افتضحت منذ فترة ، بل ولا حق للرجال أنفسهم فيها ، ولا رأى لهم فيها أصلا ، والطلاق موكول برأى الرجال مصداقا ل (الرجال قوامون على النساء) وما أجمل تفسيرنا لها . إذن ماذا فعلنا فى الحقيقة ؟ أعطينا المرأة حق الظهور فى المجتمع فحسب .. الظهور فحسب ، اى الاستعراض ، أى سحبنا المرأة وهى حافظة التقاليد والأســـــرة والنســـــل إلى التسيب ، أخرجناها إلى الشارع ، ودفعناها إلى الإستعراض والتسيب بحيث تزين شعرها ووجهها ، وتضع كل يوم على وجهها سحنة دُرجة جديدة ، وتضيع ، وفى النهاية أهناك عمل لها فى المجتمع ؟ شخصية ؟ أبدا!! حتى الآن هو وهق نسائى من هذا النوع . وما لم تصبح قيمة الخدمة الإجتماعية لعمل الرجل والمرأة سيين ، وقيمة عملهما " أى اجرهما "

متساوية ، وما لم تتعهد المرأة بأن تكون كتفـــا إلى كتف مع الرجل فى إدارة ناحية من نواحى المجتمع " غير المنزل وهو أمر داخلى ومشترك بين الرجل والمرأة " وما لم تحقق المساواة بمعناها المادى والمعنوى بينهما ، فإننا فى أمر الحرية الصورية للمرأة ، لن يكون لنا هدف حتى سنوات قادمة ولا غرض إلا زيادة أفواج المستهلكات للبودرة وأحمر الشفايف من إنتاج الغرب .. وهذه صورة أخرى من الابتلاء بالتغرب . ولا جدال أن هذا الكلام عن المدن ، الحديث عن قيادة الدولـــة ولا مكان للمرأة فيها ، وإلا فإن المرأة فى العشيرة والقرية ، تحمل منذ قرون حمل الحياة أصـــلا على كاهلها .(١)

وهناك تناقض آخر وهو معقد جدا ولا يلتفت إليـــه أحد : إن ٩٠٪ من سكان هذا الوطن لا يزالون يعيشون حتى الآن بقيم ومعايير مذهبيـــة ، أقصد أن هؤلاء التسعين فى المائة كلهم قرويون ، بالإضافة إلى طبقات الحرفيين فى المدينة وأهل السوق وصغار الموظفين والمجموعة التى تشكل الطبقتين الثالثة والرابعة فى الدولة . وهذه الطبقات بالنسبة لفقرها تستطيع فحسب أن تتحمل حياتها بالاستناد على معتقداتها المذهبيـــة ، ولأنها لم تجد سعادتها اليوم ، فهى تبحث عنها فى السماء وفى الدين وفى الآخرة ، ومـا أسـعـد حـالهم !! أحـيـانا يشـربون العـرقى لكنهم يتمضمضون ويقفون للصلاة ويتوبون فى شهر رمضـــــان ، ويقدمون الأضحيات لإمامزاده داود . وفلان القروى بمجرد أن يرتفع محصوله من سبعة مكاييل إلى عشرة ، يأخذ بأيدى أهله وعياله ويذهب لزيارة مشهد أو على الأقل قم ، وإذا كانت العلاقات طيبة مع الجيران يذهب إلى كربلاء ، وبمجرد الاستطاعة يذهب إلى مكة . وكلهم ينتظرون إمام الزمان ، وكلنا ننتظر ، والحق معنا ، الفرق أن كلا ينتظر بطريقته ، لأنه لا توجد حكومة قط من الحكومات العاجلة قد نهضت للوفاء بأقل وعد وعدت به أو عهد تعهدت به ، ولما كان الظلم وأكل الحقوق والاختناق والتفرقة أمورا قائمة ، فإننا لنفس

---

(١) فى الفترة ما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية لهذا الكتاب ، جرت أحداث وأحداث فى هذا البلد ، منها منح الحرية الإسمية لصاحبات العصمة ، حتى فى مجلسى أراجوزات الشيوخ والنواب يشترك النسوة أيضا ، لكن هذا المنح للحرية فى حكم حك الأبواب والجدران بالجير فى طريق عبور الملك ، أجوف ، مجرد كلام ، مجرد مظهرية ، وأيضا لخداع السياسات الخارجية ، ومع كل هذا ألا تظنون أنهم حطموا ســـدا ؟!

هذه الأسباب نقيم فى ١٥شعبان [١] احتفالا يموت منه النوروز حسدا ، وبناء على نفس هذه العقيدة فإن ٩٠٪ من الأهالى الغيورين فى هذا البلد يعتبرون الحكومة من عمال الظلمة ، وغاصبين لحق إمام الزمان " صاحب الجلالة ولى العصر عجل الله تعالى فرجه "، ومن ثم فلا حق عليهم فى دفع الضرائب ، ويخدعون مندوب الدولة ، ويتهربون بألف حجة من التجنيد الإجبارى ، ولا يقدمون معلومات صحيحة إلى أى إحصـــاء . وبالرغم من أن الصحف مليئة بالتهانى من أهل " مزلقان چاى" لموظف السجل المدنى الذى وصل حديثـــا ، إلا أنه لا يوجد أحد من الأهالى الغيورين فى نفس البلد يعرف جهازا يسمى الحكومة ، اللهم إلا الجاندرمه والترانزيستور ، ولا يزال هناك مثل سائر يقال فى بو شهر وبندر عباس هو " لا يجب النوم تحت جدار العجم " . [٢] والمقصود بالعجم الحكومة .. الموظف الذى يأتى من طهران ، أى لا ينبغى على أحد أن يكون فى خدمة الحكومة ، ولا ينبغى أن يثق فى موظفها أو مؤسساتها ، ولنفس هذا السبب فإن كل المؤسسات المذهبية : من السبيل أسفل الممر ، والمسجد على رأس الحارة ، إلى موضع الزيارة خارج البلد ، كلها مغطاة بهذه المظاهر المختلفة لعدم الثقة فى الحكومة وفى أعمالها ، وكلها مملوءة بالإشارات إلى انتظار فرج المهدى الموعود صاحب الجلالة ولى العصر الذى ندعو بصدق قائلين : عجل الله فرجه على ألسنة الناس وفى اللافتات على الجدران ، وعلى ألسنة الوعاظ ، وفى الصلاة والأذان والتضرع ، وفى قصائد الشعر ، فى المظاهر الواسعة لاحتفالات النصف من شعبان ، وعلى بطاقات الدعوة إلى حفلات العرس . فى كل مكان نعيش فى ظل توجيهات ولى العصر . .كل هذا صحيح . بينما – ومن أجل نفس هؤلاء الناس – تقوم الحكومة بمؤسساتها ومدارسها وثكناتها وإداراتها وسجونها ومزامير أذاعتها وأبواقها تبشر بالحكومة القومية ، وتعزف من أجل نفسها لحنا آخر ، ومن نفس هؤلاء الناس تطلب الضرائب بالإلحاح الشديد ، وبالقوة تأخذ الجنود منهم ، وفى كل مكان تربى آكلا

---

(١) المترجم : ذكرى مولد الإمام الحجة المنتظر إمام الزمان محمد بن الحسن العسكرى ، المهدى الموعود عند الشيعة الإثنى عشرية .

(٢) نقل شفوى عن صديقى العزيز اسماعيل رائين وهو من أهالى هذه المنطقة .

للرشوة ، وسفاراتها أكثر السفارات فســادا، وهى تدعو لصاحب جلالة آخر ، وتصم آذان الفلك من الحديث عن مفاخر آلاف آلاف السنين المتزايدة ، ودائما ما توجه مدافعها وبنادقها إلى وجوه الناس . ومن نفس هذا التناقض ، فإن كل طفل فى المدرسة الابتدائية بمجرد أن يحفظ النشيد الشاهنشاهى على أنه النشيد الوطنى ، تضيع الصلاة من ذاكرته ، وبمجرد أن يصل إلى السنة السادسة الابتدائيـــة يفر من المسجد ، وبمجرد أن يذهب إلى السينما يضع الدين فى زاوية النسيـــان ، ومن هنا فإن ٩٠٪ ممن دخلوا المدرسة الثانوية عندنا لا دينيون ، لا .. ليسوا لادينيين .. لكن فى حالة من عدم الإهتمام بالدين أصلا ، وهم معلقون فى الفضـــاء ، لا تستقر أقدامهم على أى شيء ، فلا يقين قط ولا إيمان قط ، عندما يرون أن الحكومة بكل فيهقتها ومؤسساتها وميزانيتها والمساعدات الخارجية التى تتلقاها والمدافع والدبابات التى تملكها ، ليست قادرة على حل أتفه مشكلة إجتماعيـــة وهى بطالة حملة الشهادة الثانوية ، وفى نفس الوقت يرون كيف أن عقيدة دينيـــة قديمة تعطى كل هذا الملجأ والملاذ بالنسبة للعجزة والمساكين والفقراء ، وكم يفرحون فى الخامس عشر من شعبان ، وكم يقضون أوقاتا سعيدة ، ومن هنا يحارون ويعجزون ... الراديو تحت أننه ينفث السحر دائما ، والسينما تفتح أمام عينيه عوالم الجان .. لكن هناك هذا الواقع أيضـــا : واقع محتوى الإيمـــان الدينى ، وإلا فإلى أى مدى يمكن أن يفكــر ويآكل من نفسه ؟ أو يهتم بكشف الحقيقة ؟ ولماذا لا يترك كل هذه الأمور ويصير مثل الآخرين ويتلون بلون الجماعة ؟ إذن لنمض ، ولنصبح جميعا لا مبالين ، فلا دين عندنا ولا إلحاد عندنا ، ولا حياة لنا ، ولا مستقبل لنا .. اغتنم اللحظـــــة !!(١)

وفى نطاق التعليم، من المشهور والجميع يعلمون ذلك ، أن مدارسنا تصنع الموظفين أو تخرج حملة الشهادات المتوسطة العاطلين ، ولا مجال للمناقشة هنا ، لكن ما هو أكثر أساسيـــة ولم يُقل بعد ، أن مدارسنا تصنع المتغرب ، تصنع رجالا كأنهم

---

(١) كان خليل ملكى أول من انتبه منا إلى إنعدام الملامح عند الشباب . إنظر إلى مجلة " مهرگان " الأسبوعية سنوات ٣٢و٣٣و٣٤ ، وفيما بعد مجلة " علم وزندگى" عامى ٢٨و٢٩فى مقالات متكررة تحت نفس العناوين .

نقش على ماء ، تخرج أرضيات مستعدة لقبول التغرب ، وهذه هي أعظم مخاطر مدارسنا وثقافتنا ، وسوف أتحدث في فصل مستقل عن سمات هذا الإنسان الذي يتخرج من مصانع صنع المتغرب عندنا ، لكن ما ينبغي أن أنكر به أنه خلافا لرأي مؤرخينا ذوي اللحى والشوارب ، فإن حركات الشعوبية السياسية والمذهبية لم توصلنا إلى شيء قط ، وأقصد الحركات المغالية في القومية أو في المذهب ، وإن كانت قد وصلت إلى شيء ، فقد وضعت حجراً في بناء وصلوا به في العصر الصفوي إلى شرفاته فحسب ، أي كان في ذلك الزمان أن دخلت الحكومة القومية والدين ، أو السلطنة والهيئة الدينية في خرقة واحدة ، وكل منهما أخرج يده من أحد كميها . وفي بدايات هذا الكتاب أشرت إلى النتائج التاريخية والعامة لهذا التكاتف ، ولتذكروا بينكم وبين أنفسكم أننا كنا في نفس هذا الوضع في العصر الساساني ، وانتهى بحركتي ماني ومزدك ثم بظهور الإسلام ، أما اليوم وقد تمزقت تلك الخرقة الواحدة ، ولكل واحد من هذين المتنافسين تشكيلاته وسلاحه وتقاليده ورسومه الخاصة ، فقد صارت أمورنا أكثر خرابا من هذين العصرين ، فقد أدى الفراق بين الدين ومنافسه الأصلي إلى أن حكوماتنا - إستنادا على التغرب وإصرارا على التشبه بالغرباء - تخطو في هذا الطريق خطوات أكثر في كل يوم ، هذا الطريق الذي ليس له من نهاية إلا البوار والإنحطاط والإفلاس . ومن ناحية أخرى فإن المذهب بكل مؤسساته وأدبياته يستند بقدر ما يستطيع على الخرافات ، ويلجأ إلى العهود الماضية والتقاليد المهترئة القديمة ، وفي القرن العشرين يفكر بمعايير القرون الوسطى ، وفي هذه الأيام بنفس القدر الذي تقوم به الحكومة الوطنية من أجل تثبيت نفسها بالتعلق بأذيال الغرب ، فإن الحكومة الداخلية المذهبية قد وقفت في الناحية المقابلة ، ومن أجل دوامها تنظر أكثر وأكثر إلى الوراء وتميل إليه .(١) وفي الأصل عندما ترى الحكومة أن ٩٠٪ من الأهالي لا يعطون آذانا لتعاويذها ،

---

(١) في المجادلات الأذاعية للشاه مع أئمة الدين " أسفند٤١ - فروردين ٤٢" ظهرت صحة إدعاء هذه النبوءة ، وحتى بعدها في مذبحة خرداد سنة ١٣٤٢الرهيبة التي سماها راديو موسكو قمع إنتفاضة رجعية ، وأبدى السرور .

ويهنئون بعضهم البعض فرحين بذكرى ميلاد صاحب الجلالة ولى العصر ، أى عندما ترى أن المذهب قد أغتصب ألقابها الرسميـــة ولا يقبلها ، وبهذه المناسبة عندما ترى ما تحت قدمها واهيـــا ورخوا ، تلقى بنفســـها فى أحضــــان الغرب ، وتعتمد على مساعداته العسكرية ، على المدافع والدبابات المهداة من أمريكا ، على الصحافة الأوربية .. على صحفها ومراسليها وعلى رجال السياسة فيها ، ربما يزداد عمرها يوما أو يومين ، وهكذا تقوم حكوماتنا بالدعاية للحكومة القومية بينما تقمع فى الخفاء الحكومة الخفيـــة المذهبيـــة .[1] ومن أجل التغرير بالناس ترفع دعوى إستعادة البحرين ، بينما بقيت دعوى هيرمند وشط العرب بلا حل منذ مائتى سنة .. وهذا كله فى أى عهد ؟ فى العهد الذى قلت عنه أن الآلة تتطلب عدم وجود حدود ، وتحطيم كل الأبواب والسدود ، وتتطلب تدويل كل شيء وكل مكان ، تتطلب أسواقا مشتركة وحدودا مفتوحة وجمارك مغلقة وفى يدها راية الأمم المتحدة ، وتنطلق إلى حيثما تمد ببنزين الشركات ، ونحن ثانية فى عصر وضعنا فيه رؤوسنا فى جيب ثوب الحكومة القومية ، وحدودنا المشتركة مع جيراننا اللاصقين أطول من سور الصين وأكثر سمكا منه ، ودائما ما نحن فى خصام مع العراقيين والباكستانيين والأفغان والروس ، وكل منا لا علم له بأحوال الآخر ، بينما تضرب الآلة العظمى لشركات استخراج الماس والنحاس فى قلب كاتانجا همرشلد بالرصاص وهو فى الجو !! وفى مثل هذا العصر نريد نحن مع هذه المدارس وهذا النشيد القومى وجهاز الأمن هذا وهذه المساعدات الأجنبية وهؤلاء الرجال المصنوعين من المقوى ، نريد أن ندعو إلى الحكومة القومية ، فى مثل هذه الأيام التى تحدد فيها الحدود فى كل أنحاء العالم حدود الشركات المختلفة فحسب

---

(١) ومن التاريخ المذكر آنفا "١٥خرداد١٣٤٢" تقوم بقمعها علنا فى حين أن السلطنة والمذهب كليهما من تذكارات القرون الماضية ، وعلى كل حال لاتوجد مؤسستان تحتاج كل منهما إلى الأخرى مثلهما ، والمهم أن المواجهة بين هذين المتنافسين صارت مرة ثانية علنية بعد ثلاثمائة سنة من تجاهل الخلافات فيما بينهما ، ومن المسلم به أن هذا يمثل بداية مرحلة أخرى ، مرحلة سوف تنتشر فيها الثقافة ويتسع تحررالفكر ويأخذان الدور من هذين المتنافسين ، وهذه المواجهة التى انتهت فى عهد ميرزا الشيرازى باغتيال الشاه ، وفى فترة الدستور بخلع محمد على شاه وتغيير النظام .. إلام ستنتهى اليوم ؟ جواب هذا السؤال عند المفكرين . المترجم : إنتهت بكسب الهيئة الدينية لجولة فى "١٣٥٧" "١٩٧٨" .

، بحيث يكون حتى هذا المكان لجنرال موتورز ، وحتى ذلك المكان لسوكونى فاكوم ، وحتى المكان الآخر لشل أو بريتش بتروليوم ، ومن هنا إلى هنا لبان أمريكان أو " آجيب مينراريا " . فى هذه الأيام ، أصبحت الأمم واللغات والأجناس والمذاهب ، إن لم تكن ألعوبة بين أيدى المستشرقين - وسوف أتناول موضوعهم ، فهى على الأقل موضوعات مختبرات بالنسبة للعلماء والباحثين [1] ، ومن أجل هذه القضايا ، لا يلجأ أحد فى القرن العشرين إلى التلويح بالقوة ، لكن إذا كنا أنا والأفغانى لا يعرف كلانا شيئا عن الآخر برغم إشتراكنا فى الدين واللغة والعرق ، وإذا كان التردد على الهند والعراق أصعب من النفاذ خلف الستار الحديدى ، وذلك بسبب أننا منطقة نفوذ هذه الشركة ، والأفغان منطقة نفوذ أخرى . فى مثل هذه الأيام نشكل نحن حدودا قوميـــة مغلقـــة إلى أبعد الحدود وتقاليد عرقية بأكثر ما نستطيع ، وأنواعا من الغرور المغرقة فى القدم نأخذها بكل جدية ، وحلالا وحراما مذهبيين نافذى الأمر إلى أقصى درجة ، غياية الجب الأكثر عمقا للشعوب والبشـــر ، وإلا : أى حدود وبلاد تعرفها غير قابلة للنفاذ أمام البيبسى كولا ؟ أو فى مواجهة تردد سماسرة النفط ؟ أو فى مواجهـــة فيلم لبريجيت باردو ؟ أو أمام مهربى الهيروين ؟ أو فى مواجهة المستشرقين المربين وهم السماسرة الرسميـــون للإستعمـــار ؟ والنموذج الأسمى لهذه الحدود أى أكثرها عريا وأكثرها توحدا بين الظاهر والباطن ، يمكن أن تطلبه اليوم فى افريقيـــا . كانت هناك أيام سيطرت فيها فرنسا على الكاميرون وتشاد والصحراء الوسطى فى نقاط ثلاثة مختلفة من أفريقيـــا ، وللإنجليز بجوار كل ولاية من هذه الولايات ولاية أخرى ، واليوم وقد ذهب الإنجليز والفرنسيـــون ، وبرزت الدول الأفريقية المستقلة ، تركت كل منها حدودها تماما على نفس النقطة التى كانت حدود مستعمرات الدولـــة الأجنبية ، وما أكثر الأقوام والأجناس والمذاهب الأفريقية التى تشرذمت بهذا الأسلوب ، ومزقت شر ممزق بين الدول المستقلـــة الأفريقيـــة .. دعنا

(١) أطلس علم اللغة فى إيران وأفغانستان يقوم الآن إثنان أو ثلاثة من الجامعيين فى السويد بإعداده . خبر جيد أو غير جيد ؟ على كل حال ما يخص الأفغان قد تم ، لكن ما يخص ايران لم يتم بعد ، لأسباب لا مجال هنا لذكرهـــا .

من هذا . ربما كان من أجلنا كلنا ، أنه فى النضال الوطنى لتأميم النفط ، فإن أئمة القوم من ذلك الجناح الدينى ، أى من الحكومة الخفية للدين ، أحسنوا إستغلال هذا لنفع أهداف النضـــال .. لأتحدث بشكل مستور : كان قادة تلك الفترة يقرون أنه بترتيب أمور النضال بشكل يمكن مع مساعدة أئمة الدين ، يستطيع كل عامى لم يذهب إلى المدرسة أن يرى عمال الظلمة فى جسد الحكومة التى تعطى النفط للشركة ، وتوجه البنادق إلى الجماهير ، وهذا هو أعظم درس يمكن أن يتعلمه المفكرون المستتيرون والقادة من هذه الواقعـــة .(١)

وكآخر تناقض ناتج عن الإبتلاء بالتغرب وأشدها خطراً ، أتحدث عنه أيضـــا على المستور تماما . إننا نقع فى نقطة من العالم ، تحدث أعلى آذاننا تماما أحداث جســـام ، نظل نحن اضطرارا غير عالمين بها ، وعلينا أيضـــا أن نضطر إلى عدم التأثـــر بها ، وإذا تأثرنا فليكن هذا فى الظاهر فحسب من أجل تأجيل الواقعة ، فى حين أن كوبا وهى على بعد حوالى ثلاثين كيلومتر من أمريكا نفسها تتقبل تأثيرات من هذه الأحداث ، ويبقى الوضـــع هادئا تماما ، وربما بسبب أن حصار حدودنا ضخم إلى هذا الحد ، وأن حكوماتنا دون أن تنتبه إلى الحكومة الباطنيـــة المذهبية " وهى فى حد ذاتها حصار داخل ذلك الحصار وحكومة داخل حكومة" ، وهى تزيد يوما بعد يوم فى قطر هذا الحصار باستنادها على الغرب وإصرارها على عبودية أكثر للغرب ، وربما تتصور أن الوسيلة الوحيدة فى مواجهة مثل هذا الخطر المجاور هو الإلتجاء إلى

---

(١) أريد مرة أخرى أن أستعين بريتيه جروسيه الباحث الفرنسى ، ومن نفس الكتاب أى " وجه آسيا " ص ١٣٢(فى الحركة التى قامت بها إيران ضد شركات النفط ، أثارت فى وقت واحد تأييد أفغانستان وباكستـــان وجامعة الدول العربية ، وهذه هى المرة الأولى التى ينضم فيها التشيـــع الإيرانى إلى وحدة إسلاميـــة ، وكان على مر القرون مثل سد يحول دون تعاون الدول الإسلامية . لماذا ؟ لأن ذلك الزمان الذى اضطر فيه ملوك الصفوية حماة المذهب الشيعى إلى التحالف مع أوربا ضد السلطان العثمانى خليفة أهل السنة قد مضى) وأنا أقول أى أنهم تعرضوا لعملية نصب وتهديد من أوربا . على كل حال هل هذا خبر طيب بالنسبة لنا آسيويى الشرق الأوسط ؟ أو إعلان خطر لكنسرسيوم النفط الذى لا يملك الفرنسيون فيه أسهما كثيرة ؟ مهما كان من أمر ، فذلك الذى تركته أنا مستورا أكثر من مرة ، تحدث عنه هذا الأستاذ بصراحة أكثر قليلا .

شرنقة ألوان التعصب والجمود والغفلة وأحقاد العصور الوسطى ، وفى حين أن مصير الحكومات والأعلام والحدود فى العالم يتحدد اليوم على مائدة مباحثات الدول العظمى، أما حكوماتنا فقد قنعت فحسب بأن تكون حارسة حدود الشركات ، ومن هنا ولنفس هذا السبب ، ففى أن حكوماتنا تقوم بقمع الدين واللجوء إلى اللادينية والتفرنج ، لما كانت تحتاج أيضـــا إلى خداع العوام ، فإنها أيضـــا تتعامل فى الأعم مع الدين والهيئة الدينية معاملة تجاهل العارف ، بل وتغازل غزلا لا يصل إلى نتيجة مع الهيئة الدينية وشخصياتها ، وهذه هى كلها حركات المذبوح ، ونحن إن لم نقم إزاء هذه الأحداث العظيمة بهز أنفسنـــا من الداخل ، ولا نعالج هذه الخلافات الكيفية من جهة ما ، وكثيرا ما يحدث أن نقوى حدودنا وثغورنا القوميـــة ، وكثيرا أيضا ما يحدث بخداع الأوساط الدينية أن نقوم بالحيلولة دون عالم المذهب من أن يفتت هذا الحصار من الداخل ، وفى النهاية سيحدث ذات يوم بناء على قانون يعرفه الأطفال هو قانون الظروف المساعدة أو المحيطة ، أن مستوى الماء سوف يرتفع من هذا السرداب ، وسوف يجرف السيل كل قصورنا الواهيـــة ، ليس الحديث عن التهديد والتخويف ، فقد ذكرت فى بداية هذا الكتاب إلى أين إنتقل مركز هذا التخويف والتهديد . الحديث عن التناسق مع المجتمعات الإنسانيـــة المتقدمة . وإعذرونى إذا كنت أتحدث على المستـــــور .

٨-السبيل إلى حل الطلســـم

نحن الآن نقف كأمة ناميـــة فى مواجهة الآلة والتقنيـــة . ولا محيص لنا من ذلك ، أى أننا إستسلمنا للقول المأثور " كل ما يأتى به الله خيـــر" ، فما الذى ينبغى علينا فعله ؟ هل ينبغى علينـــا أن نبقى على ما كنا عليه مجرد مستهلكين ؟ أو ينبغى علينـــا أن نغلق أبواب الحياة فى وجه الآلة والتكنولوجيـــا ونمضى هاربين إلى قاع رسومنا العتيقـــة وتقاليدنا القوميـــة والدينيـــة ؟ أو أن هناك طريقـــا ثالثا أمامنا ؟ لنتناول هذه الأسئلـــة الثلاثـــة واحدا واحدا .

والبقـــاء مجرد مستهلكين للآلـــة ، والإستسلام التام لقدر القرن العشرين ، هو الطريق الذى قطعناه حتى الآن ، الطريق الذى إنتهى بنا إلى ما نحن فيـــه .. عصر الإبتلاء بالتغرب ، عصر إنتظار الغرب وأيدينا على أفواهنا ، لكى يأتى وكل بضعة سنوات يقدم إعتماداً أو مساعدة لنشترى مصنوعاتهم أو نشترى من جديد الآلات التى إستهلكت . حقيقة أن هذا الطريق سهل ، وتمخض عن كثير من أنواع الكسل والتنبلة وعدم الكفاءة والبطالة ، ولو كان هذا الطريق يفضى إلى نتيجة ، لما كانت هناك كل هذه الفوضى فى أعمالنا ، ولما كان كل خطر الإفلاس القائم هذا ، وعلى الأقل لما كان هناك داع لكتابة هذه الأوراق .

أما أن نهرب داخل شرانقنا ، فلم توجد حشرة فعلت هذا ، ونحن على كل حال أمة نخطو فى طريق التطور ، وإذا كنا قد ابتلينـــا بمثل هذا الإضطراب فى معايير الحياة والفكر ، فذلك لأننا آخذون فى تمزيق الجلود القديمة من أجسادنا ، وكأننا ونحن مشغولون بقراءة إذن الدخول ، أصاب الخوف من قرب الآلة أجسادنا بالرعدة هكذا ، ولنفرض أن الأمر ليس هكذا ، وبقينا كذلك فى أسار التقاليد متعصبين لها ، وعدنا إلى وسائل الحياة البدائيـــة – وأغلب أهل الريف عندنا على هذا الحال – ألايحدث أنه إنصياعا إلى حتمية السياسة والإقتصاد وإرتباط المصالح مع الجماعات البشرية الأخرى ، نكون قد تركنا نصف أراضى الدولة تقع تحت سيطرة فؤوس وحفارات الشركات الأجنبيـــة ؟ وذلك من أجل أن يأتوا ويفحصوا ويحفروا ويستخرجوا ويأخذوا؟ فإلى متى يمكن الجلوس على جانب الطريق ومشاهدة القوافل ؟ أو على

شاطىء النهر ومشاهدة مرور العمر ؟ حتى أشد الناس تعصبا قد إستسلموا لتطور الآلة ، إذن فطريق العودة أو التوقف مغلق أيضـــا .

أما الطريق الثالث – ولا محيص عنه – فهو حبس روح شيطـــان الآلة هذا فى الزجاجـة ، هو السيطرة عليه ، ووضع أحمالنا عليه وإستغلاله كدابة . ومن الطبيعى أن الآلة بالنسبـــة لنا هى منصة إنطلاق نقف عليها وبقدرة " سوستها " ننطلق إلى أبعد ما يمكن . ينبغى أن نصنع الآلة ونتملكها ، ولا ينبغى أن نبقى فى أسارها ، ولا ينبغى أن نصبح ضحاياها . الآلة وسيلـــة وليست هدفـــا . والهدف هو القضـــاء على الفقر ، وتيسير الرفاهيـــة المادية والمعنويـــة للخلق .

عندما كنا نمتطى الجياد ، كان لدينا المراعى والمراتع ، كلها جميلة خضراء وربيعها دائم ، وكنا نربى فيها أجمل الجياد من أعرق الأصول ، وكانت لدينا المياسم نسم بها الجياد بميسم الإمتلاك والإستيلاء البشـــرى ، وكان لدينا الإصطبلات لتستريح فيها الجياد وتنمو وتتوالد ، وكان لدينا محطات القوافل لنغير فيها مطايانا ، ولدينا مسابقات السباق والرمايـــة لكى تتدرب عضلات الحيوان . وهل الآلة شيء غير الجواد ؟ وألم تدربها أيدى بشرية من أجل خدمـتـهـــا ؟ وألم تكن لنا أيدى فى إستيلاد الجواد والتشكل الأصلى لهيكلـــه نحن أبناء البشـــر ؟ وفى جنين الآلة خبأ البشر أنفسهم فى الإسطوانات والبساتم . ومن هنا يلزمنا فى البدايـــة إقتصاد جديد بصنع الآلـــة وإستخدامها ، أى إقتصـــاد مستقل ، ومن بعدها تعليم وفصول وأسلوب ، ثم أفران لجعل المعدن لينـــا وتهيئته لدور الإرادة البشريـــة ، ثم العمال المتخصصون الذين يشكلـــون هذه المعادن فى صور مختلفة ، ثم المدارس التى تعلم هذه التخصصات عمليـــا ، ثم المصانع التى تحول هذه المعادن إلى آلات ومصنوعات أخرى ، ثم سوق فى المدن والقرى حتى نجعل الآلـــة فى متناول أيدى الناس .

لا تطلبوا منى بعد أن أدخل فى التفصيلات ، فلست أهلا لهذا العمل ، ولا هذه الصفحات مسئولة عن هذا العمل .. من أجل السيطرة على الآلة ينبغى صنعها ، فما صنعته أيد أخرى – حتى إذا كان تعويذة أو طلســم لمنع الحســد – يحمل معه بالطبع شيئا من المجهولات ومن عوالم الغيب ، من العوالم المخيفة الخارجة عن عالم

البشـــر ، وهناك سر مخفى فيـــه ، ومن لديه هذا الطلســم لا يكون مالكا له ، بل يكون مملوكا له إلى حد ما ، وذلك لأنه يعيش فى ظل حمايته ويلجأ إليـــه ، ويكون دائما فى خوف ورعب خشية أن يكون قد أبدى عدم إحترام للطلسم ، وخشية أن تكون السماء قد رأت لونه أو أن يكون أحد قد داس عليـــه ، لكن نفس الطفل الذى علقت عليه هذه التعويذة عندما يكبر ، وعلى سبيل الفضول يفتحها ذات يوم ، ورأى أى شيء تكون ، وعلى الخصوص إذا استطاع أن يقرأ ما هو مكتوب على الورقة المزيتة من مثلثات ومربعات ونجوم وكلمات " يا قدوس ويا بدوح " ، وإذا فهم معنى الكلمات ومفهوم الأعداد أو على الأصح إنعدام المفهوم والمعنى فيها ، هل سيبقى إحترام لها أو خوف ورعب منها فى قلبه ؟ والآلة نوع من الطلاسم بالنسبـــة لنا نحن المبتلين بالتغرب ، نلوذ بظل حمايتها ، ونصون أنفسنـــا فى حماها من شر آفات الدهر ، غافلين عن أنها مجرد طلســم علقه الآخرون على صدورنا لتخويفنا وحلبنـــا . لنكن فضوليين ، ولنكبر قليلا ، ولنفتح هذا الطلسم فى النهايـــة ، ولنحصـــل على ســره .

ولا جدال أنه من الممكن أن يســأل أحدهم : إذا كان الأمر بهذه البساطـــة ، فلماذا لم يصل حتى الآن إلى أذهان عقلاء القوم ؟ وإذا كان قد عن لهم ، لماذا لم ينقل حل هذا الطلسم من حيز الفكر إلى حيز العمل حتى الآن ؟ وجوابا على هذا السؤال ، أكتفى ببيان سببين ، وخمنوا أنتم بقية الأسباب .

السبب الأول أن هذا الرعب والتقديس لا يزالان موجودين فى قلوبنا ، ونحن نعلم أن أصل " الحرام" و" التحريم " هو " الحرمة " و" الإحترام " ، والرعب من الآلة يشبه تماما الرعب من الطلسم ، وإذا كان من لمس الطلسم وفتحه حراما بالنسبة لنا ، فحرام أيضا تتبع سر الآلة ومعرفتها . ويعلم الله أن نفس هذا الرعب هو نتيجة للابتلاء بالتغرب وسبب أيضا من أسبابه ، نحن مبتلون فحسب بهذا الرعب الناتج عن التقديس . تماما مثل قضية هل كانت الدجاجة أولا أو كانت البيضة أولا . دعنا من هذا .. ولنتحدث مفترضين أننا نعيش الآن فى عهد الأربعين حرامى فى بغداد ، قد وقفنا خلف جدار ورأينا من شق فى الباب أن اللصوص قد أتوا ، وقرأوا تعويذة أو وردا وكرروها

ثلاث مرات وإنفتح الجدار كأنه باب ، وباب بعد باب ، وكم من الكنوز المخبوءة !! ولكن حتى الآن فإن أعظم همة قمنـــا بها أننا قلدنا أسلوب قراءة اللصوص للتعويذة . لقد تعلمنا التعويذة بمشقة ، وأخذنا نكررها كالببغـــاء ، وإنفتح الجدار ، لكن الماكرين كانوا قد أخذوا الكنز الذى كان موجودا خلف الجدار !! وإذا تركنا وسواس ذلك الكنز وتلك التعويذة ، وفكرنا فحسب فى موضوع السبب فى أن الجدار ينحسر ، وسعينــا لكى ندرك سر حركة ذلك الباب وكيفية تأثير تلك التعويذة ، نكون آنذاك قد عرفنا الأسلوب العلمى ، وصرنا جديرين بكشف طلسم الآلـــة .

ووضعنا بالفعل على هذا النسق : إننا نستخدم الآلة من الصباح إلى المســاء ، بل ونطبخ فيها غذاءنا اليومى ، لكننا تماما مثل ذلك الطفل الذى تضع أمه قدرا فى رأسها ، وتخوفه على أنها " عفريت " ، نخاف من الآلة ، ونظنها " العفريت ابو قدر" وهو مكون من نفس القدر الذى نطبخ فيه طعام الطفل اليومى ، ونفس تلك الأم التى يعد حضنها الدافىء ملاذه .. وإزاء هذا الرعب ، فإن أكثر طلابنا فى أوربا إما يدرسون الطب أو علم النفس أو غيره من العلوم الإنسانيــــة ، أو بسبب عدم وجود أرضيـــة فى بلدنا لطلب التقنية ، كم لدينا من المهندسين الزراعيين الذين يعملون الآن مثمنى أراضى فى بنك الرهونات ، وكم لدينا من الكيميائيين يشتغلون مديرى عموم ، وكم لدينا من خبراء المعادن يشتغلون مقاولين . حقيقة أننا فى مدارسنـــا نتعب أفكار أولاد الناس وأذهانهم بالقواعد والمعادلات الفيزيائيـــة والكيميائية والرياضيــــة ، وألغينا الفلسفة والآداب وعلم الأخلاق على وجه التقريب من برنامج كل المدارس الثانويــــة والجامعات ، وصار مخ كل من دخل مدرســـة جعبة من القواعد والقوانين والمعادلات الرياضيـــة .. لكن ما النتيجــــة ؟ لأنه لا توجد أية تجربة معينة بعد الفرضيات والمعادلات ، ولم نحول الفكر إلى عمل فى أى مختبر من أجل التلاميذ ، وما زلنا مضطرين إلى الذهاب فى طلب المختبر الأوربى من أجل تقييم أى حجر أو تراب أو قطعة من القار . كذا !! نحن الذين كنا فى الفنون المحلية : فى نسج السجاد وصناعة القيشانى والتطعيم والمنمنمات فى غاية الدقة إلى هذا الحد وما زلنا أيضا ، ومما يثير الدهشـــة لماذا نحن مهملون إلى هذا الحد فى أمور الآلـــة ؟ وألا تظنون

أن هذا الإهمال فى أمور التقنيــة والآلــة والصناعات الجديدة يعد نتيجة لثقتنا فى دوام عـمل آبار النفط عندنا ؟ وأن الآلـــة لا بد وأن تأتى فى مــقــابل ثمن النفط وبضمانه ؟ والأطرف من هذا كله أننى سمـعت أن هناك من زعماء القوم من يقومون بتدبيج النظريات حول هذا الأمر .. قائلين : أجــل (والآن ونحن دولة منتجـــة للنفط ، والأوربى فى مقابل هذا النفط يعطينـــا كل شيء من لبن العصفور إلى روح الإنســان على طبق الإخلاص ، لماذا نوجع رؤوسنــا بصداع بناء المصانع والصناعة الثقيلــة ومشاغلها من تربية لمتخصصين وتحمل لعدم جودة المصنوعات فى البداية والتعقيدات الناتجة عن الخلافات بين العامل ورب العمل ، والتأمينات والمعاشـــات ... إلخ)؟!! وفى الحقيقة فنحن بالفعل نطبق الأمر هكذا ، وهذه النظرية الجديدة جدا هى منذ سنوات أساس العمل فى هذه البلاد ، وهى نفسها إحدى علل إبتلائنـــا بالتغرب ، أو واحـدة من نتـائجـها الأسـاسيـــة .. ثانية نفس حكاية هل البـيضـــة أولا أو الدجاجــة .

ثم إننا إذا كنا فى أمور الفنون الجميلة القومية والمحلية نتميز بالدقة ، ولسنا هكذا فى شئون الآلـــة ، فلأنه فى هذه الأمور ، وإن تم الأمر بشكل شفوى ، إلا أن الآباء كـانوا يعلمــون أبناءهم فنا من الفنون على مــدى سنوات ، وتظل التلمــذة والأستاذيــة لسنوات ، والتربية المهنية والعمليــة والنظرية إلى حد التربية فى الفنون الجميلة فى حد ذاتها ، وجدت تقاليدها وأسست أصولها وفروعها ، وترجع إلى عمق السنين . لكن الآلة القادمة إلينا من بعيد ، لا تقاليد عندها ، ولا توجد تربية أو فصول بالنسبة لها ، ولم تحدد مراتب أستاذيتها والتلمذة فيها حتى الآن . وفى مثل هذا الوضع يبدو معقولا أننا إذا بنينا سدا كبيرا ، أو اشتعلت النار فى آبار نفطنـــا " أى آبار نفطهم " نتوسل بفلان الخبير الأجنبى فهو مجرب فى العمل ، وعنده خبرة فيه أكثر منــا . لكن ما يدعو إلى الأسف أننا لا نتوسل بالخبير الأجنبى فى هذا النوع من المجالات الإستثنائيــة فحسب ، بل وفى كثير من الأعمال الأخرى أيضـــا ، واليوم من أجل إنشــاء مصنع للسكر أو الأسمنت أو المنسوجات أو الغزل أو مفارش البلاستيك ، لا نقوم فحسب بإستيراد الآلة بالتمام والكمال من أوربا وأمريكا ، بل ووراء الآلة قائمة طويلة عريضــة من الأوربيين من العامل العادى وحتى المهندس

والباشمهندس ، وذلك بمرتبات هائلـــة تصل إلى أرقـــام فلكيـــة ، ونستقبلهم لمدة ثلاث أو أربع أو حتى عشر سنوات فى منطقـــة كذا ليتكاثروا ويكثروا ، حتى تشتعل أفران الأسمنت أو تبيض عجينة السكر ، أو تتم خيوط الغزل والصـــوف . ومما لاشك فيه أننا لو تميزنا بالدقة لما عجبنا من هذا الأمر ، لأنه ليس لدينـــا من يحل محل هؤلاء السادة ، وإن كان لدينـــا ، فلا فائدة ، لأن هؤلاء الذين يبيعون لنا المصنع ، وضعوا فى عقود البيع بندا فحواه أنهم يضمنون فحسب صحة عمل الآلة فى حالة ما إذا قام خبراؤهم بتركيب الماكينات والإنتـــاج .. أجل ، هذه هى حتمية الإقتصـــاد المتخلف المتغرب .. وإذا كنت أنت نفسك تستطيـــع أن تعرف جيـدا ، فخذ وإعزف ، إصنعه بنفسك حتى تركيبه بنفسك ، وأنا الصانع ينبغى أن أفيد خبيرى وراء الآلة برحلة إلى الجنوب والدفء النزهة ، لتجربة جديدة بيد أكثر كرما وأفق أكثر إتســـاعًا فى هذا العالم المستهلك للآلـــــة .

وأما السبب الثانى ، وهو أيضـا ناتج عن السبب الأول أو مكمل له ، أنه ما دمنـــا مشترين للمصنوعات الغربية ، فإن البائع لن يستطيع التفريط فى هذا المشترى المطيـــع ، وطالما نحن فى عالم الأخذ والعطاء مجرد مشترين – أو مجرد مستهلكين – فلا جرم أن الصانع هو البائع ، ويعلم كيف يرتب ظواهر الأمور وبواطنها حتى تظل هذه العلاقة من طرف واحد محتفظـــة بتعادلها ولا تتفسخ هذه العلاقـــة ، أى علاقة البائع والمشتـــــرى ، ومن هنا فمن الإنصـــاف أن نقول أنه للغرب الحق فى أن لم يسمح لنا " أى يعطينـــا إمتياز أو يمانع بانتظام " فى أن نكون نحن أيضـــا ذات يوم من صناع الآلـــــة .. نفس هذا الغـــرب الذى من أجله تتظاهر حكومـــاتنا بالديموقراطيـــة وتشكل مجالس مختلطة من الرجال والنســـاء ، نفس هذا الغرب الذى ينصب حكوماتنا ويحلها ، ويحفظها واقفة على أقدامها ، ويخفى قبحهـــا بنفاقه ، ويعقد من أجلها مؤتمرات المستشرقين ، ويمجد فيها فى صحفه وأذاعاته ويمدحها مرة كل أسبوع أو كل شهر ، وقد سمعوا فى النهاية أن آذان الأمة رهن بهذا " السرح " الذى تقوم بــــه اوربـــــا .

ومن وجـهـة نظر المصـالح الإقـتـصـادية لصناع الآلة – اى من وجـهـة نظر الإقتصـــاد الدولى ، أنه من الأفضـل كلما وصلنا إلى الآلة والتقنيـــة أكثر تأخرا. واليونسكو أيضا يقول هذا ويعمل بهوال .A.K.F.H وال .F.A.O وحتى هيئـــة الأمم نفسها تعمل نفس الشيء ، وكل أنواع الخراب والدمار والفوضى عندنـــا تنبع من نفس هذه النقطة : إنهم على النطاق العـالمى أجـبـرونا على رعـايـــة المصـالح الإقتصاديـــة لصناع الآلـــة ، وإذا كانت سياستنا فى هذين القرنين أو الثلاثـــة قرون الأخيرة تابعـــة لمتغيرات الغرب ، فبسبب أن اقتصادنا فى هذه الفترة كان تابعا لنفس هذا الإقتصـــاد الذى كان متغيرا . أظن أننى أستطيع أن أضرب مثـــلا من هذا القـبـيل فى مسـألة النفط .. دعنا من السنوات ٣٠-٣٢ " ٥١-٥٣ سنوات حكم الدكتور مصدق " التى وجدت خلالها حتى اللوبيـــا سوق تصدير ، ففى تلك الفترة كان المبدأ الاقتصادى العام قائما على إدارة الدولة دون أى انتظار لدخل النفط .. وكم كان الأمر فى محله ، وهذه قصة يمكن دائما أن نقصها من البداية ،

لكن ما دامت عجلة النفط تدور اعتمادا على دخله ، وباعتبار الطفيليات التى يربيـها ، فسوف يظل الوضع على ما هو عليه مما يبينه جدول معدل الصادرات والواردات المذكور فى الصفحة التالية :

جدول الصادرات والواردات فى عشرة سنوات من ١٣٣١ إلى ١٣٤٠

نقلا عن (Iran-Alma) ١٩٦٣-ص ٢٩٨- طبعة طهران

السنوات	الصادرات		الواردات	
	بالوزن بالطن	بالريال "الألف"	بالوزن بالطن	بالريال "الألف"
١٩٥٢-٥٣(١٣٣١)	٣٥٤/٠٧٩	٥/٨٣١/٥٢٨	٢٣٢/٢٣٦	٥/٠٣١/٣٩٤
١٩٥٣-٤	٤٤٣/٧٦٤	٨/٤٢٥/٦٢٢	٤٢٤/٤٤٥	٥/٤٢٤/٢٦٦
١٩٥٤-٥	٤٦٠/٤٧٨	١٠/٢٨٨/١٧١	٥٠٣/٢٢٦	٧/٢٢٥/٠١٥
١٩٥٥-٦	٥٠٧/٨٧٣	٨/٠٣٣/٧٢٦	٦٣٧/١٣٢	٩/١٢٥/٤٣٩
١٩٥٦-٧	٤٦٣/٥٢٩	٧/٩٣٠/٦٩٠	٧٤٤/٨٧٦	٢٠/٩٨١/٢٨٨
١٩٥٧-٨	٤٣٦/٦٤١	٨/٣٥٢/٩٢٢	٧٤٣/٧٨٤	٢٥/١٢٩/٣٤٢
١٩٥٨-٩	٤٤٥/٣٩٨	٧/٩٤٠/٦١٥	٩٨٦/٠٩٢	٣٣/٤٥٨/٢٦٠
١٩٥٩-٦٠	٣٩٧/٢٣١	٧/٧٠١/٠١٧	١/٢٠١/٩٥٠	٤١/٦٣٠/١٣٥
١٩٦٠-٦١	٤٤٦/٣٠٧	٨/٣٥٩/٨٧٠	١/٩١٣/٥١٤	٥٢/٦٥٧/١٣٩
١٩٦١-٦٢(١٣٤٠)	٥٥١/٣٨٤	٩١/٥٩٣/٤٥٠	١/٦١٩/٢٢٤	٤٧/١٧٠/٧٠٧

وميزوا أنتم أنفسكم بين الأرقام ، فأنا خجلان ، وبدلا من ذلك سأنقل خبرا من مقدمة مجلة " بانك ملى ايران " العدد٢٥٤ بقلم السيـــد خوش كيش من خبراء البنوك " فى ظرف مدة حوالى ٣٢سنة ، كان هناك فى ايران ١٢ بنك فحسب تعمل مع فروعها بالطبع ، ولكن من سنة ١٣٣٥ إلى سنة ١٣٣٩ " فترة الانفتاح" وفى ظرف ثلاث سنوات فحسب افتتح ١٤ بنك آخر مع بضع شعب وممثل ومؤسس ، وكان عملها دفع أجور العمال الذين يعملون فى المصانع الأجنبية وتشترى بضائعهم ، فلا جرم أنه فى ست

سنوات من ٣٣إلى ٣٩ ارتفعت وارداتنا من ٧ مليار ريال إلى ٥٢ مليار و٦٠٠مليون ريال أى أنها تضاعفت ثمان مرات .

فالنفط يستخرجه الغربى نفســـه ، وهو نفسه الذى يصفيـــه ويحمله ويحسبه ، ويضع لنا مثلا أربعين مليون جنيه استرلينى سهما لنا فى حسابنا كرصيدمن أجل مصنوعاته هو نفســـه فى بنوكه هو نفســـه ، ونضطر نحن إلى الشراء منه بما يســـاوى هذا الرصيد .. وما المقصود به هو نفســـه ؟ أربعون فى المائة لأمريكا وأقمارها وأربعون فى المائة لبريطانيا ومن تبعها ، وما تبقى لفرنســـا وهولندا وأمثالهم ، ونحن فى مقابل هذا النفط الذى يحملوه ينبغى فحسب أن نستورد الآلة ، ووراء الآلة المتخصص ، ووراء المتخصص الآلة ، متخصص فى علم اللهجات والأدب والرسم والموسيقى "!!" ، ومن هنا فإن " موريسون تستورد كل ما تريد من امريكا من البولدوزر حتى الأسلاك والمسامير والصواميل ، و آجيب مينراريا " من ايطاليا ، وجان مولم معبدات الطرق من انجلترا ، و" أنتروپوز" من فرنســـا ، والأكثر طرافة الصفقات التى تتم من تحت الغطـــاء أثناء ذلك . وافتضحت " جان مولم " ، ولملمت " فرشها " ومضت ، لكنها ليست ممن يقلع ، ومشغولة فى نفس الأمور. وأين ؟ فى مجلة " تايم " ، وتقوم بالدعـاية على نفس النسق لرئيس هـيئـة الخطة الذى انطلقت قدمه فى هذه الولاية [١] ومن كان رئيس شركة جان مولم هذه فى طهران ؟ سعادة بيتر آفرى المستشرق الإنجليزى العالم بالفارسية ، وهو إنسان جذاب جدا ولطيف ومعلم اللغات الشرقية"!" فى جامعتى كمبردج وميتشجـــان ، وقد ذهبت لرؤيته فى كمبردج فى شتاء ١٣٤١ ، كان قد طلب رؤيتى ، ووضعت السيدة المبجلة المرافقة لقاءه ضمن البرنامج ، وحملت نسخـــة من الطبعة الأولى من نفس هذا الكتاب تحت إبطى وذهبت إليه ، قال تفضل .. ثم كلام وحديث واستقبال ، وقلت له من خلال حديثى عن بعض الموضوعات ، قلت له : تعلم سيادتكم أن ادوارد براون الذى صار ادوارد براون لم يصبح رئيس جان مولم فى طهران ، وغلبه البكاء ثم قال : لقد كان غنيا وأنا فقير ، ومن هذه الكلمات

---

(١) ارجعوا إلى مجلة تايم الأمريكية عدد ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٤ ص ٢٠، العمود الأخير بشأن السيد ابتهـــاج .

رأيت أن البشر فى كل أنحاء العالم صغار بنفس القدر ، بينما كتب هذا الرجل كتابا تحت إسم " ايران الحديثـــة " وتناولنى بشكل ما قائلا " صدر كتاب أخير بشأن مرض الابتلاء بالتغرب ، وشاء القضاء أن يصادر ، والذين يفكرون فى ايران مثل مؤلف الكتاب ربما كانوا قلة من بين الإيرانيين المتعلمين ، لكن التاريخ دلنا على أنه لا توجد نهضة فكرية فى ايران مهما كانت صغيرة فى البداية يمكن تجاهلها "[١] أجل ، أصحاب السعادة منتبهون إلى الأمور إلى هذا الحد . ، فشركات فورد وروكفلر لها مؤسسات ثقافيـــة ، وتعطى مساعدات لهذا وذاك من أجل نشر الثقافة ، حسنا جدا ، واعتمادا على نفس تلك الأموال ، تقام " مؤسسة ايران " ، وتقيم مستشفى وجامعة فى شيراز ، لكن اذهبوا وشاهدوا أية قاعدة أقاموها للأرستقراطيـــة ، وكيف تكون اللغة الرسميـــة للجامعة تحت آذان سعدى وحافظ هى الإنجليزية ، وأى مرصد لرصد حركات الأقمار الصناعيـــة الأمريكيـــة ، وكيف استوردوا من المسمار والصامولة حتى القدور وحاملات القدور والأبواب والجدران من أمريكا دفعة واحدة ، ونفس فورد وروكفلر يعطون أموالا لفرانكلين فى طهران لتطور الكتب المدرسيـــة وتجملها ، اذهبوا وانظروا[٢] أية شركـــة عظيمة أقاموها ، وأى احتكار للكتاب المدرسى قاموا به ، وكيف قصفوا رقبة كل ناشر من الوطنيين .. وذهبت إلى فيروز آباد وكازرون وشيراز فى جولة صحراوية " فى نوروز ١٣٤١ مع المهندس سيحون وفرخ غفارى والمهندس مقتدر " ، وسمعنا أن سعادة " جيرشمن " يواصل حفرياته فى سابور كازرون ، قلنا لنمض فنسلم ونسأل ونبحث ، ولم يكن موجودا ، أو كان نائما ، ولم يسمحوا لنا بالمثول ، لكن على نفس حفائر سابور كازرون كانت خيامه ومخيماته قائمة ، وفى كل موضع شعار كونسرسيوم النفط وعلاماته ، على الخيام والبضائع والآلات ، وماذا يعنى هذا ؟ يعنى أن حفريات علم آثار سابور كازرون طفيلية على صناعة النفط ،

---

1)-Modern Iran .By Peter Avery .Ed Ernest Benn -London 1965. P.488.

(٢) ارجعوا إلى " بلبشوى كتابهاى درسى = فوضى الكتب المدرسيـــة " فى " سه مقاله ديگر ثلاث مقالات أخرى " لمؤلف الكتاب .

وهكذا يمكن فهم كيف أن حضرة جيرشمن يريد بضرب الشوم أن يثبت أن " خارك " كانت قاعدة للمسيحيـــة .. ومسائل أخرى (١) ماطينا !!

وعلى هذا النسق ، يذهب النفط ، وفى مقابله تأتى الآلــــة بكل ما يتفرع منها من المستشرق والمتخصص حتى الأفلام والآداب والكتاب ، ولمن يعود الكسب فى هذه الصفقـــة ؟ فى البداية يعود إلى الشركات " ودخل كل رأسمال يستثمر خارج دولهم معاف من الضرائب " ، ثم إلى السماسرة والوسطاء ، ومن يكون هؤلاء السماســـرة والوسطاء ؟ غير اولئك الذين ذكرتهم ، خمنوا أنتم من يكونون !! ومن هنا لدينا وزراء ونواب فى المجلس وحكومة ، وتهتز حكوماتنا فى أثر هذه الصفقات ، وتأتى الحكومات وتذهب ، وهكذا يرشد الغرب ساستنا ، إما يدوسها بقدمه ، أو يغنى من أجلها أناشيد الاستحســـــان ، ولا محيص من أن السياسى عندنا له الحق فى أن تكون عينه وأذنه على رويتر أو اليونايتدبرس أو التايم ، أكثر من أن تكون على الغرفة التجارية فى طهران أو لجنة هدف التعليم أو مجلس مدينة بيرجند إذا كان مثل هذا المجلس موجودا فى تلك المدينة .. وعندما يكون اقتصاد الدولة على هذا الوضع فى أيدى الآخرين ، وهؤلاء الآخرون هم صناع الآلة ، وواضح أنه يجب أن نظل محتاجين دائما مشترين دائمـــا ، ومن حسن الحظ أنه ولما ينته قسط الآلة والجرار والبلدوزر بعد ، تكون الآلة نفسها قد تحطمت أو صدئت ، كما أن الشركة لم تضمن أكثر من خمس سنوات (٢)

---

(١) ارجعوا إلى " جزيرة خارك " لمؤلف هذا الكتاب ، وأيضا إلى المقال الذى كتبه جيرشمن عن نفس هذه الجزيرة ، وتذكروا أن وجود النفط فى خوزستان كان قد انتبه إليه واحد من نفس هذا النوع من المستشرقين أو علماء الآثار هو دى مورجان الفرنسى الذى اكتشفــــه حتى قبل دارسى ، وكان قد جاء إلى ايران كعالم للحفريات فى شوش ، وقد نشر نتيجة حفرياته فى مجلة " المعادن " طبعة باريس " وبالها من ضجة . وارجعوا أيضا إلى " پنجاه سال نفت در ايران = خمسون سنة من النفط فى ايران لمصطفى فاتح .

(٢) اتهم المفكر اللبنانى شارل مالك الرئيس السابق لهيئة الأمم المتحدة "!!" الرأسماليين الغربيين أنهم يملكون فى جعبهم الوسائل المادية فحسب للدول الناميـــة أى الطرق والسدود والدقة فى التقنيـــة وابتسامة السادة ، هذا هو ما يعطونه للدول النامية ، لكن لا خبر هناك عن الفكر والحرية والسعادة والحقيقة البشريـــة ، ناهيك عن أنها أيضا إلهية " مترجمة عن ص ٧٧من نفس مجلة تايم الأمريكية عدد سبتمبر ١٩٦٣ - من تقرير عن مباحثات المؤتمر الدولى الثالث عشر للإدارة . وقد انعقد هذا المؤتمر بمشاركة ٤٢٠٠ شخص من ٨٤ دولـــة فى مانهاتن .

ومن الطريف أنه عندما تنهار هذه النسبة في مكان ما من العالم ، فإن أول أوراق التقرير يكتبها مراسلو رويتر ويونايتد برس ، ثم يأتى صوت الصليب الأحمر معلنا إن اثنين من ممرضاته قد جرحتا ، ثم يعقد الأجانب المقيمون فى ذلك المكان حقائبهم ، ثم يقيم بابا روما قداسا يسأل الله فيه أن يرفع البلاء عن ذلك المكان ، ثم تهبط الأسعار فى بورصتى لندن ونيويورك ، ثم تبدأ التايمز والنيويورك تايمز فى كتابة المقالات ذات الخبيء وتبيان الطريق من البئر للقوى المحلية ، ثم تقطع العلاقات الدبلوماسية ، ثم ينهمر الجنود المرتزقة ويتحرك الأسطول السابع فى البحر المتوسط أو فى الخليج الفارسى أو فى مياه الصين أو سواحل افريقيا ، ولقجربنا هذا الأمر مرات عديدة ، فى تأميم النفط وفى أزمة قناة السويس وفى كوبا وفى الكونغو وفى فيتنام .

لكن ينبغى علينا أن نكون منصفين ، ونقول أن سياستنا واقتصادنا أثناء ذلك لا يبقيا عاطلين تماما ، فهناك متخصصون متغربون يجلسون ويبحثون ، ومستشارون أجانب يأتون ويروحون ، وفجأة ترى مصنعا لتركيب السيارات الجيب أو الفيات يفتتح ، أو مصنعا لصناعة البلاستيك ، أو صناعة البطاريات للجيش ، وحتى الآن هناك عدد من قادة الجيش يعيشون فى السجن بسبب ما حولها من فضائح ، هذا فحسب ، وبأى افتخارات واجراءات واحتفالات وشرائط ذات ثلاثة ألوان ومقص وأبهة وعظمة .. لكن ما هو واقع الأمر ؟ إنه لا يهم ولا يكلف شيئا أن ترسل لنا الشركة القماش والشيت والبفته والبطاريات والأباريق التى لا تنكسر ، إنها تبخل فقط فى تصدير الآلات الثقيلة ، ثم إن الشركة الأجنبية إذا استطاعت أن تصدر قطعا منفصلة لإحدى الآلات كقطع غيار فإنها سوف تدفع جمارك أقل ، وسوف تكون نفقات تخزينها وحملها ونقلها أرخص ، ثم إن أجر التركيب فى بلد مثل ايران أرخص من اوربا وامريكا . ولهذا وجدت مصانع تركيب الجيب والفيات وأجهزة الراديو والبطاريات والصناعات الأخرى الوسيطة التى لا جذور لها فى الدول النامية سوقا رائجة ، وينبغى علينا ألا ننسى أن الأمر بالنسبة لدولة متخلفة يعد خطوة على كل حال ، وإن لم تكن خطوة صحيحة ، فعلى الأقل يمكن أن تكون مجالا للفخر

والاستعراض ، ويمكن آخر كل سنة اصدار تقرير رسمى فحواه : أجل ، زاد عدد العمال هذا العام كم فى المائة ، وزادت رؤوس الأموال المحليـة كذا فى المائة ورؤوس الأموال الأجنبيـة كذا فى المائـة .ولنقدم الجدول التالى عن حقيقـة الموضوع :

الولايات والاقاليم	عدد الوحدات الصناعية	عدد العمال "بالفرد"	رؤوس الأموال " بالألف ريال
آذربيجان الغربية	١٥٢	٢٦٧٦	٩٠٢/٤٧٣
كرمانشاه	٣٦٦	٤٠٦٢	٨٤٤/٣٧٣
خوزستان	٢٧٢	٣٠٤٤	١/٤٦٥/٠٢٥
فارس	٣٤٧	٤٦٤٢	١/٩٨٧/٨٣١
كرمان	٢٠٨	١٩٦٣	٦٨٢/٠٩٣
خراسان	٨٤٣	١١٠٦٩	٣/٢٧٨/٠٨٧
اصفهان	٨٩٩	٢٤٠٠٦	٥/٨٤٢/٨٣٨
سيستان وبلوشستان	٨٩	٣٠٤	٦٢/٠١٠
طهران	٢٨٤٤	٤٨٥٥٦	٢٢/٢٩٧/٢٧٤
جيلان	٨٥٦	٧٦٥٩	٢/٨٠٢/٢٣٣
مازندران	٨٨٣	١٦٥٠٤	٤/٦٢١/١٨٩
آذربيجان الشرقية	٣٩٣	٦٢٢٩	٧٢٨/٣٦٣[١]

أى أن نسبة العمال لمجموع السكان فى الدولة ١٣٠ ألف عامل فحسب من عشرين مليون نسمة .

وفى اثر هذه الكلمات نعقد السمنارات ، ونضع خطة البرنامج الثانى والثالث ، ويستمر تردد المستشارين

(١) من ص ٤٠٥ Iran - Almana سنة ١٩٣٦ طبعة طهران .

الأجانب ، لكن إذا أردتم حقيقـــة الموضوع ، فهذه كلها ملحقات لصناعة الغرب، وعلى كل فإن تركيب الآلة شيء فى مستوى القيـــام بإصلاحهـــا ، ليست صناعة ، ليست صناعة للآلـــــة .

وينبغى علينا أن نضع فى الحسبـــان ، إنه إذا كانت هناك حاجـــة إلى خطة ثانية وخطة ثالثة ، والبنك الدولى يضغط ، والرأى العام فى أمم الغرب "!!" فهذا يعنى أن مديرى الشركات عندما يوافقون حكومة ايران على أن تضـــع فى الظاهر برنامجا أكثر تفصيلا وطولا وعرضا ولمعانا ، فإن ذلك فى الأغلب لأن صناعة الغرب ينبغى أن تعلم كم يتقبل السوق الإيرانى فى السبع سنوات أو الخمس سنوات القادمـــة من صناعـاتهم وكم يتـحمل ، ومـا هـــو مـقدار اسـتيعـاب مشـتريه ، فليسـت أمـورهم عشوائيـــة مثلنا ، إنها تتم طبقـــا لخطة ، وكلنا نعلم أن فائض الإنتـــاج يسبب أزمة ، ويحيى غول البطالة ، ويؤكد خطر تغيير النظام فى نفس ذلك المكان ، وفى النهاية فإن للسيد ديجول مطالب [1] والسيـد مـاكمـيلان لم يصل بعد إلى سن المعـــــــاش والرئيس كنيدى لا يزال فى شرخ الشباب ، وعلى كل حال ينبغى أن يعلم الغرب كم يستطيع هذا المشتـــرى المطيع الهادىء أن يجلب خلال الخطة الثالثة ، وكم فى المائة من أسهمه النفطيـــة سوف يحتفظ بها ، ويرسل إليه فى مقابلها الثلاجة والراديو والقدر سريع الطبخ .

ونعلم فى النهايـــة أن المشرف الأصلى على كل هذه اللجان والسمنارات ولجان الاستشارة الثقـافيــــــة والصناعية مستشارون غربيون [2] عندهم أهداف معينة وأغـراض مـحـددة . ولا تواجـهـونى بحـيـاد مـسـتـشـارى هيـئـة الأمم واليـونسكو وموضوعيتهم، إذ لم تعط شركة الذهب والماس فى الكونغو لرئيسهم الفقيد همرشلد أى وزن أو قيمـة . رأينا كيف فـلجـأتنا هذه الهيئة المحترمة بأنها حـامية مصـالح نفس شركات الذهب والمـاس البلجيكية والإنجليزيـــة .

(١) لايغيب عن الذهن أن أول طبعة للكتاب كانت سنة ١٣٤١ "١٩٦٢" .

(٢) ليس عندى احصائية رسمية ، لكن الشائع أنه يوجد الآن "١٣٤١" ثلاثون ألف خبير ومهندس و متخصص أجنبى يعملون فى هذا البلد . المترجم : كان عدد المستشارين الأمريكيين فقط قبيل الثورة الإيرانية "١٣٥٧" أربعين ألفـــا .

ولا جدال فى أن ايرانيين يشتركون فى هذه السمينارات ولجان التخطيط ، أى زبدة المفكرين عندنا ، ونخبة المتغربين لدينا .. لكن على أية صورة ؟ أعتذر إن كان فى الأمر وقاحة ، لكنى أظن أن المشاركين الإيرانيين فى لجان التخطيط هذه لا يتجاوزون حدود الترجمة ، لأنهم إن تجاوزوها وقدموا وجهة نظر، فهى أولا غير مقبولة ، وثانيا سوف يسلب منهم حق القيام والقعود مع العظماء ، ومن هنا فإذا كنا قد رأينا سياستنا واقتصادنا تابعين لسياسة الغرب واقتصاده ، فلأن أغلب مفكرينا - تلك الجماعة التى سلكت طريقها إلى هيئة قيادة المملكة - فى آخر تحليل ، تعد الترجمة أعظم مسئولياتهم الوجدانية والنفسية ، وهم مجرد مفسرون ومترجمون لآرائهم وأهدافهم .. وإلا ألا نعرف نحن أنفسنا كم قرية نائية لدينا ، وكم مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، وكم من الأنهار لا يستفاد منها ، وكم من القنوات البور ، وكم من الآلاف من العاطلين أو الأميين أو المحرومين من المدرسة والخدمات الصحية ؟[1] هذا فى حد ذاته لا يحتاج إلى التشبث بأذيال المستشارين الأجانب خطوة بخطوة ، وليت هذا التشبث يحل عقدة واحدة من عقد حياتنا .. وليت يوما يحل لا نحتاج فيه إلى هذا الجيش من المستشارين .

والآن اعتمادا على نفس هؤلاء المفكرين المتغربين المشتركين فى الحكم ، فإن ممثلى سياسة الغرب وجماعة المستشارين يتصرفون معنا بنفس الطريقة التى كان سفراء الإنجليز والروس يتصرفون بها مع اتابك وأمير كبير ، حتى إذا كان المفكر المتغرب عندنا جديرا بالمقارنة مع هذين العظيمين ، فإن الفرق أنه إذا كان

---

(١) كمثال أقدم بعض الإحصائيات عن الحالة الفعلية الآن "١٣٤١" من ناحية الخدمات الصحية : بدلا من ٩٥٠٠٠طبيب نحتاجهم لدينا منهم ٥٩٥١ وبدلا من ٣٨ ألف ممرضة ومولدة لدينا ألف وبدلا من ١٩٠ ألف سرير فى المستشفيات لدينا ١٩ألف . وفى التعليم : بدلا من ٩٥٠٠٠مدرس ثانوى من حملة الليسانس فى التخصصات المختلفة لدينا ٤٢٠٠فحسب، ومن٥٠ألف بلد فى المملكة - واعتبر الرقم الأعلى هو الصحيح - لدينا من ٧ آلاف إلى٨ آلاف بلد تحتوى على مدرسة .. والخبر الطريف أنه مع كل هذا =الفقر التعليمى ، أغلقوا فى سنة ١٣٤٢ كل مدارس المعلمين العليا والمتوسطة على أساس أن طلاب الداخلية يكلفون نفقات زائدة ومن هنا أغلقت ٤٢ مدرسة للمعلمين فى أنحاء البلاد .

السفراء فحسب فى تلك الزمان هم الذين يقدمون الرأى ، فالمستشارون الآن جيش، وإذا كان الأتابك وأمير كبير هما المتلقين فى تلك الأيام وكلاهما كان شيخا مجربا متربعا على قمة عمر من التجربة والتقاليد والمعايير الشرقية عنده ، وقدمه مقيدة بقيد العقائد والرسوم والآداب الموجودة فى هذا الجزء من العالم ، فإن المتلقى الآن من المستشارين الغربيين جماعة من المفكرين المتغربين ، فلا شخصية الأتابك أو أمير كبير عنده أو حتى كفاءة حاجى ميرزا آغاسي الذى لا أدرى لأى خطأ اشتهر بعدم الكفاءة (١) وهكذا صار أن تحكم أمة على هذا النسق ، أمة تركت لقدر الآلة وقيادة المفكرين المتغربين عن طريق هذه السيمنارات والمؤتمرات والخطط الثانية والثالثة ، أو اعتمادا على المساعدات " التى لا ترد " ، وبتلك الرأسمالية المسخرة فى الصناعات الوسيطة التى لا جذور لها .

ولقد مر الكلام عن قدر الآلة بما يكفي ، والآن لنر هؤلاء الزعماء للقوم – هؤلاء المفكرين المتغربين – ما هو شكلهم وأية سحنة لهم .. حقيقة أننى سوف أطلق بعض الأحكام الكلية ، لكن ضعوا أنتم الاستثناءات جانبا .

---

(١) عبد الله مستوفى : شرح زندكانى من = سيرة حياتى – صص ٤٥–٥٠حيث حيث دافع فيه عن هذا الشيخ ، وأبدى أن أغراض قائم مقام هى التى كانت سببا فى هذه الشهرة . المترجم : حاجى ميرزا آغاسى وقائم مقام وامير كبير وميرزا خان اتابك هم الصدور العظام عند الملوك القاجاريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

٩- حمار فى إهاب أسد أو أسد علم ؟

الإنســـــان المتغرب الذى هو عضـــو فى جماعة القيادة فى الدولة إنســـــان قدمه فى الهواء ، نرة من الغبار معلقة فى الفضـــاء .. تماما مثل قذى فوق سطح الماء ، قطع علائقـــه مع عمق المجتمع والثقافة والتقاليد ، لا علاقة له سلفيـــة كانت أو تقدميـــة ، ولا خط فاصل بين القديم والجديد . هو شيء لا علاقة له مع الماضى ولا أى إدراك له عن المستقبل ، نقطـــة لا توجد فى أى خط ، لكنه نقطة افتراضية على سطح صفحـــة فى الفضاء ، نفس تلك الذرة المعلقة . ولا بد أنك سوف تســـأل : إذن فكيف وصل إلى قيـــادة القوم ؟ أجيب : بحتمية الآلة وبقدر السياســـة التى لا حيلة لها إلا متابعة السياسات العظمى ، وفى هذا الجزء من العالم وبخاصة فى البلاد التى تنتج النفط ، فإن العادة أن كل من كان أخف يطفو على سطـــح المـــاء ، فإن أمواج الحادثات فى هذا النوع من مخازن النفط تأتى فحسب بالقذى والقش إلى سطح الماء ، ليس لديها القوة التى تمكنها من طمس زبد البحر ، وطرح الجواهر جانبا . ونحن فى هذا الابتلاء بالتغرب والآلام الناتجة عنه ، نتعامل مع اولئك الذين وضعتهم أمواج الحادثات على السطح ممن لا وزن لهم ولا قدر .. وبالنسبة لرجل الشارع العادى ، لا حرج عليه ، فليس كلامه مسموعا ، ولا ذنب له ، فهو يدور فى أى طريق تديره إليه ، ويتشكل بالشكل الذى تربيه عليه [(١)] وإذا أردت الحقيقة فلأن رجل الشارع فى الأصل ليس مؤثرا فى مصيـــره ، أى أننا لا نسأله أن ينطق كلمة واحدة فى تحديد مصيره ولا نستشيره ، وبدلا منه نستشيـــر المستشارين الأجانب .. ومن هنا فالأمور خراب إلى هذا الحد ، وهكذا سقطنا فريســـة لقادة مبتلين بالتغرب ، ربما يكونون قد درسوا أيضا ، وربما كانوا قد أقاموا فى اوربا أو امريكا ، وليت تعاملنا يكون مع جماعة

---

(١) اعترضوا على قائلين : لماذا تجاهلت فى هذا الكتاب نضال الناس فى الأحداث السياسيـــة منذ الحركة الدستورية إلى الآن ؟ ، أنا لم أتجاهل هذا النضـــال ، لكنى مررت به صامتـــا ، وذلك لأنه لو كانت القيادة فى هذا النضال صحيحة " بكل خسائرها من السجون والمذابح والنفى " لكانت أحوالنا أفضل ولكان زماننا أحسن ، ولا جدال أنه لم يكن هناك ذنب للناس فى كل هذه الهزيمة ، القيادة فحسب فى هذا النضال المستمر هى التى أدت إلى كل هذه العواقب .

القيادة قاصرا على اولئك الذين ذهبوا إلى اوربا فحسب واولئك الذين درسوا ، بل الأمر ليس كذلك ، ويلغ الحال كما أراه وأقوله على المستور أنه بمقتضى نفس ما مر ذكره فى دول هذا الجزء من العالم قد جرت العادة أن التافهين والحثالة من كل حرفة وجماعة يكونون على القمة ، أى العاجزين والعاطلين وفاقدى الإرادة ، فأكثر التجار إفلاسا وعدم اعتبارهم الذين يديرون السوق والغرفة التجارية ، وأقل أهل التعليم عملا وانتاجا هم مديرو التعليم ، وأشد الصرافين إفلاسا أصحاب بنوك ، وأكثر الناس انفلاتا وتسيبا هم أعضاء المجلس النيابى ، وأكثر الناس ضلالا هم زعماء القوم .. قلت لكم من وجدتموه استثناءً من القاعدة فنحوه جانبا ، فالحكم العام فى هذه الديار هو منح من لا جذور لهم أجنحة وقوائم أى لمن لا شخصية لهم ، إن لم أقل للسفلة والأدنياء . وكل من له حق أو يتحدث الحق أو يرى رؤية صحيحة ويمشى مستقيما ، فلا مكان له فى هذه الجماعة ، ينبغى على الإنسان لكى يصل هنا إلى القيادة بحكم التبعية للغرب أن يكون سهل القياد ، وألا يكون أصيلا وألا يكون أصوليا ، أن يكون بلا جذور ، لا قدم له ولا أساس فى ماء هذه الأرض وطينها ، ولنفس هذا السبب فإن قائدنا المتغرب يطفو على الموج ، وليس ما تحت قدمه صلبا ، ولنفس هذا السبب لا يكون صاحب موقف واضح أبدا ، إنه لا يستطيع أن يتخذ موقفا فى مواجهة أية قضية أو أية مشكلة . إنه مذهول ، كل لحظة فى مكان ، لا إرادة شخصية لديه ، إنه مطيع لكل أمواج الحادثات ، لا يناقش أى شيء ، ولا يصطدم بشيء ، يمر من جوار أضخم الصخور بملق ونعومة ، ومن هنا لا تشكل أية أزمة أو حادثة أى خطر بالنسبة لوضعه ، إذا ذهبت هذه الحكومة فهناك حكومة بعدها ، إن لم يدخل هذه اللجنة ، فإنه يدخل هذه الندوة ، إذا لم يكتب فى هذه الصحيفة ففى التلفزيون متسع ، وإن لم يكن فى هذه الإدارة ، ففى ديوان وزارة كذا ، وإن لم يشغل سفارة ، فالوزارة جاهزة . ومن هنا يحدث كثيرا أن تتغير الأوضاع وتتغير الحكومات فى الظاهر ، وتذهب وتأتى ، وترى نفس القائد المتغرب فى مكانه ثابتا كأنه جبل أحد ، وهذا القائد المتغرب هو أيضا ماء تحت تبن ، لأنه على أى حال يعلم فى أى مكان فى العالم يعيش ، يعلم أنه لا يستطيع أن

يتنفس ، يعلم أن الريح تهب كل آن من صـوب مـا ، وبون أن تكون في يده بوصلة ، يعلم أين تكون جانبية السلطـــة ، ومن هنا فهو في كل مكان : في الحزب وفي المجتمع وفي الصحيفة وفي الحكومة وفي اللجنة الثقافيـــة ، وفي المجلس النيابي وفي نقابة المقاولين !! ومن أجل أن يكون في كل مكان يجب أن يكون مع الجميع ، ومن أجل أن يكون مع الجـميع ، لابد أن يكون ألوفـا ومـؤدبــا ، لا يجـادل ولا يعـاند ، مطيـعـا ومستقيمـــا ، هادئـــا ، يكتب أيضا المقالات ضد الشعب [1] ولا يكون أيضـــا فاقد الإطلاع على الفلسفـــة ، كما يتحدث عن الحريـــة ، ولنفس هذه الأسباب - وربما للاستعراض ليس أكثر- أحيانا يعن له أن يبدى شخصيـــة ويقوم بعمل ، لكن لأنه يسير دائما مع أمواج الحادثات ، حتى يأتى ويتحرك تكون الحادثات قد سبقته وتخلف هو ، وحتى من هذا يستفيد درســـا ، وهو ألا يقوم مرة أخرى بعمل ما من شأنه أن يثبت له وجودا .

المتـغـرب بالنسـبـة للدين لا مـبـال تمامـا ، لا يؤمن بأى شيء ، لكنه لا يفـتـقـد الإيمـــان بأى شىء تماما ، هو إنســـان إلتقاطى ، يأكل خبزه بسعر زمنه ، يستوى لديه كل شيء ، نفســه وأن يمر حـمـاره من فـوق الجسـر ، لا يعنيـه بعـدها وجـود الجســــر من عدم وجوده ، لا إيمان لديه ولا هدف ولا اتجاه ولا عقيدة ، لا بالله ولا بالإنسانيـــة ، لا هو في هم تطور المجتمع أو في اسار الدين أو اللادينية ، بل إنه ليس لا دينى .. إنه غير مبال ، أحيانا يذهب إلى المسجد بنفس الطريقة التى يذهب بها إلى النادى أو إلى السينما ، لكنه في كل مكان مجرد متفرج ، تماما كأنه ذهب ليشاهد مباراة كرة قدم ، دائما إلى جوار الساحة ، لا يستمد من نفسه في أى وقت قط حتى بمقدار نصف دمعة في موت صديق ، أو اهتمام بموضع من مواضع الزيارة الدينيـــة ، أو تفكر في ساعات الوحدة ، بل إنه أصـــلا غير مـعـتـاد على الوحدة ، يهرب من البقاء وحيدا ، ولأنه يخاف من نفســـه في الأصـــل فهو دائمـــا في كل مكان ، وهو لا بد أن يعطى صـوته ، إن كان ثمة تصـويت - وبخاصة إذا كان التصويت دُرْجة -

---

(١) أنظر مجلة سُــخَن = الكلام أو الشعر والأدب - خردادماه سال ١٣٤٠

لكن لمن يرى فيه نفعا شخصيـــا أكبر له ، لا تسمع منه فى أى وقت صيحـــة أو اعتراض أو إشارة أو مناقشة ، ثقيل ووقور ويتؤدة عند الكلام يبرر كل شيء ، ويبدى نفســـه متفائـلا .

الإنسـان المتـغرب مؤثـــرٌ للراحة ، يغـتنم اللحظة ، لكن لا شك ليس بتـعـبير الفلاسفـــة ، مادامت سيارته منتظمة ، ومظهره كذلك ، فلا هم بعدها على الإطلاق ، وإذا كـان " هم الأولاد والخبز والكســـاء والقـوت " يمنع الشـاعر الحكيم سعـدى من التجوال فى الملكوت ، فهو ورأسه فى مزوده مشغولة ، لا هم له بأحد إلا بنفســـه ، إنه لا يختلق المتاعب لنفســـه ، ويهز كتفيــه راحة ، وما دام قد ضبط حسابات نفســه ويخطو كل خطوة بحساب ، ويعتبر كل عمل نتيجة معادلـــة ما ، فلا دخل له بهموم الآخرين ، فما بالك بأن يحمل همومهـــم .

الإنســـان المتغرب عادة لا تخصص عنده ، يقوم بكل عمل ولا عمل لـــه ، لكن لما كـان قـد درس وقرأ بعض الكتب ، وربما لمدرسـة فكرية ما ، فإنه يعلم كيف ينطق بعض الألفاظ الضخمة فى كل جمع ، وربما تخصص فى زمن ما فى شيء معين ، لكنه فيما بعد عندما رأى أنه فى هذه البلد لا يمكن نفاق السلطات بتخصص واحد ، اضطر إلى مزاولـــة أعمال أخرى ، تماما كعجائز النسوة فى الأســـرة ، نتيجة لطول العمر وتجربة السنين يعلمن بعض المعلومـات المختـصرة عن كل شيء ، ولا شك أن الخالات العجائز قد علمن المتـغرب شيئا طفيفا عن كل شيء، الفرق ما يتصل بالغرب ، ما يصلح للعصر ، ما يهم التلفزيون ، ما يصلح للجان الثقافيـــة والندوات ، وما يصلح للصحف واسعة الإنتشـــار ، وما يصلح أيضـــا للمحاضرات فى النـــادى .

والمتغرب لا شخصيـــة له ، شيء فاقد الأصالـــة ، سواء فى شخصـــه أو فى منزله ، ولا تفـوح كلمـاته برائحـــة أى شيء ، بل تمثل فى الأغلب كل شيء وكل شخص . وليس ذلك بمعنى أنه " كوزموبوليتان " أى عالمى . أبدا ، إنه لا ينتمى إلى أى مكان ، ولا ينتمى إلى كل مكان ، خليط من التفرد فى الشخصيـــة والشخصيـــة الخالية من الخصائص ، وما دام لا يثق ، فهو يستخدم التقيـــة ، وبينما هو حسن

المجـاملة وحـسن اللقـاء ، إلا أنه لا يثق في الطرف الآخـر ، ولما كـان سـوء الظن مسيطــرا على زماننا ، فإنه لا يفتح قلبـــه في أي وقت من الأوقـات ، وربما كانت الخـصـيـصــة البـارزة فـيـه التي يمكن لمسـهـا ورؤيتـهـا هي الخـوف ، وإذا كـانت الشـخـصـيــة الفردية قد صـارت في الغرب ضـحـيـة التخـصص ، فـالمتغرب هنا لا شخصيــة لديه ولا تخـصص .. لديه الخوف فحسب : الخوف من الفصــل ، والخوف من فقدان الشهرة والمنصب ، والخوف من اكتشاف خلو المخلاة التي تثقل رأســه وتسمى المخ .[1]

الإنســان المتغرب فـاسق . متصف بالأنوثــة [2] يهتم بنفسه كثيرا ، ويواظب على مظهره دائمــا ، بل وأحيانا " ينتف " شـعـر حـاجـبـيه ، يعطى حـذاءه ومنزله أهميــة قـصـوى ، يبدو دائما وكأنه خرج من الورق المذهب ، أو خـرج من بيت أزياء أوربي ، تتغير سيارته كل عام إلى طراز جديد ، ومنزله الذي كان ذات يوم يحتوي على إيوان وسرداب وحوض وظلة ودهليز ، يشبه الآن كل يوم شيئــا آخر ، يشبه يوما الفيلات التي تقع على شـاطيء البـحر بنوافذ كثيرة " داير ما يدور " ومليئــة بلمبات الفلوروسنت .[3] وفي يوم آخر شكل الكباريهات ، ذا مظهر خلاب ومليئا بالمقاعد ، وفي يوم ثالث لكل جدار لون ، وقد غطى سطوحه بتلال من المثلثات من كل لون . وفي ركن

---

(١) لتأييد هذه النقاط انظر " ايران را از ياد نبريم = علينا ألا ننسى ايران " بقلم صديقي العزيز محمد علي اسلامي ندوشن . من اصدارات مجلة " يغمــا " اسفند ١٣٤٠ .

(٢) بشأن هذا الفسق أو التنورب انظر " تسخير تمدن فرنـگى = سيطرة الحضارة الأوربية " بقلم سيد فخرالدين شادمان – طبعة طهران ١٣٢٦ والذي أشرت إليه آنفــا .

(٣) انتبهوا إلى هاتين العبارتين من إعلان ملون كبير التقطته من جريدة اطلاعات " ١٩ ارديبهشت سنة ١٣٤٢ ص ١٢ " بشأن مدينة حديثة التأسيس في منطقة طهران ومحاسنها " الميكنة الخاصة والمزايا المدهشــة لهذه المدينة الصغيرة ، تنقل إلى داخل بلدنا حقيقة من أسلوب المعمار في اوربا وأمريكا ، والفيلات الحديثة في هذه المدينة الصيفيــة ، تجعل المفتونين بالحضارة الغربية " كذا" والذين تربوا في ظلالها يقعون في هواها ، لأنهم سوف يحسون دائمــا أنهم يعيشون في اوربا أو امريكا " وهل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر وضوحا من هذا ؟

يوجد راديوجرام " هاى فيديلتى " ، وفى ركن آخر تلفزيـــون ، وفى ركن ثالث بيانو السيدة الصغيـــرة ، وفى ركن سماعات " ستريو فونيك " ، والمطبخ وكل شق ملىء بالبوتاجاز والغسالة الكهربية ، وكل هذه " الكراكيب " . ومن هنا فالمتغرب أوفى مستهلك للصناعات الغربية ، وإذا استيقظ فى الصباح ذات يوم وعلم أى حلاق أو خياط أو ماسح أحذيـــة أو محل إصلاح قد أغلق أبوابـــه لأصابته حسرة ، وتمدد ناحية القبلة ، بالرغم من أنه لا يعلم أين توجد القبلة ، فوجود كل هذه المشاغل والصناعات الأوربية التى ذكرتها أكثر ضرورية من وجود أية مدرســـة أو مسجد أو مستشفى أو مصنع، من أجله لدينا مثل هذا المعمار النسبى وفاقد الأصل[1] وهذا التخطيط للمدن المزور . ومن أجلـــه كان أن تحولت شوارع المدن وميادينها بلون الفلورسنت الوقح والنيون إلى شكل محلات الحلاقة . من أجله يصدر كتاب عن الطبخ أى الطريق إلى البطن تحت عنوان " الطريق إلى القلب "[2] ملىء بالتفسير والتفصيل للأطعمة الملـيئة بالدهـون واللحـوم ، والتى لا يمـكن تناولهـا أصـــلا فى مثل هذا الجو الحار الجاف ، أطعمة تعد فحسب لاستهلاك أفران البوتاجاز من صناعة الغـرب . ومن أجله أيضا تهـدم بواكـى الأسـواق [3] ، ومن أجله تهـدم " تكيـة

---

(١) كنا قد ذهبنا لشراء منزل لأحد الأصدقـــاء فى " دروس " ، وكان المنزل نسخة من الكنيســـة التى بناها كوربوزيه على طراز حديث وتعرف باسم " نوتردام دى هو . تنقص برجها فحسب ، لكن بكل تفاصيلها الدقيقة ، وكل طاقها .. إلخ .

(٢) كتاب ملىء بالزخارف والمناظر وغالى الثمن جدا . بقلم أو ترجمة السيدة يوسفى – نشر ابن سينـــا .

(٣) ارجعوا إلى " چند كلمه با مشاطها = بضع كلمات مع المواشط " بقلم الكاتب فى مجلة " انديشه وهنر = فكر وفن " عدد آبانماه سنة ١٣٣٧ وفى نفس المجال مقال " كاروانسراى صفوى اصفهان را چكـونه خراب كردند = كيف هدموا استراحة القوافل الصفوية فى اصفهان " بقلم عبد الحسين سبـنتا فى عدد فروردين ١٣٤٢ من مجلة " ارمغان = هدية العائد من السفر" وعلاوة على هذا كان صديقى العزيز تقى فداكار يروى لنا من ذكريات طفولته التى كان شاهدا عليها كيف هدموا " مئذنة شهرستان " التى كانت فى اصفهـــان على رأس طريق يزد بجوار نهر " زاينده رود " ، وكانت مئذنة ذات شرفتين ، وتفاصيل ذات أهمية بالنسبة للتاريخ والمعمار ، ويطوبها بنوا فى خرائب فرح آباد اصفهان ثكنـــة للجنود .. وبأمر من حدث هذا ؟ بأمر الجنرال

الدولــــة -[1] ، ومن أجله أيضـــا يُبنى مجلس الشيوخ بهذه الضخامـــة ، وأيضا من هذا القبيل ما يقوم به العسكريون من زينة وزخرفة فوق صدورهم وأكتافهم وحمائل أحزمتهم بما يملأ دكان خراز من بضائــــع .

الإنسان المتغرب عينه على يد الغرب وفمه ، ففى عالم أنانيته الصغير ، لا شأن له بما يحدث فى هذا الركن من الشرق ، وإذا صادف وكان من أهل السياســـة ، فإنه يعلم أقل ميل إلى اليمين أو اليســـار فى حزب العمال البريطانى ، ويعرف سناتورات امريكا أفضل من معرفته لوزراء بلده ، ويعرف اسم معلق التايم أو ال " نيوز كرونيكل" وشكله عن اسم ابن عمته المقيم بعيدا جدا فى خراســـان وشكله . ويرى أنهم أكثر صدقـــا من البشير النذير ، وذلك لأنهم أكثر تأثيـــرا فى كل أمور المملكة من أى سياسى أو معلق أو نائب محلـــى . وإذا كان من أهل الأدب أو الكلام، فهو مهتم فحسب بمعرفة من الحائز على جائزة نوبل هذا العام ، أو إلى من ذهبت " الكونكور " أو ال " بوليتزر " . وإذا كان من العاملين فى حقل البحث ، فإنه يضع يدا فوق يد ، ويتجاهل كل القضايـــا الجديرة بالبحث فى البلد ، ويتابع فحسب ما قاله المستشرق فلان بشأن قضاياه الجديرة بالبحث وما كتبه . لكن إذا كان من عوام الناس ومن هواة المجلات الأسبوعيـــة والأوراق الملونة ، فقد رأينا أنه يحلج بطاقة عدة رجال .

على كل حال ، إذا كنا فى وقت من الأوقات ، بذكر آية من القرآن أو حديث منقول بالعربية ، كانت كل الأفواه تغلق ، وكل جدل يخمد ، فإننا الآن فى كل شـــأن نغلق كل الأفواه بنقل عبارة عن فلان الأوربى ، وفى هذا المجال بلغ الأمر حد الفضيحـــة ، بحيث أن النبوءات الغربية للمتنبئين والمنجمين وقراء الفأل ، تحرك

=" جلوروب " السويدى الذى كان فى ذلك الوقت قائد الحامية أو ما يشبه هذا فى اصفهان . كان يقول : شمعوا المئذنة من ناحية ، وأخلوا ما تحتها من نفس الناحية ، ثم لفوا قواعد الأعمدة الشمعية بلحاف صبوا عليه النفط وأشعلوا النار ، وعندما احترقت الأعمدة الشمعيـــة ، نامت المئذنة من نفس تلك الناحية . هذا فحسب .

(1) تطبيقا للشعار القائل " كل من أتى بنى عمارة جديدة" وبابتكار المهندس " فروغى ها" ، لا يبنوا مكانها بل فى أقصى طرفها السوق المسمى بالبنك الملى .

الدنيـــا دفعة واحدة وتخيفهـــا . والآن انتقل الوحي المنزل من الكتب السماوية إلى الكتب الأوربيـــة ، أو إلى أفواه مراسلي رويتر ويونايتد برس ...إلخ ، هذه الشركات العظمى لصناع الأخبار المصطنعة وغير المصطنعة . حقيقة أن معرفـــة الأساليب العلمية وصناعة الآلة والتقنية وأصول الفلسفـــة الغربية يمكن طلبها فحسب من كتب الغرب ، لكن المتغرب الذى لا شأن له بأساس الغرب ولغته ، عندما يريد أن يعلم شيئـــا أيضا عن حال الشرق ، يلجأ إلى الكتب الغربية ، ومن هنا يتسلط مبحث الاستشراق فى الدول المتغربة على العقول والأفكار" ومن المحتمل القريب من اليقين أنه نبات طفيلى ظهر على جذور الاستعمار " ، والمتغرب بدلا من أن يلجـــأ فحسب إلى وثائق الغرب ومصادره عند البحث عن أصول الحضارة الغربيـــة ، يغفل هذا عند بحثه عما هو غير غربى فحسب ، مثلا بشأن فلسفة الإسلام ، أو رسوم جوكية الهنود ، أو كيفية انتشار الخرافات فى اندونيسيا ، أو الروح القوميـــة عند العرب ، وفى كل موضوع شرقى آخـــر، يعتبر الكتابات الغربيـــة فحسب هى المصدر والمعيـــار ، وعلى هذا النحو فإن المتغرب يعرف حتى نفســـه من ألسنة المستشرقين ، وبنفســـه – بنفس ذاته – يعتبر نفسه شيئـــا موضوعا تحت مجهر المستشرق ، ويعتمد على ما يراه المستشرق ، لا على ما هو عليه بالفعل ويحس به ويراه ويجربه ، وهذا هو أقبح مظاهر التغرب [1] : أن تعتبر نفسك لا شيء ، وأن تظن نفسك لا شيء ، وتفقد الثقة فى نفسك وأذنك وبصرك ، وتضع زمام كل حواسك فى يد كل قلم يمسك به عاجز كتب كلاما أو قاله كمستشرق . وأنا فى الأصـــل لا أعلم منذ متى صار هذا الاستشراق حتى الآن صار " علمـــا " ؟! إذا قلنا إن فلانا الغربى عالم فى الموضوعات الشرقيـــة الخاصة باللغة أو اللهجات أو الموسيقى ، فهذا كلام معقول ، وإذا قلنا إنه عالم بالإنسان أو المجتمع فهو معقـــول إلى حدود .. لكن مستشرق بشكل عام يعنى ماذا ؟

---

(١) كأحدث نموذج فى هذا الشأن ارجعوا إلى مقال " در محضر عارف ايرانى = فى حضرة عارف إيرانى " بقلم يان ريبكا فى الأعداد من الأول حتى الثالث من مجلة " راهنماى كتاب = دليل الكتاب " من فروردين حتى خرداد ١٣٤٢، وهو مقال يفيض بالتكريم عن الكشف الذى يتميز به الشيخ شمس العرفاء وكراماته .. إلخ . وتذكروا أن هذا المحترم يان ريبكا جاء إلى ايران كمترجم لخبراء شركة " اسكودا " التشيك ، وفيما بعد كتب أيضا تاريخ أدب لنـــا .

يعنى عالم بكل خفايـــا عالم الشرق ؟! هل نحن نعيش فى عصـــر أرسطو ؟ هذا هو مـا أسـمـيه طفيليات نبتت على جـذور الاسـتـعـمـار . والطريف في الأمـر أن هذا الاستـشـراق أيضـــا مـرتبط باليونسكو ، وله تشكيلات ومـؤتمر كل عـامين أو أربعة أعوام ، وأعضاء ، وهيلمـــان .. ويا لها من حكايات !!

ومنبع الشقـــاء هنا أن رجالنا المعاصرين ، وبخاصة من لهم يد فى السياسة والأدب (وبالمصـادفة أن إحدى سمات السياســة وممارسة السياســة فى الدول المبتـلاة بالتـغـرب أن أغلب السـيـاسـيين من الأدباء ، من الأدباء الكبـار ذوى اللحى والشوارب ، ولنفس السبب أن عكس القضية صحيح أيضا ، أى أن كل سياسى بارز ينبغى أيضا أن يؤلف كتابا) أغلبهم ممن روضهم هؤلاء المستشرقون الغربيون ، لأنهم كانوا يوما تلاميذ فى مدرسة هذا الأستاذ أو حضروا عليـــه ، والمستشرق الذى لأنه لم يتخصص فى أى شىء فى بلده ، وحرم من أى نصيب فى أى فن وحرفة وتقنيـــة وذوق ، ولهذا السبب بتعلمه للغة شرقيـــة دخل فى الخدمة السرية أو العلنية لوزارة الخارجيـــة فى بلده ، وبعدها صُدر إلى هذا الطرف من العالم وراء الآلة صناعة الغرب ، أو دليلها ، أو مع المتـخـصـصين الفنيين فـيـهـا ، ، لكى يقوم أثناء بيع المصنوعات الأوربية بكتابة الشعر شديد الرقة ، وليسعد قلب ذلك المشترى الوفى ، الذى لا يفتأ يقول : أجل ، هل رأيت ؟ هل سمعت كيف أن فلانا يتحدث الفارسيـــة بطلاقـــة ؟!! وبهذه الوسائل لدينا مـستـشرقـــون ذوو كتب وأبحـاث وحفريات وعلوم فى الشعر ومعارف فى الموسيقى .. ثم : فى تلك السوق الرائجة للحاجة إلى التطور الآلى .. ماذا يفعل المستشرق الأوربى ؟ يأتى ويكتب شرحـــا على مـلا صدرا ، أو رأيه عن اعتقاده أو عدم اعتـقـاده فى امـام الزمـان ، أو يكتب بحثـــا فى مناقب الشـيخ پشم الدين كشكولى (١) ، ثم يأتى كل متغرب فى أى مكان ، فيعتمد على هذه الكتابات ، ليس هذا فحسب بل سمعت أن كثيرين على رؤوس المنابر وفى المســاجد " التى تعتبر آخر حصار فى مواجهة الغرب والتغرب " يعطون الكلام حقه نقلا عن كارلايل وجوستاف

---

(١) المترجم :مـلا صدرا هو حكيم ايران صدر الدين الشيرازى وإمام الزمان هو الإمام الغائب ، وپشم الدين كشكولى اسم ساخر بالطبع يقصد به جلال آل احمد كل مشايخ الطرق الصوفية فى ايران .

لوبون وجوبينو وادوارد براون وآخرين ، كآخر وثائق على أحقية فلان أو العمل كذا ، أو مذهب كذا .

ومما لاشك فيه أنني أرى من المناسب جدا أن أنكر أنه لما كان الغرب مجهزا بالوسائل الجامعيـــة والعلمية وبالمكتبات المليئة ، حتى في معرفة لغة أو مذهب أو أدب شرقي ، له أيضا أسلوب علمي ويد أكثر انطلاقا ونظرة أوسع أفقا ، ولا محيص من أن نعتبر قوله ورأيه مرجحين على أقوال الشرقيين أنفسهم وآرائهم ، فليس لديهم هذا المنهج العلمي ولا هذه الوسائل ، ومكتبات ذلك الطرف من العالم وجامعاته ملئت عن طريق الإغارة على الآثار والتحف والمكتبات الموجودة في هذا الطرف من العالم ، فلا محيص من أن تكون في متناول يد الباحث الغربي في مجال معرفة الشرق وسائل أكثر ، ومن هنا ينبغي البحث عن أغلب المصادر عن الشرق في الغرب نفســه ، ربما لأن الشرقي نفســـه لم يصل قط إلى هذه الآفـاق ، أو ربما لأنه لا يزال في أسـار الحذاء والقلنسوة والخبز اليومي ، ولم يجد الفرصة للبحث في اللاهوت والناســوت .. وربما لآلاف الاحتمالات الأخـــرى ، ولا بد أن أفترض كل هذه الإحتمالات . لكن : ماذا تقولون في المجالات التي للشرقي فيها وجهة نظر وللغربي وجهة نظر أخـــرى ؟ وكلاهما يتبع أسلوبا واحدا لكن بعينين مختلفتين وبنظرتين مختلفتين وبلغتين مختلفتين ؟ ألا تصدقون أنه في نظر المتغرب يرجح رأي المستشرق أو الباحث الغربي بأي شكل يكون على رأي المتخصص الشرقي ؟ لقد جربنا بأنفسنـــا هذا الأمر مرات .

وكآخر نقطـــة : إن المتغرب في هذا البلد لا يعرف شيئـــا أصلا اسمه قضيـــة النفط لا، لا ينبس عنها ، لأن صلاح دنياه وآخرته ليس في هذا الأمر ، وبالرغم من أنه يأكل خبزه من نفس هذا الطريق ، إلا أنه لا يوجع رأسه أبدا برائحة النفط ، فلا حرف ولا كلمة ولا إيماءة ولا إشارة .. إطلاقا ، في مواجهة النفط تسليم محض ، وإذا خطا قدما ، فلكي يقوم بأعمال الخدمة والسمسرة من أجل النفط ، يكتب من أجلهم المجلات " ارجعوا إلى مجلة كاوش = التنقيب " ، ويصنع الفيلم " شاهدوا موج ومرجان وخارا = الموج والمرجان والصوان .. " لكن : ولا كأنك رأيت شيئـــا ، ليس المتغرب بالذي يعيش في أحلام اليقظة ، ليس مثاليـــا ، إنه يتعامل مع الواقـــع ، والواقع في هذا البلد : قم بالمرور دون التعرض لصداع النفط !!.

١٠- مجتمع متفسخ

لكن : ماذا عن المجتمع الذى يديره هؤلاء القادة ، أى مجتمعنـــا المتغرب ؟ لنر إذن ما هى سماتـــه .

رأينا من الناحية الإقتصادية والإجتماعية كيف أن مجتمعنا فريسة لجهاز غير متناسق ومتفسخ،خليط من اقتصاد الرعى والمجتمع الريفى والمجتمع الحضرى الجديد ، مع تسلط القوى العظمى الأجنبيـــة الشبيهة بالـ" تراست أو الكارتل " ، لدينا هذه كلها مجتمعة . متحف حى للمؤسسات القديمة والحديثـــة ، وحتى الآن لا يزال حوالى مليون ونصف نسمة من مواطنى الدولة من الرحل . هذه هى الإحصائيـــة الرسمية ، أى الإحصائية التى هذبت وأصلحت ، والعشائر بالفعل أكثر من ثلاثة مليون نسمة ، وسل وزارة الدفاع وإدارة العشائر التابعة للبلاط [1] ، وهم ليسوا مرتبطين بالأرض ، لكنهم عامل تخريب لكل عمران يكون فى طريقهم ، يعيشون على الرعى و٩٥٪ منهم تجسيد للفقر والعوز والتشـــرد ، فهم مشردون طوال العام فى البحث عن أكثر نعم الدنيـــا بدائيـــة أى الماء ، من منازل الصيف إلى منازل الشتاء وبالعكس . لكن طرف الخيط لكل التحريضات السياسيـــة الداخلية والخارجيـــة فى أيدى رؤسائهم ، فهم رسميـــا حراس الحدود وأصدقاء للشاه ، وفى مقابل هذا يجبون كل الإتاوات ، وهم فى الواقع يسرعون خلف كل انعدام للأمن ، ويتركون من خلفهم الخراب والرعب ، يشترك رؤساؤهم فى المراسم الرسميـــة ، وفى كل مناسبة يرسلون برقيات التهنئة ،

---

(١) طبقا لتعداد ١٩٦٢ " نوفمبر " يمثل عشائر ايران ١٥٪ من السكان ، أما الباقى فـ٢٥٪ من سكان المدن و ٦٠٪ من سكان القرى . وبسبب بعض العوامل التاريخية كان الإقطاع والنظام العشائرى يتطوران فى ايران ، وكانت القوة الوحيدة التى يمكن أن تظهر فى نظام الإقطاع هى القوة العشائرية ، وليست مصادفة أن كل الأسر الحاكمة التى وصلت إلى السلطة فى ايران ظهرت من بين العشائر ، حتى فى عهد الثورة الدستورية ومصائبها ، اشترك رسميـــا فى أحداثها عشائر البختيـــارى والملاك الكبار "سبهسالار تونكابونى وآخرون " . نقلا عن ص ٤١٩ من سالنامه، صداى ايران = الكتاب السنوى لراديو ايران سنة ١٩٦٢ والذى ينشر فى طهران بالإنجليزية تحت إسم وبصفة :

Iran Almanac -1963 .Pub. By Echo of Iran.

لكنهم تهديد مستمر لكل من يفكر فى عملية التعمير فى مناطق نفوذهم ، وخان " باشت" لا يزال يأخذ مبلغ كذا سنويا كإتاوة من شركة النفط ، وخان " حيات داودى " يدعى الحكم فى تسليم جزيرة خارك للكنسرسيوم وكان الحق معه ، أما خان القشقائى فقد جلس على العرش فى سويسرا منتظرا الفرصة للعودة وتحطيم الزمان والمكان " ورأينا فى نوروز ١٣٤١ كيف هدمت الحكومة قصرهم فى فيروز آباد وخربت حياتهم " ، وإذا كان البختيـــارى ساكنين ، فذلك لأن الكثيرين منهم من العصر الدستورى فما بعد ، وصلوا إلى مرتبة أصدقاء الشاه المقربين ، ونيابة المجلس ، ورئاســة مؤسسة الأمن ...الخ .

ومن أجل البدء فى أى أمر فى هذا البلد ، ينبغى فى البدايــة إسكان العشائر ، ولا شك بغير الطريقة التى كنا نتبعها حتى الآن .. ليس عن طريق القوة والترحيل الإجبارى على الإطلاق ، بل بطريقة دقيقة ومنطقية ومحسوبة بتحديد أرض صالحة للزراعة لكل فرد ، واعداد الوسائل الجديدة للزراعة لكل جماعة وقبيلة – بضمان شراء فائض الأغنام عندهم –وحث أفراد القبيلة على المشاركة فى بناء منازلهم القبلية ، وتأسيس المراكز الصحيــة والثقافية ومراكز الإصلاحات الفنية لكل قرية حديثة التأسيس .. على كل حال ، مالم تبدل طنب الخيام العشائرية إلى أسس منازل قرويـــة ، وما لم يكتشف رجال العشائر ونساؤها المعرفة بالزراعة ، وما لم يجلس أطفال العشائر تحت سقوف المدارس للدرس ، فإن كل خطوة إصلاحية فى هذا البلد ، إما أنها أكذوبة لخداع العوام ، أو إدعاء طفولى .. ومع هذا ففى مثل هذا الوضع ، فإن سياسة حكوماتنا بشأن العشائر عبارة عن : لنتركهم لحالهم حتى يتلاشوا فى فقرهم ومرضهم المزمن ، ويرتعدوا دائما فى مواجهة الجدب ، وحتى لا يبقى فيهم رمق وبالتالى أثر لوجودهم .

رأينا أيضـــا أن ٦٠ أو ٧٠٪ من الأهالى الغيورين يعيشون فى القرى ، وفى مثل هذه الأرياف التى ذكرت بعض أحوالها باختصار من قبل سواء فى هذا الكتاب أو فى " اورازان= اسم منطقة نائية فى الطالقان " و " تات نشين بلوك زهرا = المقيمون فى صحراء التات ببلوك زهرا " .أرياف فى حالة تحول يوما بعد يوم وتدهور ، حتى تكون

المدن الجديدة فى حالة انتفاخ ونمو يوما بعد يوم ، وقلت : تماما كنمو غدة سرطانية ، ذلك التوسع الحضرى لمدينة تغرس فى كل ناحية من الصحراء كالفطر، لكن لاماءها ولا كهرباءها ، ولا حاراتها ولا شوارعها ، ولا شبكة التليفونات والمجارى فيها نفذت من خطة مسبقة .. فكيف يمكن أن نسميها بشىء آخر إلا بالنمو السرطانى ؟ نقتلع الناس من تلك القرى ، ونأتى بهم إلى هذه المدن ، ولا فرق في الحقيقة بين هذه المدن وتلك القرى ، إلا أنه يوجد عمل فى المدينة وبشكل نادر، وإن وجد فهو موسمى وفصلى ، لكن لا عمل قط فى القرية ، وبهذا التطور الكاذب الذى أخذوا يلعبون لعبته فى العشرة سنوات الأخيرة آخذين فى زيادة طبقة صغار الملاك ، فقد زادت الأمور سوءا ، ولو كنا قد قوينا طبقة صغار الملاك منذ مائتى سنة ، لكان لدينا الآن على الأقل دستور محترم . لكن الحديث الآن عن " التعاون" ، وأصبح تقسيم الأراضى بصورة فعلية بهدف خلق صغار الملاك أمرا قديما ، فتقسيم الأراضى بهذه الصورة يعد أكبر حائل أمام الميكنة الزراعية ، فلا الآلة تتحمل الملكية الصغيرة ، ولا المالك الصغير قادر على إعداد الوسائل الآلية للزراعة الحديثة ، ومع الروح الانفرادية وأحادية السير الموجودة عندنا ، لا يمكن أبدا أن نصدق أن يتجمع أغلب أهل الريف معا وبمبادرة منهم ، ويجمعون رأسالمال ، ويستوردون الآلات ، ولأقصر الحديث فى هذا المجال ، ولأتركه لأخى حسين ملك ، الذى قدم فى أعداد مختلفة من مجلة " علم وزندكى = العلم والحياة " خطة دقيقة جدا للزراعة ، وجعلها – فى وقتها – فى متناول يد الرأى العام.(١)

على كل حال ، ما لم يرفع شر التجنيد الإجبارى عن رؤوس القرى ، وما دام وسواس المدينة قائما ، وما دام الخوف من مرور العشيرة باقيا ، فلن يعمر الريف ، وما لم تمد الطرق إلى القرية وتصل إليها الكهرباء ، فلن تضاء منازل القرية ، وما لم تملك كل ثلاثين أو اربعين قرية مركزا لصيانة الآلات الزراعية ، فلن تكون

---

(١) ارجعوا إلى : علم وزندكى أعداد سنة ١٣٢٨– الكتاب الرابع – الكتاب الخامس – الكتاب السادس " كلها خاصة بالإصلاح الزراعى – والمرة الأخيرة فى الكتاب العاشر من نفس المجلة آبان ١٣٢٩– وكل هذا قيل وكتب قبل التقسيم الفعلى للأراضى .

هناك ميكنـــة زراعيـــة ، وما دام الحديث يدور حول الملاك الصغار ، وما لم يقم إلى جوار كل مدرسة فى القرية فصل لتعليم الميكانيكا ، ستظل الآلة غريبة عن القريـــة ، وإذا فتح الطريق لها إلى القريــــة ، فلن تصبح شيئا إلا عامل تخريب وتحريض وفتنـــة .

أما المدن ، هذه الأعضـــاء السرطانيـــة التى هى يوما بعد يوم فى حالة توســـع وامتداد ، مع انعدام تناسق وانعدام أصالـــة ، ويوما بعد يوم تطلب طعاما أكثر من مصنوعات الغرب ، ويوما بعد يوم تتوحد أكثر فى الانحطاط وانعدام الجذور والقبح . كل منها ميدان بتمثال مطابق للنشرة وسط الميدان ، بواكى الأسواق المهدمة ، محلات متباعدة ، وبدون ماء أو كهرباء أو تليفون ، وبدون خدمات اجتماعيـــة ، وخالية من مراكز التجمعات والميكنة ، والمساجد المهدمة ، والحسينيات القديمة المنهارة والتكايا التى لا معنى لها ، ولا حزب هناك ولا ناد ولا منتزه ، وعلى الأكثر دار أو داران للسينما ، كل منها ليست شيئا إلا وسيلة للإثارة الجنسيـــة ، ويمكن فيها قتل الوقت فحسب أو التسلية التى لا رابط بينها ، فدور السينما عندنا لا هى تعلم ولا هى تساعد على التطور الفكرى عند الناس ، ويمكن أن نقول بجرأة أن السينما فى هذا الجزء من العالم مجرد " حصالة " يضع فيها كل واحد من سكان المدينة كل أسبوع تومانين أو ثلاثة ، حتى يصير المساهمون الأصليون فى " مترو جولدن ماير " مليونيرات (١) ، وصناع الفكر عند سكان المدينة عندنا هم هذه السينمات أو الأذاعة الحكومية أو المجلات المصــــورة ، وكلها تخطو خطوات تنتهى بالـ " كونفيرمزم " أى جعل الجميع نموذجا واحدا ، فالبيوت يشبه بعضها البعض ، والملابس كلها على نسق واحد والحقائب ، والأطباق والأكواب البلاستيك ، والأشكال والبوزات ، وأسوأ من كل شيء أسلوب التفكير ، وهذا أكبر خطر للحياة فى المدن الحديثة عندنـــا .

---

(١) يدفع سكان طهران ٢٢ مليون تومان للسينما كل شهر ، وصاحب السينما يكسب من الفيلم الواحد سبعة أمثال قيمته الأصليـــة . هذه المعلومة موجودة على رأس مقال نقلته مجلة " خواندنيها = ما هو جدير بالقراءة " - عدد ٩٦- ٣٠ مرداد ١٣٤١من زميلتها الأخرى " روشنفكر = المستنيـــر " .

وإذا كان " الكونفيرميزم" في الفكر والحيـــاة في ظروف مجتمع متقدم يصنع الآلة خطرا إلى هذا الحد ، لأنه يجعل الإنســـان في خدمة الآلـــة ، فهو بالنسبة لنا الذين نستهلك الآلـــة مضاعف الخطر ، إنه يجعلنا بقوة مضاعفة عبيدا للآلـــة . فالغربي خادم الآلـــة يعرف على الأقل شيئـــا عن الديموقراطيـــة ، وذلك لأن الحـزب وراء الآلة ، لكن نحن الذين ليس لنا حـزب ، وهم يقللون من تجـمـعـاتنا المذهبيـــة التي هي المدارس الدينية يوما بعد يوم ، كما أننا في أسر نظام حكم من عهد دقلديانوس ، فإذا كان قد تقرر أن ندخل جميعـــا في خدمة الآلـــة ، وأن نكون جميعا نموذجـــا واحدا ، فواويـــلاه ، لن يبقى أصلٌ بعد ولا فرع ، وفي مثل هذا البلد ، لا ينبغي أن تكون الأجهزة الكبرى التي توجه الأفكار تحت سيطرة الشركات "مثل التلفزيون ، فلسنا في امريكا " أو تحت سيطرة أقوال الحكومات " مثل الأذاعة فلسنا هنا من دول ما وراء الستار الحديدي " ، وفي بلاد في حالة نمو مثلنـــا ، ينبغي أن تكون مثل هذه الأجـهزة لصالح المجتمع وتحت سيطرة المجتمع ، وتدار بمجلس منتخب من الكتاب والمفكرين دون أي غرض مادي أو دعائي خاص.

ثم ، منذ فترة وقد جرت العادة على أن يتحدث الجميـــع عن خطر الملكيات الكبرى في الأراضي ، وخطر الملكيات الكبرى غير المنقولة ، غافلون عن أن الملكيات الكبرى للأراضي لا تكسب اليوم ، بحيث أنه بداية من الشخصيـــة الأولى في الدولـــة إلى الآخرين جميعا يفكرون في توزيع أملاكهم ، وقد اعتبروا خطأ أن هذا الأمر هو الحل لكل المشكلات ، لكن ما يعد خطرا اليوم هو الملكيات الكبيرة المنقولة : المال والأسهم والسندات ورؤوس الأموال التي وضعت في بنوك الخارج كودائع ، والقوى الفرديـــة التي وجدت القوة في أمور الصناعة ، قدرة المساهمين الكبار والتراستات " التجمعات الماليـــة " المحليـــة خاصـــة ما يمكن من بينها أن يقال عنه أنه يدير الصناعات الثقافيـة . ينبغي أن نفكر في خطرها ، وأن توضع خطة لتأميمها أو جعلها جماعيـــة في خدمة المجتمع .

ومن الناحيـــة السياسيـــة : نحن نعيش تحت لواء حكومة مستبدة لكنها في نفس الوقت متسيبـــة ، بكل هذه المظاهر المتسيبة عن الحرية فيها كواجهة ، هي مستبدة من وجهة نظر أنه لا مفر هناك في مواجهتها ولا أمل ولا حريـــة ولا حق ،

ومتسيبة من وجهة نظر أنه مع وجود كل هذا ، من الممكن أن تتنفس وأن تصرخ في بئر دون أن تظهر صوتك .. هكذا كما ترون ، لأن كل رجل عادى داخل الحارة – حتى وإن كان يرتدى ملابس الخادم المسلح للحكومة ، أو صار من القائمين على الرقابة ، لا يزال في أعماق قلبه نفس الرجل غير المبال ، الخالى من التعصب ، والمؤمن "بالتفويت" ، ولم يصبح حتى الآن نظرا لحتميـــة الآلة جافا متحجرا ومجرد صامولة أو مفتاح في يد التشكيلات ، وويل لنا يوم أن نفقد أيضا هذا الترجيح للتخلف والبدائيـــــة .

والجيش في هذا البلد مسلط على كل شيء ، والعامل الحاسم في كل الأوضـــاع ، والمستفيد الأول من كل مزايـــا البلد ، وتنفق حوالى ٣٠٪ من ميزانية الدولة على الحفاظ على الجيش ، وفي الحقيقة أو الباطن حوالى ٥٤٪ ، علاوة على كل المساعدات الأجنبيـــة التى لا ترد والتى تنمى القوات المسلحة فحسب أمام وجه البؤس العام. دعنا من هذا . فإن التقنين في المملكة وهو منذ سنوات في همود ، قبل أن يبتلى بالفترة والهمود الفعلى . والسلطات القضائيـــة والتنفيذيـــة تتدخل كل منهما بشدة في شئون الأخرى ، والمؤسسات الإداريـــة لا تزال حول ارتخاء عهد الرعاة ركاب البغال ، كل هذه أعراض ، والسبب الأصلى هو ذلك الجســد الضعيف الذى لا يتحمل مثل هذه الرأس الضخمة المطولة المليئة بالادعاء .[1] وعندما تسأل : لماذا كل هذه القوات العسكريـــة ؟ يقولون : من أجل الدفاع عن الحدود وحفظ الأمن والوحدة

---

(١) انتقل النقاش حول القوات المسلحـــة في هذه الأيـــام " ١٣٤٠" حتى إلى الصحف واسعة الإنتشار ، ربما بسبب ضغط أجنبى . ارجعوا إلى مقالتى " ارزيابى نقش ارتش = تقييم دور الجيش " لداريوش همايون في عددين من اطلاعات صادرين في ١٩ خرداد و١٦تير سنة ١٣٤١– وهذا الـ " داريوش همايون " واحد من عدد من الكتاب هم زبدة جريدة اطلاعات " المترجم : وهو أيضا كاتب المقال البذىء الذى أدى إلى أحداث قم التى تطورت وأطاحت بالشاهنشاهية " وهذه هى بعض عبارات المقال الأول " إن المؤسسة العسكرية في ايران بالنسبة لمصالح البلد وامكاناته متضخمة بشكل لا يجعلها تتنحى جانبا عن النمو الإجتماعى والإقتصادى .. ومقتضيات الدفاع في محلها من الأهميـــة ، لكن دور الجيش في مجموعه داخلى " وفي آخر نفس المقال " في بلد مثل ايران لا يمكن تجاهل فعالية القوات المسلحة ووسائلها في أمر بنية الدولة " . وهذه أيضـــا بعض العبارات من المقال الثانى " جيش ايران بما يقترب من ١٥٠ألف فرد تحت السلاح ، والنصيب الكبير من ميزانية الدولة والدخل القومى ، وعشرات الآلاف من الرجال الذين ينضمون إلى صفوفه أو يخرجون منها ، مؤسسة اجتماعيـــة لا تتجزأ ، ويمكن أن يعهد إليها بمسئولية حفظ الاستقلال والأمن . وهل لم يفهموا حتى الآن في بلدنا أن الاعتماد على الترتيبات الدفاعيـــة الدولية ، يجعل قيمة جهازنا العسكرى في الحضيض ؟

القومية .. لكن في الحقيقة ؟ رأينا كيف أن الحدود قابلة للاختراق تماما أمام الشركات، ورأينا كيف تفسخت الوحدة القوميـــة من الداخل ، وفي الأصل : أي هجوم حدث حتى يكون الدفاع لازما في مواجهتـــه ؟!!

من كل هذا العسكر ، وكل هذا السلاح ، لم يتأت عملٌ لا في شهريور ١٣٢٠ "١٩٤١" ولا في ٢٨ مرداد "١٩٥٣" ، والاحتفاظ بمائة وخمسين ألف شخص مسلحين حتى أسنانهم – ولا جدال في أن هذا هو العدد الرسمي فحسب – من صفوة شباب البلد واطعامهم وتربيتهم ، هو مجرد منح الدوام والطمأنينة عن طريقهم لحكومة شخصية . هذا هو معنى التشكيلات العسكرية لحكومتنا ، تماما من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وهي غافلة عن أنه في هذه السوق الرائجة للتطور والتراكم في البنية المنتظرة ، لا صلاح على الإطلاق في أن تكلف هذه السواعد الفعالة باسم الخدمة في الجيش بأعمال لا تساعد في التنمية القوميـــة أدنى مساعدة ، وفي الأيام التي نعيشها لا ينبغي – باسم التجنيد الإجباري – إخلاء القرى إلى هذا الحد من القوى الحية للعمل ، لكي يأتوا إلى المعسكرات ، ويتعلموا فنون القتال مع عدو غير معلوم ، لا يمكن وضع اليد فوق اليد استسلاما ، أمام دفع – على الأقل– ثلاثمائة ألف ساعد متمرس إلى حمل السلاح والتدريب على أعمال ، لم تعد تهمنا منذ حادثة حصار هرات فصاعدا ، وهذا أيضـــا في زمن عد فيه الدفاع الجماعي هو المطروح في بداية برنامج الدول الصناعيـــة المتقدمـــة .

وفي العصر الذي يحدد فيه مصير الحكومات والحدود الدولية على مناضد المباحثات وليس في ميادين الحروب ، في مثل هذا الزمان يكون الحديث عن كسب جديد من المدافع المهداة باعثا على السخرية ، أو تكون العروض العسكرية في ميدان " التوبخانه" ، واعداد فرق المظلات والصاعقة ، تنفع فحسب في قمع مظاهرات شباب الجامعة ، أو إسكات طلاب المدرسة الفيضية ، ومن أجل إخماد هذه المصائب الصغيرة، لا حاجة على الإطلاق لكل هذا الســـلاح .

وبصرف النظر عن الحب والبغض ، لننظر إلى اليابان أو إلى ألمانيـــا اللتين استطاعتا فحسب بنزع السلاح الجبري بعد الحرب العالمية الثانيـــة أن يجدا القدرة

على خلق اقتصاديهما من جديد من قيعان خرائبهم ، ويقومان بهذا الأمر بحيث أنه بعد ما يقرب من عشرين سنة ، تدق أجراس خطر منافستهما الاقتصادية للدول المنتصرة على رؤوس كل أسواق العالم الآن ، ولو كانت كل واحدة من هاتين الدولتين تريد كماكانت قبل الحرب أن تهدر الجزء الأعظم من قدرتها البشرية والاقتصادية في سبيل التسليح ، هل كانت تستطيع أن توفق اليوم في تجديد البنية السياسية والاقتصادية عندها ؟ في مثل هذه الأيام التي اعتبر فيها آخر دواء لألم الجزائر بعد ثماني سنوات من الحرب وسفك الدماء ، هو التنازل عن نفط الصحراء في مقابل الاستقلال ، بماذا يجدي الجنود والسلاح بعد ؟ اللهم إلا قتل الأشقاء ؟ وفرنسا ، بكل هذه القوة ، وكل هؤلاء المظليين والكوماندو ، لم تستطع أن تقمع عشرة مليون جزائري ، والآن من نواجه نحن بمائة وخمسين ألف جندي ؟ والصلاح في أن نكتفي فحسب بالشرطة والجاندرمه ، وإذا لم يكن من الممكن بالفعل الموافقة على هذا الاقتراح الجريء ، فمن المحتم والمؤكد أن تبدل كل المعسكرات إلى مراكز لتعليم الصناعات والحرف التي يمكن أن تعمر الريف ، من أجل تعليم جنود اليوم وهم سكان الريف في الغد بما هو لازم من الفن والتقنية والمعلومات العامة والخاصة في كل مجال .(١)

---

(١) في الفترة ما بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية لهذا الكتاب ، أعدت وزارة المعارف – بضجة ودعاية عظيمة –جيش التعليم ، أي أن الذين انتهوا من الدراسة الثانوية ، يختار من بينهم بالقرعة بعض الشباب ، بدلا من أن يؤدوا الخدمة العسكرية الصرفة ، وبعد أربعة شهور من الخدمة في فصول الصيف ، يرسلون إلى القرى بلباس الجندية للقيام بالتعليم وبمرتب قدره مائة وخمسين تومانا في الشهر . وحتى الآن نفذوا دورتين أو ثلاث دورات ، وفي كل دورة أرسل إلى القرى من ألفين إلى ثلاثة آلاف من هؤلاء المجندين المعلمين ، باستعراضات مفصلة قروية ومدنية . وهو في الظاهر أمر مفيد ، ويحول دون ضياع وقت عدد قليل من هذا الجيش من حملة الثانوية " وهم عشرون ألف كل سنة " . لكنه في الواقع أكبر تقدم نحو " عسكرة " ثقافة الأمة . وسواء أكان فخرا أو خيانة ، فإن ابتكار هذا الأمر يرجع إلى الدكتور برويز ناتل خانلري الشاعر سابقا ، ثم النائب فيما بعد ووزير التعليم الحالي ، ونتاج هذا العمل من وزارة التعليم يكون مفيدا ما إذا كان تحت إشراف مدارس المعلمين العليا وليس تحت ظل الجيش ، وبقبول أكبر عدد من المتطوعين وبشرط اعفاء هؤلاء المتطوعين من الخدمة العسكرية ، على كل حال وفي رأي كاتب هذه السطور ، كان هذا الإجراء عمليا شديد الضرر بالبراهين التالية :

(ا) بهذه الخطة رفع عن كاهل وزارة الحربية ٣٠٪ من ميزانيتها التي طلب تقليلها بضغط من أمريكا ، ووضعت على كاهل وزارة التعليم .

(ب) أن عمل المعلم الذي كان قد وجد اعتبارا أخر الأمر بعد زيادة مرتبة سنة ١٣٤١ في وزارة درخشش ، وبعد أدنى ٥٠٠ تومان ، جعلوه من جديد بلا إعتبار ومراد فالسخرة.

(جـ) أصبحت وزارة التعليم ، وكانت أبعد المؤسسات الحكومية عن ألاعيب الجيش بهذا الشكل تحت مهاميز العسكر .

النقطة الأخرى التى تلفت النظر فى نطاق الأمور السياسيـــة ما نتظاهر به من ديموقـراطيـة غـربيـة ، أى نقـوم بالتظاهر بالديموقـراطيـة ، لكن لا خـبـر هناك عن الديموقراطية الغربية نفسها وشرائطها وموجباتها : حرية الحديث وحرية إبداء الرأى ، وحرية الاستفـادة من وسائل الإعلام التى هى من مـحتكرات الحكومة ، وحرية نشر الآراء المخالفة لسلطة الحكومة الحاكمة . لا يوجد أى منها ، لكن حكوماتنا تتظاهر بالديموقـراطيـــة من أجل اسكات هـذا أو ذاك من الحلفاء السياسيين الأجانب الذين ينبـغى أن يدفـعـوا الديون . رأينا أن الديموقـراطيــة الغـربية تسـتند على الأحـزاب ، والأحزاب تابعة لاقتصاد متقدم ، وإلا تبدلت إلى شلل سياسيـــة ولدينا منها الكثير . وهذه الشلل التى تشبه الأحـزاب عندنا إن لم تكن تقليـدية ولعـدة أيام ، أو لم تكن قـد تشكلت من أجل الحصول على مغنم ، فهى بالحتم لا تخرج عن صورة فرقة من الفرق ، فرقة لما لم يكن لديها يد مطلقـــة فى العمل أو فى الصراع السياسى " فلا نادى ولا صحيفة حرة ولا سماح باجتماعات حزبية وشعبيـــة " فقد قنعت بالعمل السرى والتظاهر بالاستـشـهـاد ، وهذه الفـرق سـواء كـانت ذات لون سـيـاسى أو لون مـذهبى ليست إلا نواة مقاومة ربما تنفع فى يوم من الأيام ، ذلك لأن أعضـاءها قد انقطعوا عن الناس ، وليست أيديهم فى النار ، وأنينهم بارد ، والحد الأقصى للعمل الذى يمكن أن يتأتى من هذه الشلل ، هى أن تكون أسـاس حركة احتمالية من أجل سياسة خارجية ما يلزمـها أن تعطى لعملها أرضيـــة محلية وقوميـــة ، وأغلب الانقلابات العسكرية والتغيرات الحادة للحكومات فى هذا الركن من الشرق تقوم باسم هذه الفرق ، إن لم تكن فى أيدى هذه الشلل ، فهى فى الحقيقة تتم طبقا لرغبة سياسيـــة أجنبية معينة . على كل حـال ، مـا هو مـسلم به أننا لا نسـتطيع فى مـثل هذه الأوضــاع أن نقلد الديموقراطيـــة الغربية ، فليس مـسموحـا لنا بهذا التقليد ، وليس فى مصلحتنا ، والتظاهر فـحسب بالديموقراطيـــة الغربية هو فى حد ذاته إحدى علامات الابتلاء بالتـغـرب ، وإذا كـان يحـدث فى عصـر مـا أن يـأتى الملاك من القرى بسـيـارات النقل يحملون الناخبين حتى الصناديق ، فقد رأينا فى السادس من بهمن وما بعدها أنهم كانوا يضعون صندوق الأصوات خاليا علنا أمام دواوين الوزارات والإدارات ، ويوزعون منشورات فحواها أن مرتبات الشهر التالى سوف تصرف بابراز بطاقة الانتخابات ، نفس حكاية " هات الحمل الثقيل بجوار الحمار " قد تكررت ، وبهذا الأسلوب كم من الإدعاءات حول حرية الانتخابات ، وكثرة عدد الناخبين .

يمكن فحسب الحديث فى هذا البلد عن الديموقراطيـــة ، أى يمكن فحسب أن تبدو آراء الناس وإرادتهم عندمـــا :

أ- تسلب السيطرة من القـوى الكبرى الداخلية وملاك الأراضى وبقـايـــا الإقطاع ، فهى قوى تقف أمام تنفيذ الإرادة الحـــرة للناس .

ب- لا تكون وسائل النشـــر والدعاية والإعلام حكرا على الحكومات الحاكمة بل تكون أيضـــا تحت سيطرة المعارضـــة .

ج- أن تكون الأحزاب على شكل واقعى ، وأن تجد القدرة على العمل ، ليس فى لباس شللية حقيرة سياسيـــة ، وأن تجد حيز عمل أوسع .

د- أن يحال دون تدخل قوات الأمن " مباحث أمن الدولة " فى الأمور الداخلية بحسم .

فى وقت ما ، ارتفعت صيحات الاستغاثـــة من انعدام الحرية ، لأن آخر من فى يده أصوات الناس بصرف النظر عن العمدة والجاندرمه والحاكم والملك ورئيس المنطقة، هو الشخص الذى كان يعطى أجر الفترة التى يظلها الناخب عاطلا ، حتى يحمله لمدة نصف يوم إلى الصندوق ويرده ، لكن الآن والصناديق كلها تملؤها مباحث أمن الدولة دفعة واحدة ، كما أنها تقدم أيضـــا قوائم النواب .. ماذا يجب أن نقول؟ حتى الصراخ لم يعد يجدى فتيـــلا !! وكلما انهزم المفكرون فى البلاد ، انتصرت مؤسسة الأمن ، وكل ما غزلوه صار طرف خيط فى يد هذه المؤســســـة المحدثة التى ترتب الأمور بالإرهاب والتهديد والوعد والوعيد والسجن والنفى والتشريد ، بطريقة لا تجعل بعدها شيئـــا يتحرك . وتماما فى الموعد يفتتح المجلســـان ، كباقتى ورد .. وفى النهـاية : لماذا صـــار الأمـر هكذا ؟ لأن الناس يفـتـقـرون إلى أى علم بمفـهـوم الديموقـراطيـــة ، وإن كـان لديهم ، فلم يروا خـيـرا من كل هؤلاء المدعين للمطالبـة بالحريـــة ، بحيث أنهم الآن بمثل هذا الصمت والسكون ، قد أسلموا زمام مصيرهم إلى أيدى من حلوا محل حرية الفكر . على كل حال : مالم يخترق مفهوم الديموقراطية بتعليم وتربية مستمرين عمق المجتمع ، وما لم يعرف الناس الأسلوب الحزبى بمعناه الصحيح والدقيق ، فإن الحديث عن الديموقراطيـــة فى هذا البلد خليق بلحى مجلس من الرجال عبرت حمرهم الجسر " = قضيت مصالحهم " ، ويكونون فى حاجة إلى أصوات قومية من أجل تبرير مراكزهـــم .

١١- ماذا يفعل التعليم والجامعـــة ؟

والآن لنلق نظرة إلى المجتمع الموجود بالفعل فى ايران من كوة التعليم ، وهى الكوة التى كانت نظرتى دائما فى إطـــارها .

من ناحيـــة التعليم ، نحن فى الحقيقة نشبه الحشائش البرية ، ثمة أرض ، وحبة من مكان ما أتت بها الريح أو فى منقار طائر ، تقع عليهـــا ، ثم يساعد المطر ، لينبت شيء . تماما بنفس هذه الطريقة ، حياة نباتيـــة وبالمصادفة أيضـــا وبريـــة . نبنى المدارس بكل طريقـــة نعرفها : من أجل رفع أسعار الأراضى التى حول المدرســـة ، أو للاستـعراض ، أو كرد فعل بعض المظالم التى فعلها فلان البلطجى وما سلبه فى إحدى الوقائع السياسيـــة ، أو بالسعى الصادق لأهالى بلدة ما ، أو بوقف ثلث أموال المرحوم فلان . وعلى كل حال بمجرد أن تبنى المدرســـة ، يصل إليها فرع من الفروع المثبطة لتشكيلات التعليم ، وأيضا بعد العديد من المساعى والمصاعب . ولا خطـــة مسبقـــة على الإطلاق ، أو أى نوع من المدارس يلزم لأى مكان . ويا لها من مدارس مظهريـــة !! ولا يزال الإهتمام بالكم مسيطرا على عقل التعليم ، والهدف النهائى للتعليم ؟ قلت : تربيـــة المتغرب ، أو اعطاء أوراق لا قيمة لها ، تحديد القيمة الإستخدامية للدراسات على أيدى أناس يستطيعون فحسب أن يكونوا طعاما للتشكيلات الإداريـــة الآتيـــة ، ومن أجل الارتقاء إلى أى منصب ، يحتاجون إلى شهـــادة . وليس هناك تناسق فى أمور المدارس .، فعندنا مدارس من كل نوع : مذهبية وإسلاميـــة وإيطالية وألمانيـــة ، ومدارس تربى نصف رجل دين وطلاب علوم دينية ، لدينا مدارس فنيـــة ومدارس حرفيـــة وأنواع أخرى ، لكن لا يوجد فى أى مكان سجل يبين ما هى نتيجة كل هذا التنوع ؟ ولماذا توجد كل هذه المدارس ؟ وماذا تربى ؟ وماذا يعمل خريجوها بعد عشرة سنوات ؟ ونفس هذا التنوع إن كان بمعنى تقسيم العمل ، واستجابة لتنوعه ، وللذوق والسليقة ، وقدرة الناس وإدراكهم ، فهو مفيد جدا ، وهو فى حد ذاته علامـة من علامـات الحريـــة ، لكن تنوع العمل فى مدارسنـــا نوع من البرية ، نفس تلك الحبة التى تخضر فى كل أرض بشكـــل ، فالفرق بين المدارس الحكومية والمدارس الأهلية فرق ما بين السماء والأرض ، وكذلك الفرق بين مدارس طهران ومدارس الأقاليم ، نفس البرامج وعلى الفرض نفس المعلم ، لكن فصولا تحتوى على ثمانين تلميذا وأخرى تحتوى على خمسة وعشرين .. وهلم جرا . ثم أنه لا يوجد فى برامج المدارس أى أثر للإستناد على التقاليد ، لا يوجد فى أى

مكان أى أثر قدم من الثقافة السابقة ، ولا مادة من مواد الأخلاق والفلسفة ، ولا خبر فيها عن الآداب ، لا توجد أية علاقة بين الأمس والغد ، أو بين المنزل والمدرسة ، أو بين الشرق والغرب ، أو بين الجماعة والفرد . والتقاليد التى رأيناها قد سقطت مسلوبة الروح ، كيف يمكنها أن تؤثر فى برامج المدارس ؟ والمنزل الذى أساسه فى حالة انهيار ، كيف يمكن أن يكون أساسا للمدارس ؟ لكن على كل حال لدينا كل عام حوالى عشرون ألف ممن أنهوا الدراسة الثانوية وطف حتى نطوف "= العدد فى الليمون" .. هم الطعام القادم لكل المتاعب والعقد والأزمات ومن المحتمل الانتفاضات أيضا . فهم رجال بلا إيمان ، فارغون من الحماس ، أدوات بلا إرادة فى أيدى الحكومات ، كلهم متفاهمون وجبناء ولا يصلحون لعمل ، وربما لنفس الأسباب ازدهرت المدارس الدينية والإسلامية فى العشرة سنوات الأخيرة دفعة واحدة ، لأنه فى هذا النوع من المدارس على الأقل لا يُحس بأى خطر على إيمان الأولاد ودينهم ، وهم يأتون من عائلات متمسكة بالدين ، ولم يمسخوا حجارة بعد من تأثير النفس المسموم للغرب ، لكن ما الفائدة وتحجر البيئات المذهبية سوف يجعل منهم متحجرات من نوع آخر ، وأيضا ما الفائدة وهذه المشكلة أى مشكلة الدينى وغير الدينى والتعليم وعدم التعليم هى مشكلة المدن فحسب ، أو من ترف الإقامة فى المدن ، ومن بين خمسين ألف تجمع سكانى فى البلد لا يزال حتى الآن أربعون ألف منها لا تعرف أى نوع من أنواع المدارس [١] وليت الذى فيها ليس فيها ، لأن البلاء فى هذه الحالة يكون واحدا ، ويتساوى كل الأماكن . لكن البلاء الآن ألف بلاء ، وهو فى كل مكان من نوع ما : مشاكل الكتب المدرسية ، ونقص المعلمين ، وازدحام الفصول، واختلاف السن ومستوى الذكاء واللغة والمذهب بين التلاميذ ، الاختلاف بين المعلمين أنفسهم بين متعلمين وغير متعلمين لأصول التعليم والتربية ، وكون المدارس كالقبور ، وانعدام الرياضة البدنية والموسيقى داخلها ، وآلاف المشاكل الأخرى ، وأهم من هذا كله

---

(١) يدعى جيش التعليم مع كل استعراضاته أنه أقام مدارس مؤقتة فى عشرة آلاف قرية ، وهذا خبر جيد بصرف النظر عن المضار التى ذكرتها آنفاً .

انعدام الهدف من التعليم ، وفوضى البرامج . وليس معلوما حتى الآن : من أجل ماذا ينبغى أن تجتاز المرحلة الإبتدائيـــة؟ ولأى هدف ؟ ومن أجل الوصول إلى أية نتائج ؟ والمدرسة الثانوية ؟ والجامعة ؟ وويلاه من هذه الجامعــــة التى ينبغى أن تكون مركزا لأكثر الأبحاث العلمية والفنية والأدبية حيوية وأبرزها .. اسمحوا لى بأن أتناول أمور هذه الجامعة قليلا .

لدينا جامعة طهران ، ولدينا الجامعة القومية " ملى " ولدينا جامعة شيراز وجامعة خراسان وجامعة جنديسابور.. وهلم جرا ، أما الجامعة القومية فهى دكان من أجل جماعة من المفكرين المتغربين الذين عادوا من أوربا وامريكا ، وسمعوا التأفف من تقاليد جامعة طهران التى تحجرت بهذه السرعة ، فذهبوا واعتمادا على أصحاب المناصب الأعلى ، فتحوا دكانا لأنفسهم .

إننى أستطيع بصعوبة أن أسمى هذه المؤسسة جامعة ، أما عن كليات أو جامعات الأقاليم ، فقد حدث عندما أسس پيشه ورى فى آذربيجـــان جامعة تبريز كدليل على الاستقلال أو التمتع بالحكم الذاتى لتلك الولاية فى حدود قانون مجالس الولايات والأقاليم " ولم يعد عنها أثر أو منها خبر " . وعندما خمدت فتنة آذربيجان ، رأوا أنه لا يمكن لهم أن يطعنوا فى هذا الميراث ويلغـــوه مثل بقية مخلفات تلك الجماعة ، كما أنه لا يمكن الإحتفاظ بها ، لأنها كانت بقية بضاعة " دموكرات فرقه سى = جماعة الديموقراطيين " .. إذن ماذا نفعل ؟ نأتى ونؤسس جامعات فى بقية الأقاليم أيضـــا ، وعلى هذا النحو لدينا كل هذه الجامعات ، وهو خير بلا شك ، على الأقل لإيجاد عمل لكل هؤلاء المرشحين للأستاذية الذين يعودون من اوربا .. ولكن أى عمل لكل منها ؟ هذا ما لايعلمه أحد حتى الآن .. وفى أى فرع من فروع المعرفة تخصص كل منها ؟ ولأى تخصص يصلح جو كل إقليم من الأقاليم ؟ وأيها تعمل أفضـــل من الأخرى ؟ وما هى النتيجة التى تحصل من أعمالها ؟ كل هذه أسئلة يعلم الله تعالى متى يمكن تلقى أجوبة عليهـــا . أما جامعة طهران مع كل سبقها وأهميتها وبكل تقاليدهـــا التى انتهت ، واستقلالها الذى حطم ، مهما يكن من أمر ينبغى أن تكون كما سلف ذكره مركزا لأكثر الأبحاث حيوية وأبرزها وأكثرها امتيازا ..

لكن هل هى هكذا بالفعل ؟!

ذلك الجزء من الأقسام الجامعية التى تتعامل مع التقنية والصناعة والآلة ، تصنع فى آخر مراحلها قائمين جياد بالصيانة للمصنوعات الغربية ، فلا بحث جديد ، ولا اختراع ولا اكتشاف ولا حل لمشكلة .. ولا شيء قط : نفس القائمين بإصلاح الآلات أو المجمعين للآلة والمصنوعات الغربية ، أو المقدرين لمقاومة المواد الخام وأمثال هذه الخزعبلات ، وإن كان ثم شيء من البحث والتتبع العلمى ، فهو فى عمل مؤسسة الرازى ومؤسسة باستير ، وأنا لا أدرى هل أعتبرهما ملحقين بوزارة الزراعة أو بوزارة الصحة أو بمركز مؤسسة باستير فى باريس . ويمكن القول أيضـــا أن كلية الطب على المستوى الدولى ليست أقل من كليات الطب الأخرى ، لكنى أضيف على الفور أن هذا التفوق فى حد ذاته يرجع إلى نسبة الوفيات المرتفعة جدا فى هذا البلد ، ولى صديق طبيب كان يدرس فى فرنســـا ، وعند البحث عن أعراض المرض الجلدى المتوطن " حبة الشرق " طاف أستاذه مع كل من يعملون تحت إشرافه ما طافوا وبحثوا ما بحثوا ، ولم يستطيعوا أن يظفروا بمريض بهذا المرض ، وفى النهاية أشار نفس هذا الصديق إلى آثار المرض فى وجهه ، وقبل أن يُرى أثر هذا المرض المتوطن فى وجهه كتعريف له ، لكن هنا يعلم الله كم جثة قد وقعت تحت يد كل طالب طب هنا ، ومن هنا أجزم أن أى طالب طب فى طهران أو شيراز أو أية مدينة أخرى من مدن ايران يتخرج أكثر تجربة وممارسة للجراحة والتشريح من طلاب الطب فى امريكا واوربا على كل حال ، وهذه فى حد ذاتها نقطة قوة بالنسبة لطلاب الطب فى ايران ، استندت على نقطة ضعف هى عبارة عن معدل أعلى من المعتاد للوفيات .

أما ذلك الجزء من الأقسام الجامعيـــة الذى لايتعامل مع التقنيـــة ، ويتعامل مع الفنون والآداب ، مثل كلية الفنون الجميلة وكليات الآداب " فى طهران والأقاليم " أو تلك التى تتعامل مع العلوم الإسلامية والثقافة الإيرانيـــة والبحث العلمى فيها ، فلأتناولها واحدة واحدة :

إن كلية الفنون الجميلة بشعبتيها الرسم والمعمار فحسب هى المؤسسة الجامعيـــة الوحيدة التى تربى فنانا ، إذا كان من الجائز تربية الفنان ، لكن نظرة

عابرة على أبواب معارض الرسم وجدرانها ، تلك المعارض الآخذة فى الانتشار هذه الأيام ، وأيضا بمرور سريع على كل حارة وشارع ، يمكن إلقاء نظرة على نتيجة عمل هؤلاء الفنانين ، وبعدة استثناءات قليلة ، فإن نتيجة عمل هؤلاء الفنانين فى الأغلب استهلاك الألوان والدهانات والزجاج والحديد ، أى استهلاك الصناعات الغربية، ونادرا ما نجد بين رسامى ايران ومعمارييها اليوم أشخاصا لا يقلدون الغرب ، بل توجد فى أعمالهم تلك السمة من الأصالة والتجديد فى الفن ، وتضيف شيئا إلى المجهودات التى بذلت فى الفن العالمى ، بل وبلغ الأمر بنا أن نأتى بالنقاد والمحكمين من الغرب للتحكيم فى أعمال الرسامين عندنا .(١)

أما كليات الآداب ، فمن الواضح أنه لا يوجد فى هذه الكليات حديث عن الآداب بمعناها الحقيقى العالمى ، ليس هذا فحسب ، بل وحتى الأدب الفارسى المعاصر يبقى فيها متجاهلا وغير معروف ، ولا يزال تفكير المرحوم عباس اقبال مسيطرا على هذه الكليات ، إذ كان رحمه الله يقول : حتى مائة سنة سابقة يمكن أن ترى وتعرف وتحكم لكن من ذلك الوقت فصاعدا ؟! أبدا (٢) ونتيجة لهذا النمط من التعامل مع الآداب أننا نخرج فحسب بنباشين للقبور ، وبهذه المناسبة يمكن اعتبار كليات الآداب ضمن تلك المجموعة من الكليات التى تتعامل مع الفقه والمعارف الإسلامية وثقافة إيران أو البحث فيها أى كليات الحقوق والمعقول والمنقول " الإلهيات " .

تماما مثل المدارس الإسلامية التى مر ذكرها ، ورأينا أنهم ظنوا أنه بتدريس الدين والدعوة إليه فحسب يمكن مقاومة خطر اللادينية الى هى فحسب من آثار الابتلاء بالتغرب ، فإن كليات الآداب والحقوق والمعقول والمنقول عندنا تخيلت

---

(١) بالنسبة لحاصل أعمال هؤلاء الرسامين ارجعوا إلى كتاب ماه كيهان = كتاب كيهان الشهرى بعدديها " أى العدد الأول والعدد الثانى وهو الأخير " – خرداد وشهريور ١٣٤١ فى مقالات مختلفة بأقلام سيمين دانشور وجلال مقدم ومقال : ميز گرد نقاشان = مائدة مناقشة الرسامين .

(٢) راجعوا أعداد مجلة يادگار تنكار التى كان مديرها ذلك المرحوم .

أيضـــا أنه يمكن الوقوف ضد هذا الخطر باللجوء إلى العربيـــة والنزعة الأدبية والعنعنات والتقاليد ، ومن هنا فإن كليـــات الآداب عندنا على سبيل المثـــال بكل أساتذتها الفضلاء ، كل همها واهتمامها مصروف فى نبش القبور والتعمق فى الماضى، وتحقيق عن فلان و فلان ، وفى هذا النوع من الكليات يمكن أن نرى رد الفعل المباشر لمرض الابتلاء بالتغرب فى هذا الهروب إلى النصوص القديمة والرجال القدماء والمفاخر الأدبيـــة الميتة وترك الحاضـــر الحى ، ومن ناحية أخرى أفظع دلائل التغرب فى الاستشهادات التى يقدمها أساتذتها من أقوال المستشرقين الذين مر ذكرهم بالخيـــر .

وعندما يرى امرؤ خبر التقاليد وقرأ الدروس ومهتم ، ويكون أستاذا فى هذا النوع من الكليات ، وشغله الذهنى الفروع الأدبية والمعارف الإسلامية والإيرانيـــة ، عندما يرى أن هجوم الغرب والصناعات والفنون الغربية آخذ فى اكتساح كل شيء أمامـــه، على سبيل الدفاع وإثبات الوجود ، يتخيل أنه من الأفضل أن يصنـــع رجالا من المشتغلين بكليله ودمنه ، ومن هنا فإن انتاج العشرين او الثلاثين سنة الأخيرة لكل هذا الصنف من الكليات ، بقى دون تأثير فى المجتمع إلى هذا الحد ، وإلى هذا الحد عجز ووقف فى مكانه أمام العائدين من اوربا ، وأطال الله أعمار حضرات المستشرقين الذين صنعوا من كل " الهى نامه " دائرة معارف ، ومن كل " ريش نامه = كتاب اللحية" معجمـــا ، حتى يحافظ على هؤلاء الرجال المهتمين بكليله ودمنه مشغولين بالبحث فى الماهيـــة والعرض أو الحدوث والقدم ، أو فى أصل البراعة وما إلى ذلك ، وباستثنـــاء قليل جدا . محصول العشرين أو الثلاثين سنة لهذه الكليات فحول علماء كلهم علماء لغة ، كلهم يعرفون مختصرا عن علم الرجال ، كلهم شكاكون موسوسون كتاب هوامش على كتب الآخرين ، كلهم كاشفون للغوامض اللغوية والتاريخية ، كلهم مجددون لقبور بلا أصحاب أو عارفون لأصحاب بلا قبور ، كلهم فاضحون لأسرار النحل والسرقة واقتباس زيد من عمرو .. لكن منذ ألف سنة ، وكتاب رسائل عن شعراء القرن العاشر الهجرى الذين لايتجاوزون عدا أصابع اليدين ، وأسوأ من كل هذا أنهم مدرسون للأدب فى الثانوى أو مديرو تعليم أو قضـــاة ، وثانية ألف رحمة تنزل على

اولئك الآخرين الذين منحوا وزارة العدل شخصيتها ، وضربوا مثلا لمعنى استقلال القضـــاء ، ولو كان الزمان قد أعطاهم الفرصة ليزوا جيدا بين الحق والباطل ، لكن اولئك الآخرين ؟ ماذا رأينا منهم من خير أو بركة آخــرا ؟ اللهم إلا انغماس في تغـرب من نوع آخر ، كل واحد من اولئك الأساتذة وتلاميذهم انغمس بثقل سمع أصحاب الكهف في غار المتون والنسخ المبدلة والأقوال الشاذة والنادرة ، بحيث أن أبواق السيارات نفسها لن تستطيع ايقاظهم ، أبدا .. إنهم من أجل ألا يسمعوا أنكر هذه الأصوات سدوا منافذ آذانهم بنفس تلك النسخ المخطوطة ، وسيطرة اللغات الأجنبية آخذة يوما بعد يوم في احتلال أهمية اللغة الأم والحاجة إليها ، والتخصصات العلمية والفنية آخذة يوما بعد يوم في التقليل من المهتمين بهذا النوع من التخصصات واكتسابهم ، وأصلا فإن الأخلاق والآداب والمعارف الإيرانية والإسلاميــة -كما رأينا في هذا الكتاب آخذة يوما بعد يوم في التدني قيمـــة والانعزال ، ومع ذلك ففي هذا الوضع ، لجأت مراكز الآداب والحقوق والمعقول والمنقول في هذا البلد – تماما مثل الهيئة الدينيـــة التي لجأت في مواجهة هجوم الغرب إلى التحجر والتعصب – لجأت هي إلى شرنقة المتون القديمـــة ، وقنعت بتربية المتنطعين ، وفي هذه الأيام ، تماما كما انغمست الهيئـــة الدينيـــة في إسار الشك والوسوسة وتوضيح الطهارات والنجاسات ، بقيت هي أيضا في اسار باء الزينة هل تلتصق بالفعل أو لا تلتصق ، وهل تحذف الواو المعدولة أو لا تحذف .. وهذا من حقهم ، فعندما يُخرج المرء من عالم الكليات ، لابد وأن يتشبث بالجزئيات .. نعم عندما يجرف السيل المنزل ، أو ينهار بزلزال ، فإنك تبحث تحت أنقاضـــه عن مصراع باب ، حتى تحمل عليه الجســـد الممزق لعزيز لديك إلى القبر .

وفي مجال القضايا التعليميـــة والجامعيـــة ، هناك قضيـــة أخرى كبرى ، مشكلة أفواج الذين ذهبوا إلى اوربا أو عادوا من امريكا ، وكل منهم عاد وهو على الأقل يرشح نفسه للوزارة ، فكان أن سقط بين براثن الأجهزة الحكومية كَلا عليها ، ولا شك أن وجود هذا النوع من الدارسين غنيمة ، فردة حذاء في صحراء ، لكن انظروا بدقة ، وشاهدوا كيف أن كل واحد من هذه الغنائم ، بعد العودة واتخاذ موضع ما من

أجهزة الحكومة ، وإلصاق قدمه بمكان ما ، إلى أية ثقالة يتحول ، فلا مجال عنده لعمل ولا علم بتفاصيله ، ولا يد مطلقة ولا قلب به حماس ، بل ولا قلب متعاطف ، وبخاصة وأن هذه الجماعة ترى نفسها ورأيها بلا أدنى قيمة فى مواجهة المستشار الغربى المسيطر .

وعلى خلاف ما هو مشهور ، أظن أنه كلما كان عدد العائدين من اوربا أكثر ، كانت قدرتهم على العمل أقل ، والعجز وعدم التناسق أكثر فى الأجهزة التى قبلت نفاذ المتعلمين فى اوربا . ذلك أنه من ناحية : لم تكن هناك أية خطة فى إرسال هؤلاء الشباب إلى أى موضع ومن أجل أى تخصص أو حرفة أو مهنة ، فكل واحد من هؤلاء الشباب ذهب باختياره وابتكاره وذوقه إلى ناحية من العالم ، وقرأ شيئا ، ومارس تجربة ما تختلف تماما عن تجربة الآخر ، والآن وقد عادوا ، ينبغى أن يكون كل منهم فردا من جماعة فى جهاز أو فى مؤسسة من مؤسسات البلد ، وهنا يصير معلوما لماذا هم غير متناسقين ، ولماذا عجزوا فى تنفيذ أى عمل ، فذلك قد تعلم تعليما فرنسيا و ذاك قد تعلم تعليما انجليزيا أو المانيا أو امريكيا ، كل منهم يعزف لحنا مختلفا وبطريقة مختلفة . وأضيف أيضا هذه النقطة هنا : إننى إذا كنت آملا فى مستقبل الفكر فى ايران فإن ذلك يعود إلى : أولا ، نفس هذا التنوع فى الأسلوب التعليمى ، وفى جذور المتعلمين عندنا فى اوربا وأرضياتهم ، إذ ينبع غنى ايران الفكرى من نفس هذا الموضع ، أنظر إلى الجو الفكرى فى الهند كيف خرج متجلنزا نتيجة للأغلبية العظمى فيه المتعلمة فى اكسفورد . على كل حال ، هناك نقاط كثيرة حول اولئك الذين عادوا من اوربا أو تعلموا فى امريكا ، ومن الأفضل أن أتناولها واحدة واحدة .

النقطة الأولى : أنه فى الظروف الفعلية فى الدولة ، فإن أغلب هؤلاء الشبان وفى الأغلب الأعم يشبهون زهور شقائق النعمان الجميلة وزهور النرجس والسنبل التى نستورد بصيلاتها من هولندا ، ونربيها فى مشاتل زهور طهران ، وبعد أن تزهر نشترى الباقة منها بمبلغ كبير ، ثم نحملها هدية إلى هذا من الأصدقاء أو هذا من المعارف ، ومع أن ذلك الصديق يضعها فى حجرة دافئة ، وفى مواجهة الشمس ، فإنها

لا تعيش أكثر من أسبوع ، وهذه الزهور الموجودة فى صدر باقة المجتمع تذبل سريعـــا فى هذا البلد ، وإن لم تذبل ، فإنها تتواءم مع الجماعة وتتلون بلونها . وعلى خلاف كل هذه الدعايات التى تنادى بإعادة الطلاب من اوربا ، فإننا لا أظن أن هناك أمل فى خدمة ما من عودتهم إلى الوطن ، ما لم تهيأ لهم أرضيـــة العمل فى المستقبل فى هذا البلد ، وسوف يطرح هذا السؤال على الفور : من ينبغى أن يمهد هذا الجو؟ وها أنتم ترون أن القضايا كثيرة ، وفى ظنى أن الجو فى هذا الزمهرير يستطيع أن يمهده أشخاص نضجوا فى هذا الكور ، وتعودوا على جو هذه الثلاجـــــة .

والنقطة الثانيـــة أن أغلب هؤلاء الشباب عندما كانوا يعيشون فى أوربا ، بتبعيتهم لبيئات ومجتمعات حرة بنسب مختلفة ، عندهم علم بالحرية بشكل أو بآخر ، وهم يقومون بحركة ديناميكية فى اتحاداتهم الطلابية ، وأغلبهم شديدو الحماس ممتلئون بالحركة .. فهناك نقاش وفعالية ومظاهرات وصحافة ونشـــــر ، لكن بمجرد عودتهم ، تقيد أيديهم هنا بذيل ثور ينسون كل تلك العوالم ، أجل .. وربما يكون مرور سنوات الشباب التى يكون فيها الحماس أحد عوامل هذا النسيان . ولكن ألا تتصورون أنه لما كانت الحكومات هنا لا تطلب هذه الأمور ، وليس هنا سماح بهذه الحريات ، هل من الممكن أن تحدث هذه العـــودة ؟ وأيا كان السبب ، فعلى كل حال أنا نفسى أعرف عددا من هذا النوع من الشبان يماثل عدد حبات المسبحة ، كان ما حدث بعد عودتهم ، قبع كل منهم فى ركن ، ورضى بما قسم له من هذه الغنيمة الباردة ، وكأنه لم يكن هناك فى يوم من الأيام حماس أو حريات ، والزوجة والحياة والأبناء .. كالمعتاد حجج حاضـــرة وجاهزة وبخاصـة إذا كانت الزوجة هى الأخرى أوربيـــة .

والنقطة الثالثـــة هنا فى نفس هذه القضيـــة أن عددا لا يستهان به من هذا الشباب يعودون بزوجـــة أوربية أو امريكيـــة ، وعدد قليل جدا من الفتيات يعدن مع زوج أوربى أو امريكى . وألا تتصورون أن هذه فى حد ذاتها مشكلة أضيفت إلى بقية المشكلات ؟ وإذا كان أساس الأسرة الإيرانية القائمة على زوج وزوجة من نفس العرق ، ويعرف كل منهما الآخر فى حال تفتت ، فإن مصير هذه الأسرة المختلفة فى اللون

معروف . والحمامة ذات البرجين هي هؤلاء الشباب مع أسرهم . هذه هي النتائج الإنسانية للتغرب في الدرجة الأولى . وحل المشكلات الداخلية لهذا النوع من العائلات أمر جدير بالإهتمام ، إذ أن هذه الجماعة من الشباب لم تعد لديهم القدرة والصبر على حل المشكلات الخارجية أي الإجتماعية ، وهذا النوع من الشباب لا يخرج عن صنفين أو ثلاثة :

(أ) أولئك الذين نشأوا في عائلات فقيرة ، وأوصلوا أنفسهم بمشقة إلى الغرب ودرسوا ، وبالنسبة لهذه المجموعة يعد الارتباط بامرأة أو رجل أوربي أو امريكي وسيلة للإنفصال عن الأصل الذي لم يعد جوا جديرا بالسيد العائد من اوربا ، كما أنه سلم يحمله إلى الطبقات العليا ، والعواقب الوخيمة لهذا النوع من الزيجات أوضح من ضوء النهار .(١)

(ب) أولئك الذين رضوا بامرأة أو رجل أوربي بسبب القيود والتقاليد والنفقات التي تقصم الظهر للزواج في ايران ، والآن بتحصيلهم للعلوم ، وحصولهم على الشهادات ، ومعرفتهم باللغات الأوربية ، يرون أن كل هذه قيود قد حطمت ، ولعلهم أتوا بامرأة اوربية أو رجل اوربي عبثا وعلى سبيل التحدي ، وعواقب مثل هذا الوضع بالمقارنة بما يحدث لهم بعد ذلك معلومة أيضا .

(ج) أولئك الذين فقدوا بكاراتهم في اوربا - سواء من البنين أو من البنات ، وبدأوا معرفة الرجل أو معرفة المرأة مع أوربي أو اوربية ، وعندما يعودون مع زوجة أجنبية ، إما أنهم لا يخضعون لأية قوة مهما كانت ، ولا يعتبرون أي إنسان جديرا بأي شيء ، أو ينتبهون إلى أي " مقلب " شربوه .. وما إلى هذا .

وبكل واحدة من هذه الصور أو الصور الأخرى لزواج شاب متعلم ايراني من اوربية أو امريكية ، يُقدم جواب لهذه النقاط :

---

(١) وهناك رأي متداول شفاهة بين العوام بشأن هذه الحقيقة غير العامية وهي أن أي رجل وصل إلى مركز ما إذا كان متزوجا من اوربية أو أمريكية ، فمن المسلم به عند الجميع أنه وصل إليه لأنه متزوج من أوربية .. حتى إذا كان الرجل في حد ذاته في منتهى الكفاءة والجدارة .

- فإما أنه تزوج أجنبية لأن بيئة تلك الأجنبية قد قبلته " بسبب قلة الرجال كألمانيا مثلا بعد الحرب ومن هنا فإن نسبة الألمانيات المتزوجات من إيرانيين أكثر من كل النسوة الأجنبيات " وهذا القبول في بيئة أجنبية وعن طريق امرأة أجنبية ، أليس في الحقيقة مساويـــا للإقتلاع من البيئة الوطنية ؟ وأليس هذا في حد ذاته مسببا لنوع من الفقدان المزمن للقوى الإنسانية بالنسبـــة لنا ؟ ناهيك عن كونها القوة الإنسانيـــة المثقفة التي تعلمت في أوربا ؟ على كل حال فهذا الفقدان بالنسبة للفتيات اللائي تزوجن أجانب ، يحتوي على استثناءات قليلة .

- وإما بسبب أن الشاب الإيراني الذي تعلم في أوربا وأمريكا قد أراد أن يعوض عقدة الحقارة والنقص التي يحس بهـــا عند المقارنة الشاملة لإيران مع أوربا وأمريكا ، والتي يراها في نفسه وبيئته وفي تقاليده .. إلخ ، لأتحدث على المستور ، ولأمض .(١)

ومع كل هذا ، ألا تتصورون أن اتخاذ زوجة أو زوجا أوربيا يعد من أكثر صور ظهور الابتلاء بالتغرب جديـــة ؟ وإذا كان الأمر هكذا ، فأظن أنه قد حان الوقت بالنسبة للدراسات العليا ، وحسب خطة مرتبة ومناسبة للإحتياجات الفنية والعلمية للدولة ، أن ترسل التلاميذ إلى الهند واليابان مثلا ، ولفترة عشرين عاما على دفعات ، وليس إلى أوربا أو أمريكا ، وإذا كنت قد ذكرت هاتين الدولتين ، فلكي نعلم فحسب كيف تعاملوا مع الآلة ، وكيف أخذوا التكنولوجيا " وبخاصة اليابان" وكيف تجنبوا بالفعل المشكلات التي نعانيهـــا . وفيما أظن ، في حالة تنفيذ هذه الخطة أو خطط

---

(١) وصلت إلى هذه النقطة عندما قرأت كتاب " قرنطينه = الحجر الصحي = Les Quaran-tianes" لفريدون هويدا والذي صدر في باريس باللغة الفرنسيـة سنة ١٣٤١ " ١٩٦٢" وهو يوضح هذه النقطة : أن شابا شرقيـــا طيبا جدا " جعله فريدون في كتابه شابا لبنانيا مصريا والأمر لا يختلف كثيرا " ، وضع في لقاء الشرق والغرب ، وفي الصراع النفسي والروحي لهذين العالمين في داخله ، وعندما ينتصر في حل مشكلاته النفسية ، ويتغلب على عقد الخجل وإحساسات النقص في داخله ، يحصل على سيدة أوربية كانت قد سلبت قلبه منذ عدد من السنين . والنقطة الأطرف في هذا الكتاب أنه حتى الشعور بالحب يحدث عنده بعد هذا التوفيق ، وقبل ذلك كان بطل الكتاب لا يجد الجرأة حتى على الإعتراف بهذا الحب بينه وبين نفســـه .

من هذا القبيل ، من الممكن أن نجد توازنا بين اولئك الذين تأثروا بالشرق من المتطمين في آسيـــا ، وبين الابتلاء بالتغرب عند من عادوا بالفعل من الغرب ، ويمكن أن نأمل في مستقبل التعليم والثقافـــــة .

١٢- أيضا .. قليلا من الابتلاء بالآلة

العوامل المهمة التى تحدد فترة انتقال اجتماعى بكل أزماتها هى : من ناحية تقدم العلم ، ومن ناحية أخرى تطور التقنية والصناعة والآلة ، ومن ناحية ثالثة امكانية الحديث عن الديموقراطية الغربية [١] ، ونحن بكل ما مر من هذه العوامل الثلاثة " تقدم العلم وتطور التقنية وإمكان الحديث عن الحرية " لدينا معادل ظاهرى لها ، لدينا نموذج خاص من أجل الاستعراض ، وإذا كان من المقرر أن سرعة تطور الآلة والتقنية من وجهة نظر ما تنتج إلى حد ما الأزمات الاجتماعية [٢] ونحن الذين فى هذا المجال لا زلنا فى منحنى أول حارة ، ومضطرون إلى قطع خطوات المائتى سنة ، فإن أمورنا أشد خرابا مما نظن ، وسوف تكون حمى هذيان أزماتنا أكثر استمرارية ، وأكثر ايئاسا مما حدث فى بقية البلاد .

ومع هذا ، لنفرض أننا جئنا ، وصرنا من صباح الغد مثل سويسرا أو السويد أو فرنسا أو امريكا ، وهو فرض محال ، لكنه ليس مستحيلا ، ولنر إلام نصير آنذاك ؟ ألن نصل من جديد إلى مشكلات وصل إليها الغرب منذ فترة من الزمن ؟ وماذا سنفعل إزاء هذه المشكلات المتجددة ؟ وقبل أن أشير إلى مشكلة أو مشكلتين من هذه المشكلات ، أنبه أن الهدف من كل هذا لكى نعلم ماذا ينتظرنا من مشكلات من سرعة الجرى ، وأى طريق طويل أمامنا ينبغى أن نقطعه ، وأية فجوة عميقة ينبغى أن تملأ .

والمشكلة الأساسية فى الحضارة الغربية – فى البلاد الغربية نفسها – هو التحذير الذى ينبغى أن يعطى من خلال ليبرالية القرن التاسع عشر فى مواجهة نطف الفاشية ، ففى فرنسا لدينا صاحب السعادة ديجول ومشكلة الجزائر أمام أقدامه ، والمتطرفون اليمينيون العسكريون وغير العسكريين بقيادو منفلتة لـ "

---

(١) و(٢) : " هدف فرهنگ ايران = هدف التعليم فى ايران " من اصدارات " مركز مطالعه وبخش اسناد فرهنگى = مركز دراسات و نشر الوثائق الثقافية " – وزارت فرهنگ – ط. بهمن ١٣٤٠ . نفس المجموعة التى كان من المقرر أن ينشر هذا الكتاب ضمنها . ولم يكن من الممكن .

الفرقة الأجنبية " الذين يخضبون كل يوم حوارى باريس والجزائر بدماء أنصار حل مشكلة الجزائر (١) ، وفى ايطاليا وألمانيا لدينا بقايا لابسى القمصان البنية (٢) وفى امريكا التشكيلات الجديدة للـ " بريتش سوسيتى " التى تعتبر حتى صاحب السعادة آيزنهاور ماركسيا ، وفى انجلترا حركة المطالبة باستقلال اسكتلندا (٣) ، وفى كل مكان آخر دودة من قلب الشجرة نفسها ، تماما بنفس حجمها وارتفاعها . وهذه الفرقة الأجنبية فى حد ذاتها واحدة من نفس هذه المشكلات الأوربية ، فنحن نعلم أن كل فتوة ومجرم ومنفى أو على الأقل كل مغامر من أهالى اوربا ، عندما تضيق فى وجهه الدنيا ، ولا يستطيع أن يعيش بعد فى وطنه ، يضطر إلى الذهاب ويتقدم للتطوع فى هذه الفرقة ، بلا شك إن لم يذهب كموظف فى شركة كذا للذهب والعاج والماس فى غابات أفريقيا (انظر رحلة إلى آخر الليل بقلم لويس فرديناند سلين الكاتب المعاصر الفرنسى الراحل (٤) ومن هنا صارت بندر عباس بالنسبة للبلجيكيين كما كانت الكونغو ، وجزيرة قشم للفرنسيين كما كانت الجزائر أو جيبوتى أو مدغشقر ، والصومال وليبيا للإيطاليين ، وانجولا وموزمبيق للبرتغاليين . وجنوب أفريقيا واندونيسيا للهولنديين " كان البوير الذين سيطروا على جنوب افريقيا من أصل هولندى " . وماذا تكون هذه الفرقة ؟ شيء أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور القديمة . وما هو عملها ؟ قمع الحرية حيثما يلزم ، وتقديم الخدمات لشركات

---

(١) المترجم : هذا زمن تأليف الكتاب ، وفى زمن الترجمة جهاد فرنسا جهاد المستميت فى مواجهة وصول الإسلاميين إلى الحكم فى الجزائر حتى عن طريق صناديق الانتخاب ، ثم تكوين فرق الاغتيال التى تغير على القرى الآمنة وتقوم بالمذابح المنكرة للآمنين ، ثم تلصقها بالإسلاميين .. ولا جديد تحت الشمس !!

(٢) المترجم : يقصد الفاشيست والنازى ، وهؤلاء منذ زمن تأليف الكتاب حتى زمن الترجمة باضوا وأفرخوا وبخاصة فى ألمانيا ، أما العدو الجديد فليس من اليهود الذين كانوا قد أثروا فى فترة ما بين الحربين على حساب الكوارث التى منى بها الشعب الألمانى ، بل من المسلمين الذين هاجروا إليها فى زمن البناء ، واستقروا واستوطنوا ، وكان هذا هو الجزاء من الغرب المتحضر جدا ، ولا توجد هذه الحركات فى ألمانيا فحسب ، بل توجد أيضا فى فرنسا وبريطانيا ، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، والتحالف الصهيونى المسيحى ، يركز الغرب كل عدائه على المسلمين .

(٣) أول طبعة لهذا الكتاب عام ١٣٤١ " ١٩٦٢" .

(4) Voyage au bout de La nuit .Par L. F. Céline .Ed. Gallimard .Paris .

النفط والذهب حيثما تطول ألسنة الأهالى ، ويلطجة لحساب كل طاغية يدفع أكثر ، من اسبانيا سنة ١٩٣٦إلى الجزائر والكونغو وانجولا فى نفس أيامنا هذه [(١)] ، كانت مسرحا لغزو هذا النوع من السادة ، وكلها دميت وعجنت تحت أحذية هؤلاء البلطجية الأوربيين ، ثم إن القضية ليست فحسب فى أن اوربا تصدر البلطجية مع تصديرها للآلة [(٢)] بل والأهم من هذا كله أنها بقيمة سلب الحرية من الدول المستعمَرة والمتأخرة ، تحافظ اوربا على أمنها وسلامة مدنها ومتاحفها ومسارحها ، والآن وكل الشعوب المستعمَرة آخذة فى الاستقلال واحدة بعد الأخرى ، لنر ماذا ستفعل اوربا بهذه البضاعة الفاسدة التى ستقع فى " عجز" صاحبها ؟ لا جدال فى أننا يجب أن ننتظر اضطرابات عديدة داخل اوربا ، لكن كما يبدو من ظاهر الأمور ، من الواضح حتى الآن أن انجولا وموزمبيق وافريقيا الجنوبية لا تزال القاعدة الأصلية لهذا النوع من الفرق الأجنبية [(٣)] ، وفيما بعد : ألا تتصورون أن السادة سوف يغيرون الملابس ، وسوف يجلسون فى صورة مستشارى معادن وخبراء

---

(١) المترجم : .... إلى الكويت والسعودية والعراق فى التسعينات ، الفرق أن الفرقة الأجنبية تبدلت إلى شكل جيوش عاملة بعدتها وسلاحها " الذى يبيعه الغربى بالطبع " ، ولا بأس من جيوش من نفس المنطقة توضع فى المقدمة لتلقى الصدمة الأولى ، ولتوفير الدم الغربى !!

(٢) والطريف أن تصدير البلطجة له جانبان : من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، لقد رأينا مثلا من اوربا ، وأضرب الآن مثلا من أنفسنا – وإن كان نسبيا أقل بكثير ، تماما مثل نسبة صادراتنا إلى وارداتنا – : فالبلطجية هنا بمجرد أن تضيق الدنيا أمامهم ، ويفتضحون على رؤوس الأسواق ، ويارشاد من نفس البلطجية الأوربيين الذين يعيشون هنا – وإن كان بصورة مبررة أكثر : فى صورة مستشرق وخبير وسمسار آثار وتحف ومراسل صحف وأنواع أخرى من القائمين بأعمال الاستعمار الجديد – يقومون بغلق حقائبهم ، ويذهبون فيحطون الرحال فى أجمل بقاع اوربا وامريكا إلى أن تتغير الأمور ويعودون من جديد . أعرف البانكير فلان المفلس الطهرانى الذى هرب بعد افلاسه إلى لندن ، وهو الآن هناك يؤسس مطعما للأرز باللحم ، كما أنكم تعرفون فلانا السياسى المفلس الذى عمل لمدة عامين كممثل لإيران فى اليونسكو ، وفلانا الآخر الذى عمل سفيرا متجولا للطلاب "؟!! " وهلم جرا .. انتبهوا أيضا إلى أنه إذا كان تصدير البلطجة الغربية فى اثر تصدير الآلة نوعا من تنقية جو اوربا من الأشخاص المغامرين والمشاغبين وتحقيق الأمن لسكان تلك الديار ، فإن تصدير البلطجة الوطنية فى أغلب الأحيان نوع من التدليل الذى تقدمه الهيئة الحاكمة للمتفاهمين معها ..أنظروا إلى هذا الفرق الشاسع . أظن أنكم إذا استطعتم أن تشطبوا على كل هذا الكتاب ، فإن هذه النقطة التى وردت فى الهامش كافية لإثبات إدعاء هذا الكتاب .

(٣) المترجم : لم تحدث مشكلة ولا يحزنون ، فلا استقلال حقيقى تم ، والفرق الأجنبية صار اسمها القوات الدولية أو قوات الطوارىء الدولية ، وفى السلام الرومانى " آسف الأمريكى " الجديد ، هى أيضا التى تحسم الأمور ، بعد أن تكون قد حركت النزاع القبلى أو المحلى فى مكان ما ، ثم تستقبل الطاغية المطرود لتستثمر الأموال التى سرقها بمباركتها وتحت حمايتها .

ولماذا يكون الأمر هكذا ؟ لماذا تكون مثل هذه المشكلات موجودة فى قلب الحضارة الغربية تقف كل يوم حجر عثرة أمام كل تطور ؟ فى تصورى : لأن المغامرة ، والخروج على الناس والقوانين ، وأنواع البلطجة الفكرية والعملية ، هى فى حد ذاتها النتائج الثانوية " أو الثانية " لصف الناس أمام الآلة " التنظيم الجماعى " ، النتائج الأولى هى الصناعات الغربية ، والنتائج الثانية هى هذه ، وهذا التنظيم الجماعى للناس كبأج واحد هو فى حد ذاته أحد مستلزمات الآلة ، العامل والمنتَج معا ، الاتحاد فى الشكل أمام الآلة ، والاصطفاف فى المصنع ، والذهاب والانصراف فى الموعد المحدد تماما ، وقضاء عمر فى ممارسة عمل ممل ، تصبح عادة ثانوية عند كل البشر الذين يتعاملون مع الآلة . والحضور فى الحزب وفى النقابة والذى يتطلب وحدة فى الملابس والحركات والتحيات ، يصبح عادة ثالثة تابعة للآلة . فوحدة الشكل فى المصنع ، تؤدى إلى وحدة الشكل فى الحزب والنقابة ، وهذه الوحدة بدورها تؤدى إلى وحدة الشكل فى الثكنة أى أمام آلة الحرب .. وما الفرق ؟ الآلة هى الآلة ، الفرق أن إحديها تصنع زجاجة اللبن للأطفال ، والثانية تصب القنابل على أم رأس الصغير والكبير . وهذا الإتحاد فى الشكل والملابس والفكر فى القيام بخدمة الآلة (الذى هاجمه شارلى شابلن بشدة ، وإذا كنا نعترف له بقيمة ، فلأنه فهم خطر الذهاب إلى مسلخ الآلة كالخراف قبل الجميع)، ثم فى النقابة والنادى والحزب ، وبعدها فى المعسكر ، يؤدى إلى وحدة الشكل والفكر والملابس عند أصحاب القمصان السوداء والبنية التى تمرغ كل الدول الغربية فى الدم كل عشرين سنة ، وتدعو العالم إلى الحرب ، وتترك كل هذه المصائب كذكرى لها . لأتحدث بصراحة : إن النزعة الحربية بصرف النظر عن أنها تكون فى اثر التوسع الصناعى والبحث عن أسواق جديدة لتصدير البضائع ، تأخذ فى الأصل تقاليدها ورسومها من الآلة ، من الآلة التى هى فى حد ذاتها نتيجة للبراجماتية والعلموية والنزعة العملية ومذاهب أخرى من هذا القبيل ، وهذه الأيام حتى الأطفال يعلمون أنه عندما تصل الآلة إلى مرحلة فائض الإنتاج ، وتجد القدرة على تصدير مصنوعاتها ، فإن أصحاب

الآلـة " أي الشركات "،، يدخلون في خصومة مع منافسيهم لاحتكار أسواق الصابرات .[1]

وعلاوة على هذا كله ، ينبغي أن ننتبه إلى هذه النقطة القائلة أن الأحزاب في مجتمع ديموقراطي غربي عبارة عن منابر لإرضاء نزعات الماليخوليا عند أناس غير متوازنين وكالمرضى من الناحية النفسية ، سلب منهم اصطفافهم اليومي أمام الآلة ، والوصول في الموعد ، وعدم فوات الترامواي ، الفرصة لكل مظهر من مظاهر الإرادة الفردية ، وأيضا إذا انتبهنا خصيصا إلى أن الأحزاب الفاشستية ، وأنواع الجماعات المتطرفة في الأصول والمتعصبة في الفروع ، تراعي أقصى درجات الدقة في إرضاء الأمراض النفسية عند هؤلاء الناس ، من الألوان فاقعة الحمرة التي يختارونها لأعلامهم ، إلى العلامات والشعارات والرموز ، من العقاب والأسد والببر ، وهي كلها في الحقيقة الطواطم المتوحشة للقرن العشرين ، والمراسم التي يقومون بها عند إلحاق أحد بحركاتهم أو إخراجه منها ، والتقاليد التي تنفذ كما ينبغي ، حينئذ ننتبه إلى السبب الرئيسي لهذه الأمراض ، وأسلوب علاجها أو تركها مزمنة بكل واحدة من هذه المشاكل من مشكلات الغرب والمجتمعات المتقدمة التي أصيبت بمرض الآلة ، حلها عند عقلاء تلك الشعوب .

ولكن ماذا عنا نحن ؟ هذه النحن" التي لا خبر عندها عن الديموقراطية ، ولا إدراك واقعي عن الآلة فضلا عن التحول إلى بأج واحد حولها ، والطريف أن هذه الـ" نحن " لديها أيضا حزب ومجتمع شكلي ، ونحن بدلا من أن نصطف أمام الآلة ، ثم نساق إلى الحزب والمجتمع " الديموقراطي " ، ثم نرتب نفس هذه الصفوف في

---

(١) وليكن هذا المنافس من يكون ، فالتجارة الحرة "!" الغربية لا تعرف الصديق والعدو ، وعلاوة على قصة الدبابات الخردة التي اشتراها البلجيكيون من ميدان العلمين ، وباعوها بعد إصلاحها للمصريين والإسرائيليين حتى تستخدم في حرب أخرى ، انتبهوا إلى هذا الخبر الذي أترجمه لكم من مجلة تايم الأمريكية " لم يكن قد بقي شيء على مراسم افتتاح فندق هيلتون في هونج كونج حين اكتشفت الحكومة الأمريكية أن الأثاث الصيني والمحلي للفندق ، قد استورد من الصين الشيوعية بمائة ألف دولار ، وهذا يخالف تماما القوانين الأمريكية التي تمنع كل امريكي من التعامل مع الصين الشيوعية . من عدد ١٩يولية سنة ١٩٦٣من التايم ص ٦٠ .

المعسكرات . نبدأ تماما من النهاية ، أى نبدأ بطريق المعسكر " والذى ثبت أخيرا أنه لا يصلح لأى حرب إلا حرب الشوارع " ، ونعتاد على الاصطفاف وعلى الوحدة فى الشكل ، حتى نصل إلى الآلة فلا تستقيم أمورنا... أى لا تستقيم أمور الآلة ، وهذا هو أشرف توضيح أستطيع أن أقدمه عن واقع زماننا ، ففى الغرب وصلوا عن طريق الآلة والتكنولوجيا إلى التوحد فى نظام الحزب والمعسكر والحرب ، ونحن هنا تماما على العكس : من الإصطفاف فى المعسكر وتدريبات حرب الشوارع ، إلى التحزب ، ثم الذهاب إلى خدمة الآلة ، أى نريد أن نذهب لخدمتها .. لأتحدث على المستور ، ولأمض !!

النقطة الأخرى من مشكلات الدول والمجتمعات الغربية أن الغرب كان فى وضع فى عصر صدامه الاستعمارى بالشرق وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، يختلف عن وضعه اليوم ، كان الرجل الغربى من القرن التاسع عشر الذى يأتى وراء أول الصناعات الآلية إلى هذه المناطق من العالم فعالا لما يريد ، كان فوق الخان والأمير والحاكم ، ، كان مستشارا ومساعدا ، وكانت سفارته تعطى الملجأ لأنصار الدستور فى طهران، وعندما يرف علمه فوق أى بيت فى شيراز ، فمعنى هذا أنه حصن وفى أمان، كذلك كانوا فى فتنة قوام السلطنة وعشائر القشقائى ، أما الآن ، فقد تعلم حتى الرجل البدائى من الكونغو الدرس من تأميم النفط وقناة السويس وشركات السكر فى كوبا ، وتعلم أخيرا أن يعرف الأجنبى فى أى لباس كان ، وألا يهتم كثيرا بمسألة كرم الضيافة ، كما أن الغربى الآن قد غير جلده أيضا ، ووضع قناعا جديدا على وجهه حتى لا يُعرف ، وإذا كان الرجل الغربى الذى جاء إلى الشرق وإلى آسيا فى البدايات كان المالك ويلقب بـ" صاحب " كما تلقب زوجته بـ " مم صاحب " ، فهو اليوم المستشار والمساعد وملحق اليونسكو ، بالرغم من أنه جاء لنفس المهام أو ما يشبهها ، إلا أنه على كل حال قد ارتدى لباسا مقبولا ، ولم يعد يضع بعد قبعة المستعمر فوق رأسه ، وأصبح يحافظ على المظاهر ، لكننا نحن الشرقيين الآسيويين لم نفهم هذه النقطة ، وهى أن الغربى فهم أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين ، لا يمكنه العودة إلى الوراء مائتى عام ، ونحن لم نفهم حتى الآن أنه نفس " مولانا "

القرن التاسع عشـــــر الذى يضع " القدر " على رأسـه ، والذى رأينــاه من قبـــل .

وإلى جوار هذا ، فإن الغربيين المستعمرين كانوا يصحبون فى قافلتهم احيانا " جوجان " الرسام أو " جوزيف كونراد " الكاتب أو " جيرار دى نرفال " أو " بيير لويس " وأخيرا " اندريه جيد " و " البير كامو" ، وقد تعلق قلب كل واحد من هؤلاء بركن من جماليات الشرق وبكارته ، ووقعوا فى أســـره ، بحيث هزوا أسس معايير الحكم الغربى فى الحيــــاة والفن ، وقد حمل جوجان عصارة الشمس واللون إلى الغرب فى لوحاته ، وهز الرسم الداكن المكتئب للفلامانتو بحيث أن حركات بيكاسو ودالى اليوم قد بدت قديمـــة . أما جيد فقد فضح بمذكرات رحلته إلى الكونغو سنة ١٩٣٤ شركات العاج والذهب على رؤوس أسواق الدنيا ، ودلنا مالرو على حضارة " الخمير" فى جنوب شرق آسيــا ، وهى أطول عمرا وأقدم من الأعمدة الأربعة لـ " فورم " فى روما أو " اكروبول " أثينا .. وآخرون اكتشف كل منهم بالبحث عن طريق جديد ورسم جديد لحياة أخرى فى الشرق أو امريكا الجنوبية عوالم كانت أركان اوربــا على غير علم بهـا . دعنا من موسيقى الجاز ، فلها فى حد ذاتها ضجة أخرى وقصة أخرى . القضية الآن أن الأفريقى الأسود الذى هو آخذ فى رفع عقيرته الآن تحت سماء نيويورك ، هو نفس الأسود الذى ذهب عبدا من أفريقيا ذات يوم لكى يزرع القطن للأرستقراطية المحدثة فى أمريكا ، أو الشركات الأكثر غربية فى نيوجيرسى والميسيسبى ، والآن يزلزل أسقف " كارنجى هول " بأبواقه وطبوله ، ولم يبق شيء حتى يتخذ طريقه إلى الكنائس القوطيـــة التى لم تكن تسمح حتى الحرب العالمية الثانيــــة إلا لموسيقى " باخ " و" مندلسون " بدخولها .(١)

أريد أن أقول حقيقة أن الغرب فى بداية أمر الاستعمار ، كان يبدو فحسب فى صورة دودة علق يمتص دم الشرق المتمثل فى العاج والنفط والحرير والتوابل وبقية المواد الخام ، ثم أدرك بالتدريج أن الشرق لديه أيضا سوى البضائع الماديـــة بضائع

(١) المترجم: حتى فى هذا لا فضل ولا تغير فى الحضارة الغربية ، ففى رأى لشريعتى أن توجيه السود إلى الموسيقى والرقص والرياضــــة ايحاء بأن السود لا يصلحون إلا لهذا !! .

عديدة من المعنويات ، هو ما تقوم الجامعات والمختبرات باستخدامه ، وهكذا رأينا أساس علم الإنسان وعلم الأساطيـــر وعلم اللهجات وآلاف من العلوم الأخرى قد قام على أساس ما جمع من هذه الناحية من العالم ، ووضع فى تلك الناحيـــة . والآن علاوة على كل هذا ، فإن البضائع المعنوية للشرق وآسيـــا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، تصير الشغل الشاغل للغرب الفاهم الدارس ، بحيث يلجأ فى نحت التماثيـــل إلى البدائيـــة الأفريقيـــة ، وفى الموسيقى إلى " الجاز " الخاص بها ، وفى الأدب إلى "الأوبانيشاد" و" طاغور " و" التاوية " وال " زن " عند بوذا ، وإلا فمن يكون " توماس مان " ؟ أو " هيرمان هسه" ؟ وماذا تقول الوجوديـــة ؟ وصناعة الحدائق اليابانيـــة ؟ ووضع أطعمة هندية على المائدة ؟ وشرب الشاى على الطريقة الصينيـــة التى صارت ترفا عند أى شاب اوربى " خرج من البيضـــة " ؟!

هذا الالتجاء الغربى إلى المعاييرالشرقية والأفريقية حتى فى الفن وفى الأدب وفى الحياة والأخلاق (وهو على الأقل يبدى ملل أو على الأقل تعب الغربى من بيئته وآدابه وفنونه ، ومن ناحية أخرى يبدى عالمية الفن والأدب والثقافة حيثما تكون ، وهى لا جدال تبين كثيرا من الجمال)آخذة فى الانتقال أيضا إلى مجال السياســـة .. وبهذا الأسلوب ألا تظنون أنه بعد اهتمام الغرب بالفنون الشرقيـــة ، أن مرحلة اهتمام الغرب بالسياسة الشرقية قد وصلت الآن ؟ أجل .. هكذا يتطلب الفرار من الآلـــة ، وهكذا يحكم الخوف من الحـــرب الذريـــة .

ثم نأتى نحن المبتلين بداء التغرب ، تماما فى هذه الأيام ونترك موسيقانا مجهولة ، ونعتبرها " نشازا" لا فائدة منه ، ونتحدث عن السيمفونيـــة والرابسودية ، ولا نعرف أصلا الرسم الإيرانى لصور الأولياء وآل البيت والمنمنمات ، وتقليدا للـ" بينالى " حتى " الشكلية " و " التكعيبية " نعتبرهما قديمتين ونترك المعمار الإيرانى جانبا بصنعه للوحدات المتشابهة وأحواضه ونافوراته وحدائقه الصغيرة وسراديبه وشرفه ونوافذه الأرابيـــسك ، وأغلقنا أبواب الـ" زورخـــانه= بيت الرياضـــة الإيرانيـــة " ، ونســـينا الصولجان، ونذهب إلى الأولمبياد بأربعة مصارعين ، وهى قائمـــة أساسا على سباق

عدو الماراثون[1] وهى كناية عن هزيمة طاغية فى عهد موغل فى القدم ، وليس معلوما لماذا ساق الجند من هذه الناحيـــة من العالم إلى تلك الناحيـــة ؟

وأخيرا ، لماذا لايجب على أمم المشرق أن تستيقظ وتبصر ما فى يدها ؟ ولماذا لأن الآلة غربيـــة فحسب ولا مناص لها من اقتباسها ، تتخذ كل معايير الحياة الغربية أيضـــا ، وتجعلها تحل محل حياتها وادبها وفنهـــا ؟ لماذا يكون شعار اليونسكو على شكل المعابد اليونانيـــة ولا يكون مثلا على شكل البقرة المجنحة الآشورية أو أعمدة معابد الكرنك أو أبى سنبل المصريـــة ؟ ولماذا لا ينبغى لأمم المشرق أن تعرض آدابها فى المحافل الدوليـــة ؟ ألعابها المحلية فى الأوليمبيـــاد مثلا؟ كالرقص ورمى السهام والرياضة بمعناها عند اليوجا ؟ ما علينـــا !! .

والمشكلة الأخرى من مشكلات المجتمعات الغربيـــة أنه علاوة على البشر المطيعين الهادئين الذين تصفهم بقصد خدمة الآلة ، تصنع أيضـــا بشرا من نوع جديد يمكن أن يطلق عليهم " الأبطال سابقو الصنع "، تماما مثل البيوت سابقة الصنع ، ويتجلى ذلك فى الوجود الطاغى لنجوم السينما ، أو ركاب السفن التى تجوب الفضـــاء - وهذا بلا جدال أمر منطقى - حينما يصنع الناس جميعـــا كنموذج واحد ، بحيث لا يكون لأى منهم رأس أو رقبة أعلى من الآخرين ، فلا محيص من أن تكسر القاعدة بين الآن والآخر ببطل مصنوع مسبقـــا لهذه الجماعة الغارقة فى الابتذال البشرى ، وتقدمه كنموذج ، لكيلا يكون اليأس عاما ، وهكذا ففى نفس الوقت الذى تعطى فيه شركة " فورد " لكلية كذا الأمريكية منحا سنوية لعدد كذا من المتخصصين فى الكهرباء والميكانيكا بشروط كذا . فإن شركة كذا للسينما تقوم

(١) Marathon فى الأصل إسم قرية فى اليونان وفيها الموضع الذى انتصر فيه اليونانيون على الفرس سنة ٩٤٠ ق. م. ، وعد أول من حمل خبر هذا النصر من القرية إلى اثينا بطلا ، وعلى ذكراه وذكرى تلك الموقعة يعد سباق الماراثون من الألعاب الأساسية فى الأوليمبياد .. والآن : من منا يعلم من كان " آريا برزن " ، وكم من أنواع الشجاعة والفدائية أبداها فى وجه الإسكندر وجنوده فى " تنگ تكاب" فارس أو لست أدرى فى أى موضع تكون ؟

بعملها ، أى صناعة الأبطال طبقا لبرنامجها . وإن حدث وبدرت من أحدهم شجاعة معينة " وهى إحدى الفضائل الأربعة عند افلاطـــون " وليس باتفاق مسبق ، وصار هذا الشخص بطلا ، وأخذ الشعراء يدبجون فيـــه قصائد المدح ، فإن شركة كذا لأفلام السينما تستدعى أحدا لكي يؤدى دورا فى فيلم كذا لشجاعة تاريخيـــة أو أسطوريـــة ، وتعال وانظر كيف تتبارى الصحف فى الكلام ، والأذاعات ومحطات التلفزيون ، وكم تنفق الشركة التى تتاجر فى هذا على كل حال على الدعايـــة ، وكم تختلق من الأحداث بالنسبة لأبطالها وزواجهم وطلاقهم وخطف أولادهم واشتراكهم فى صراع السوبوالبيض ، ورقصهم فى ليلة كذا مع فلانة الملكة المطلقـــة .. إلخ ، وقبل أن يعد الفيلم بعام أو عامين ، يمر دائما فى الصحف والأذاعة والتلفزيون ، ويمر ويمر حتى يصل خبره عن طريق رويتر وأسيوشيتد برس حتى آذان وسائل الإعلام فى طهران وسنغافورة والخرطوم ، ثم تأتى نوبة الاستفادة ، ويعرض الفيلم بأبهة وجبروت، وتكون ليلة الافتتاح ، ويعرض الفيلم على الشاشة فى خمس عشرة عاصمة عالمية ، بمشاركة كبار الشخصيات وغيرها . والنتيجـــة ؟ يضاف بطل آخر إلى صف الأبطـــال على الشاشة ، أى فى الحقيقة يسلب الاعتبار والحيثية من بطل تاريخى أو أسطورى آخر .

وهناك نموذج آخر لهذا النوع الجديد من صناعة البشـــر –أى صنع بطل على الشاشة من الرجل العادى – أولئك الراكبون فى الصواريخ التى تقطع الفضاء ، والذين كانت زوجاتهم حتى الأمس لا يأخذنهم مأخذ الجد ، أو ربما لم يكونوا قد تزوجوا بعد ، لكن شهرتهم اليوم قد طبقت الآفاق . وفى أى حال ؟ فى حين أن العلماء الذين صنعوا السفن ، والمكتشفين الأصليين لأنواع جديدة من الوقـــود من أجل غزو الفضاء ، يعيشون مجهولين تماما سواء فى روسيا أو فى أمريكا . لماذا ؟ لأن أسماء صناع الصواريخ والسفن وسماتهم بل ووجودهم كبشر سر من الأسرار العسكريـــة ولا تذاع . لكن الذى يركب السـفـينة ؟ لا جـدال ليس من الأسـرار ، لكنه وسـيلة لاستحماق الخلق ، فجوة فى مكان ما فى هذه الساحـــة الموحدة المبتذلة التى هى مصير الجماهير الواسعـــة ، حتى يشتعل الأمل فى قلوبهم أن : أجل ... أنت أيضا

تستطيع أن تركب سفينة فضــاء .. إلخ ، ثم أية صور وتفاصيلا وطوابع بريد ونفاق وتدليس ، وبيئة مقدمات وتمهيدات !!! وهو غافل عن أنه إنسان مثل بقية البشر ، أكثر شجاعة قليلا ، أو أكثر حظا ، لأننا لانعلم شيئــا عن اولئك الذين قضوا نحبهم فى الفضـــاء ، فالخلاصة أنها سر من الأسرار العسكريـــة . وعلى كل حال : ألا يتصورون أن فلانا رائد الفضـــاء ، بينما هو إنسان مثل بقية البشر ، وله حقوق بقية البشـــر ، هو فى هذه التجربة لاختراق الفضـــاء قد صـــار شيئا أقرب إلى أرنب المختبر ؟ هذا هو الابتذال البشـــرى ، ولا يخفى السادة أنفسهم هذا ، ويقولون : إن فلانا رائد الفضـــاء .. شجاع ومن صفاته كذا وكذا .. إلخ و" مستعد للتضحية بروحه فى سبيل الإنسانيـــة " وأنا أقول : بل فى سبيل تقدم التقنيـــة . أجل ففى وقت ما كان سيدنا إبراهيم يضحى بابنه فى سبيل الله ، لكن الإنســـان اليوم يضحى فى سبيل التقنية والآلـــة ، ويتفاخر أيضــا ويمثل هذا الطبل والزمر من أجل رواد الفضـــاء ، ومن الناحيتين ترى أناسا فى كل قرية نائية من سيبيريا حتى آلاسكا يسجلون أسماءهم من أجل هذه التضحيـــة ..أليس هذا فى حد ذاته فرارا من الإبتذال الذى تجبر الآلة الإنســـان عليـــه ؟ على كل حال : هذا هو آخر تعد للآلة على النطاق البشـــرى !! .

وفى أوائل أمر الصواريخ التى تعبر الفضـــاء ، كتبوا بعض الموضوعات على سبيل السخرية ، وقرأناها ، وقالوا : أجل لقد حجز المسيح عليه السلام فى السماء الرابعة لأنه كان يملك إبرة ، والآن تطوى السفن السموات السبع ، وكلاما من هذا القبيل ، وهذه السخريـــة كانت تريد أن تخفى الحقيقة القائلـــة بأن السماء لم تعد بعد موضعا للملكوت ، وكلها ناســـوت ، ناسوت إن خدم الآلـــة ، فسوف يجاوز الأفلاك .. ودعايات أخرى . لكنهم غافلون عن أن هذا السير اللاهوتى ، قد سبقت فيه الكلاب والقرود هذه البشريـــة الناقصـــة . على كل حال لم يعد هناك موضــــع للجدل فى العالم الصناعى بأن الآلة تريد بشرا مطيعين مسالمين بهذا النوع من السمات ، بل الجدل حول أن الآلة آخذةٌ فى مقابل هذه الأضاحى البشريـــة فى صنع إنســـان جديد ، يماثل الدواب فى الطاعة ، أى أنها تسلب الحيثية من البشر ، وأنا أرى فى نص هذا الخبر : " إن صاحبة العصمة المصون رائدة الفضـــاء قد تزوجت

من فلان الشاب الوسيم رائد الفضاء أيضـــا " والخبر الذى يليه " إن صاحبة العصمة حامل " ثم الخبر الذى يليه " إن رائد الفضاء ورائدة الفضاء قد أنجبا " أرى أنهم تلاعبوا بالنفس البشريـــة ذاتها ، تقدمت البراجماتية والعلموية إلى هذا الحد الذى تجمع فيه مخلوقين بشريين كفأرين للتجارب القاسيـــة ، وبعدها اللقاح ثم التوالد .. لم ؟ حتى تثبت أن الإنسان يستطيع أيضـــا فيما وراء الفضـــاء أن يلد ويتناسل .. ثم مـاذا ؟ هنا موضع السؤال .. مـا علينا . على كل حـال ، هذه هى مشكلات المجتمعات المتقدمـــة . ويكفى هذا القدر مما نعلم . لكن ماذا عنا نحن ؟ نحن الذين لا آلة عندنـــا، ولسنــا مجتمعا متقدما ، ولا ينبغى أن نعانى من هذه العواقب التى ذكرتها ، ولا اضطرار عندنا إلى صنع بشر مطيعين مستسلمين وذوى بأج واحـد ، ولاحاجة عندنـا إلى أبطـال صنعوا بشكل مسبق ، تعال وانظر ما الذى لم نرتكبه فى حق أنفسنا حتى الآن !! نفس تقليد صناعة الأبطال نقوم به بشـأن الحائزين على الجوائز ، أو فى انتخاب أعضاء المجلسين ، أو فى أمر اختيار فلان القروى الذى ينبغى أن يقرأ بعض الشعر فى مراسم كذا .. ومن هذا القبيل . وأسوأ من كل هذا أنه من أول صفحة من كل برنامج من البرامج المدونة للتعليم نقرأ عن تربية المواطن المتوازن وأباطيل أخرى ، لا جدال تصرخ أنها أيضا علامة من علامات الابتلاء بالتغرب ، لكن هل يكفى فحسب أن نضع على الألم إسم ؟ سوف أتحدث بالتفصيل قليلا عما يعد أخطر آثار الابتلاء بالآلـــة والتى حدثت فى حقل الثقافة .

وإذا أمكن الحديث عن هدف لثقافتنا ، فهو كشف الشخصيـــات البارزة التى تستطيـــع فى هذه الفوضى الإجتماعية – الناتجة عن أزمة التغرب – أن توصل هذه القافلة إلى منزل ما . وهدف ثقافتنا كما هى عليه ، لا يمكن أن يكون جعل الناس كتلة واحدة متساوية ونموذجا واحدا ، حتى يتحملوا جميعا الوضع الراهن ويتعايشوا معه ، وبخاصة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى عصر التطور والأزمة ، وفى مثل هذا العصر من البرزخ الإجتماعى الذى نعيشه ، نستطيع فحسب بمساعدة رجال فدائيين ، يؤثرون على أنفسهم وأصوليين (فى عرف علم النفس العامى يعتبرونهم عنودين غير متفاهمين وغير متوازنين) يمكن تحمل هذا التطور وهذه الأزمـــة ، ويمكن أن ينظم هذا التدهور الإجتماعى الذى شاهدناه فى هذا الكتاب .

وإن كان هناك زمن ، كانت بلدنا وبتعليمها وتربيتها الأرستقراطيين ، تصنع القائد للمملكة فحسب ، كزمن الصفويين والقاجاريين أو ما قبلهما ، وكان التعليم والتربية يعدان تماما بنسبة جماعة القيادة ، ولم يكن فيهما توسع ، وكان الطريق إليهما مفتوحـــا لعدد محدود فحسب [١] ، فاليوم وقيادة المملكة على خلاف ما يتطلب العصر لا تزال على أسلوب مغرق فى القدم ، تحت سيطرة عدد محدود من الإقطاعيين والأرستقراطيين وأولئك الذين روضهـــم البلاط وهم محصورون في مائتى أســـرة . وهذه القيادة فى حد ذاتها زائدة دوديـــة على القوى العظمى السياسية والإقتصادية الأجنبيـــة ، ومن ناحية أخرى فقد توسع التعليم والتربية توسعا عظيما ، ورسخ فى طبقات أكثر اتساعا ، وشرائح أعمق من المجتمع ، وله ناتج بشرى أكثر ، لكنه يعطى فحسب جالسين إلى المكاتب ، أى يصنع مضطرا مرشحين أكثر للقيـــادة ، وفى مثل هذا الوضع ، فإن التعليم والتربية عندنا مهما كان لها من سمات محتملة أخرى ، ومهما لاكان لها من مزايا أو عيوب أخرى ، فلا بد وأنها تتسم بهذه السمة وهى أنها تزيد يوما بعد يوم فى عدد الساخطين الذين درسوا ويدرسوا بقصد الاشتغال بالوظيفة والقيادة ، حتى وصلوا إلى ما خلف جدار القيادة ، لكن لا سبيل لهم إلى قيادة البلد ما لم يكونوا متصلين بقوى مالية أو سياسية ، وما لم يكونوا منتسبين إلى تلك المائتى أسرة ، كما أنهم ليسوا من الملاك الكبار للأموال المنقولـــة .

وفى الوضـــع الفعلى للتعليم عندنا نرى – من ناحية – أن طابور الخريجين من المدارس والجامعات وأوربا مع كل العيوب الموجودة عندهم يزداد طولا يوما بعد يوم – أى يصبح هناك إمكان لخلق محيط أكثر اتساعا للفكر –، ومن ناحيـــة أخرى فإن جهاز القيادة فى الدولـــة يزداد محدودية وانغلاقا وانحصارا ، وغربال منظمة أمن الدولة يزداد ضيقا .. فماذا نفعل مع هذا التناقض ؟ ترون أن عصرنا هو عصر تشديد الخلافات الإجتماعية ، وفى مثل هذه الظروف ، تكون تربية الإنســـان المهادن ، وكبح جماح القوى الجادة والمتمردة الإنسانية أخطر خطوة يمكن اتخاذها وأكثرها خنقـــا

(١) انظر كتاب " هدف فرهنـگ ايران = هدف التعليم فى إيران " الذى مر ذكره .

وهذه الخطوة يخطوها التعليم الآن بمساعدة منظمة الأمن والجيش ، بجيش التعليم الموجود ، وجيش الصحة القائم .

ومسئوليـــة التعليم والسياســـة فى الدولة فى عصرنا هذا ، المساعدة على تحديد الخلافات والتناقضـــات : الخلاف بين الأجيال ، وبين الطبقات ، وبين أساليب التفكير ، حتى يمكن على الأقل أن نعلم أى مشكلات قادمة فى الطريق ، وعندما تتضح المشكـلات ، فبلا جدال ســوف توجد الحلول لها . ومسئولية التعليم بالذات هى المساعدة على تحطيم جدار كل مانع يحاصر مركز قيادة الدولـــة وزعامتها ويجعله احتكاريـــا ، أقصد تحويل قيادة الدولـــة إلى ديموقراطية ، أى إخراجها من احتكار هذا الشخص أو ذاك وهذه الأسرة او تلك ولا يمكن التصريح أكثر من هذا ، مسئولية الثقافـــة والتعليم هى تدمير كل جدار أقيم أمام التقدم والتطور وتحطيمه ، وتقديم المدد لذلك الطرف من المعادلات الذهنية والواقعيـــة والإنسانيـــة المتعلقة بالمستقبل ، لا لذلك الطرف الذى هو فى طريقه إلى الزوال ، وليس مناسبـــا لعصرنا ينبغى أن تستفيد الثقافة والسياسة ويستفيد التعليم عندنا من القوى الشابـــة المندفعة والمحركة كقوة بخارية تستطيع أن تقتلع المؤسسات القديمة بكل ثقلها من مكانها فى طرفة عين ، وتستفيد منها كمواد فى صنع العالم الجديـــد .

وفى هذه الفترة من تطورنا ، نحن نحتاج إلى بشر ذوى شخصية ومتخصصين ومنطلقين وأصوليين لا إلى رجال متغربين من ذلك النوع الذى ذكرته ، ولا إلى بشر يعدون أجولة معلومات ، أو يقومون بكل عمل ولا يقومون بشيء ، أو أنهم فحسب رجال طيبون وبشر خيرون ومطيعون وهادئون ، أو اناس متفاهمون وساكتون من سكان الجنان الذين يسمعون الكلام ، هؤلاء هم الرجال الذين كتبوا تاريخنا على هذا النسق حتى الآن .....كفانا بعد !!

إن من حسن حظ الغرب أنه منذ أن أتم كتاب دوائر المعارف " الموسوعيون " عملهم ، لم يعد هناك لزوم لوجود تلك الحشـــرات التى ذكرتها ، أى لم تعد هناك حاجـــة إلى وجود العقول الكلية ، والمعلمين الأوائل وهميان المعلومات البشرية

المتحركة ، ولهذا كان أن قسم العمل وظهر المتخصصون ، لكن التخصص الذى ينتجه الغرب لا يتميز بشخصية . وينبغى أن نبدأ من هذا الموضع أى أن نربى متخصصا ذا شخصية ، وهل تعليمنا قادر على تربية مثل هؤلاء الرجال ؟ وإذا لم يكن .. فلماذا ؟ ومن أين تتبع عيوب العمل ؟ ينبغى أن يكون هذا مجال بحث ، وأن يُقضى عليه .

ومن هنا ، فإذا كان الذى حدث فى الغرب ، أنه بإجبار التكنولوجيا " والرأسمالية " أى فى اثر الابتلاء بالآلة أن جعل التخصص بديلا للشخصية ، فنحن بإجبار من التغرب وضعنا محل الشخصية والتخصص كليهما عدم المبالاة وتربية المتغربين . وأكرر أن مدارسنا وتعليمنا وجامعاتنا – إما عمدا أو إجبارا– وبغير وعى بالعصر تربى نفس هذا النوع من البشر ، وتعرضهم على قيادة الدولة ، رجالا متغربين أقدامهم فى الهواء ، لا يؤمنون بأى مبدأ يمكن الإيمان به ، لا حزب لديهم ولا آمال بشرية ولا تقاليد ولا أساطير ، لاجئين إلى نوع من الأبيقورية العامية ، منحرفين ومصابين بالرخاوة من اللذات الجسدية ، مهتمين بأسافل أجسادهم وبظواهر عابرة . لاهم يفكرون فى الغد ، كلهم من أبناء اليوم . وكل هذا بمساعدة الأذاعة والصحافة والكتب الدراسية والمعامل المغلقة وتغرب القادة والانحراف الفكرى عند العائدين من أوربا ، والظواهر الأدبية المتعلقة بكليله ودمنه نباشة القبور ، ولأن حكوماتنا حتى بمساعدة كل قواها لا تستطيع أن تزين هذا الوضع حتى فى الظاهر ، فهى كل يوم من أجل استغفال الناس وتنويمهم تمد يدها إلى ملمة أخرى ، وهذه الملمات مهما تكون فهى لا تخرج عن ثلاثة أنواع ، أى لا تبعد عن هذه الماليخوليات الثلاث التالية :

الأولى : ماليخوليا التظاهر بالعظمة ، لأن كل رجل صغير يرى عظمته فى أنواع العظمة التى تلصق به كذبا ، فى عظمة المظاهر القومية ، والأعياد مسرفة النفقات ، وأقواس النصر الواهية ، ومجوهرات البنك الوطنى ، والفرسان وملابسهم وسروجهم ، ونياشين القادة العسكريين وأنواطهم وحمائلهم، والعمائر العظيمة ، والسدود الأعظم ، والتى يقال الكثير عن الإسراف فى الثروة القومية فى إقامتها

والخلاصة كل ما يملأ العين .. ما يملأ عين الرجل الصغير حتى يظن نفسه كبيرا

الثانية : ماليخوليا الفخر بالماضي التليد بالرغم من أنها أيضا من آثار ماليخوليا التظاهر بالعظمة ، لكن لأنها أكثر ارتباطا بالأذن ، ذكرتها على حدة ، هذا النوع من الماليخوليا تسمعه على الأكثر ، هو من قبيل النفاج فى الغربة ، أنواع الفخر والفيهقة وقورش وداريوش ..أنا ذاك رستم العظيم الوحيد فى سجستان ، وكل ما يملأ كل إذاعات المملكة وينشر عن طريق الصحف . هذه الماليخوليا تملأ الأذن أيضا.. هل رأيت عاملا شابا يمر فى ليلة مظلمة من حارة خالية ؟ لا بد أنكم سمعتموه غالبا يغنى، تعلمون لماذا ؟ لأنه يخاف من الوحدة ، إنه يملأ أذنه بصوته ، وبهذه الوسيلة يدفع الخوف عن نفسه ، ولا أدرى هل انتبهتم إلى أن المذياع فى اليد يقوم بنفس الدور أم لا ؟ .. الراديو المفتوح فى كل مكان .. من أجل أن يحدث ضجة فحسب .. يملأ الأذن !!

الثالثة: ماليخوليا التواصل والدق المستمر وهو أن تصنع كل يوم عدوا جديدا ، ووهما للناس الأبرياء ، وتملأ بهما الصحافة والأذاعة حتى تخوف الناس ، وتجعلهم يضعون رؤوسهم فى جيوب ثيابهم أكثر من ذى قبل ، وتدفعهم إلى الشكر على ما لديهم بالفعل ، ولهذا التواصل والدق المستمر صور عديدة : ففى يوم كشف شبكة جديدة لحزب توده الشيوعى ، اليوم التالى : مكافحة الأفيون .. ثم مكافحة الهيرويين ، ثم قضية البحرين والشجار مع العراق حول شط العرب [١] ثم قصة الرجال سارقى الأطفال ، ثم نفس الرعب الذى ألقوه فى القلوب من جهاز الأمن .....

---

(١) ومن المؤسف المضحك أننا بينما أخذنا بمساعدة أفاضل كلية الآداب نغير فى أذاعتنا وصحافتنا اسم دجلة إلى " اروند رود " ، وتقلد عبد الناصر الذى غير اسم الخليج الفارسى إلى الخليج العربى ، أخذ العراقيون طيلة شهرين يردون كل ناقلة بترول تدخل شط العرب قاصدة عبادان ، وهكذا كان أن تعطلت مصفاة عبادان لمدة شهرين كاملين من سنة ١٣٤٠ " ١٩٦١" .

١٣- اقتربت الساعة

الآن حان وقت إغماد القلم . فلأختم إذن بذكر خبر عن العظماء ، وبما يشبه النبوءة ، لكنها ليست نبوءة ، بل نقطة النهاية الحتمية للطريق الذى يسيرون بنا نحن والبشرية فيه .

لـ" البير كامى " الكاتب الفرنسى الراحل كتاب يسمى " الطاعون " ربما كان رائعته وعمله الأعظم . قصة مدينة فى شمال أفريقيا ، ليس من المعلوم لماذا ومن أين تسرب إليها الطاعون . تماما كأنه شيء شبيه بالقدر ، ربما من السماء نفسها . فى البداية تتقاطر الفئران المريضة الجائعة من جحورها خارجة ، وتظهر فى الحوارى والممرات والشوارع ، وكل يوم يمتلىء كل وعاء قمامة بأجسادها الصغيرة ، ونقطة حمراء على زاوية كل فم ، ثم تصيب العدوى الناس ، وتصيبهم وتصيبهم ، ويموتون ويموتون ويموتون ، بحيث أن أجراس عربات نقل الموتى لا تصمت لحظة واحدة ، وينبغى أخذ أجساد الموتى من ذويها بالقوة الجبرية ، لتغطيتها بالجير وحملها إلى الجبانة ، وتغلق المدينة اضطرارا ، وفى داخل هذا الحصار الموبوء بالطاعون ، يكون عند كل واحد من سكان المدينة سعىٌ ما ، أحدهم يبحث عن علاج للطاعون ، وآخر يبحث عن مفر ، وثالث يبحث عن المخدرات ، ورابع يلهث خلف السوق . وفى مثل هذه المدينة علاوة على سلطة الموت والسعى اليائس البشرى للفرار منه ، والحزن الذى ينتشر كالغبار فى الجو ، أكثر ما يلفت النظر هو حضور الطاعون – هذا المارد البوار هو فحسب الذى يجعل خطوة الإنسان أسرع فى أى طريق يكون فيه ، على حق كان أو على غير حق ، سواء كان أخلاقيا أو غير أخلاقى ، إن حضور الطاعون لم يمنع أحدا من طريق كان يمضى فيه ، كل ما فعله أنه دفعه إلى العدو فيه مثلنا تماما ، بلينا بطاعون التغرب .. وإيقاع فسادنا صار فحسب أسرع .

وعندما صدر كتاب الطاعون ، قال جماعة من النقاد " اليمينيين منهم " أن كامى جعل المدينة الموبوءة بالطاعون رمزا على المجتمع السوفيتى ، وقال آخرون " اليساريون " : لقد وضع بهذا الكتاب نطفة الكفاح الجزائرى ، وهناك آخرون قالوا

كلاما آخر كثيرا لا أذكره ولا مناسبة له هنـــا ، أما أنا نفسى فقد بدأت ترجمته لكشف الغرض الأصلى لمؤلف الكتاب وليس بسبب هذه الإشارات . وعندما وصلت فى الترجمة إلى ثلث الكتاب ، فهمت ، أى رأيت القصد الأصلى للمؤلف ، وعندما اتضح الموضوع تركت الترجمة ، رأيت أن الطاعون من وجهة نظر كامى هو الآليـــة .. هى القاتلة لأنواع الجمال والشعر والبشرية والسماء !! .

وظلت هذه المســائل قائمة حتى صدرت مسرحيـــة " اوجين يونسكو" الفرنسى تحت عنوان " الخرتيت . وثمة مدينة ، سكانها كلهم يعيشـــون حياتهم العاديـــة بلا خوف ، ودفعة واحدة ينتشـــر مرض فى المدينة ..انتبهوا : إنه مثل الطاعون (ومثل الابتلاء بالتغرب = الابتلاء بالوبـــاء).. ثانية يدور الحديث عن مرض معد .. وما هو هذا المرض ؟ تحـول الإنســـان إلى خرتيت .. تأتى الحمى فى البداية .. ثم يتغير الصوت ويغلظ ويخشوشن ، ثم يظهر قرن فوق الجبهـــة ، ثم تتبدل القدرة على الكلام إلى القـدرة على إطلاق أصـوات حـيـوانيـــة ، ثم يغلظ الجلـــد .. إلخ . ويصاب به الجميع : ربة البيت وبقال الناحيـــة ومدير البنك وعشيقة فلان .. وهلم جـــرا . وينطلق الجميع إلى الشارع ويدوسون المدينـــة والحضـــارة والجمال . ولا جدال أنه لفهم كلام هذا الكاتب ، لم تكن هناك حاجة إلى ترجمة كتابـــه (١) ، لكننى كنت أفكر دائمـــا فى أن أترجم هذه المسرحيـــة إلى الفارسيـــة ذات يوم ، وأنكر فى هوامشها بالتدريج كيف أن مواطنينـــا المحترمين آخذون فى التحول يوما بعد يوم إلى خراتيت . وهو آخر حل لمقاومة الآلـــة .

ثم ظلت هذه القضايا قائمة حتى هذه الأيام الأخيرة من سنة ١٣٤٠ " =١٩٦١" حين رأيت فيلم " الختم السابع " فى طهران ، وهو من أعمال انجمار برجمان السويدى ، مخرج من أقصى شمال العالم الغربى ، انســان مجاور تماما لليالى القطبية . وتجرى قصة الفيلم فى القرون الوسطـــى ، فى أرض موبوءة بالطاعـــون أيضـــا ، عاد أحد الفرسان إلى الوطن محطما مهزوما عاجزا من الحروب الصليبية .. تماما

(١) بالرغم من أنى قمت بها فى النهايـــة .

وانتبهوا : عاد من الحروب الصليبية التى لم يبحث خلالها عن الحقيقـــة قط ، لقد رأى فى الأراضى المقدســـة نفس الأشيـــاء التى يراها أخلافه الغربيون فى العالم المستَعمر فى الشرق وأفريقيـــا ، هذا الفارس خلافا لأوربيى اليوم ، لم يجىء إلى الشرق بحثـــا عن النفط والتوابل والحرير .. جاء بحثـــا عن الحقيقة ، عن حق اليقين، كان يريد أن يرى الله فى أراضى فلسطين المقدســـة ويلمســـه، تماما كحواريي المسيح الذين تخيلوا أنهم رأوا الله ، ونفخوا فى أبواق البشارة بالمسيح فى أركان العالم الأربعـــة ، وهذا الفارس السويدى الذى انتقـــل من الليالى القطبية الطويلة حتى قلب ضوء شمس الشرق الذى يعشى الأبصـــار ، يبحث عن الله . لكن بدلا منه يكون الشيطان فى كل لحظة أمام قدمه ، حينا فى صورة خصم فى الشطرنج، وحينا فى لباس قسيس ، ودائما فى ملامح عزرائيل الذى بذر بذور الطاعون فى هذه الأرض ، وهو الآن حاصـــد لأرواح البشـــر . وفي خلال تلك الأيام التى عاد فيها فارسنا متعبا من البحث عن الله ، كانت الكنيسة تقرأ آية العذاب ، وتقدم الوعيد بدنو يوم القيامة واقتراب الساعة ، إشارة إلى أنه وقد انتهى زمن الإيمـــان فقد حان عصر العذاب ، وانتهى زمن العقيدة فعصر التجربة ، والتجربة تؤدى إلى القنبلة الذريـــة . هذه هى إشاراته أو إدراكى أنا لإشاراتـــه .

والآن ، أنا على الأقـــل – لا كشرقى – بل تماما كمسلم من الصدر الأول ، كان معتقدا بالوحى ، ويظن أنه قبل موته سوف ينظر فى صحراء المحشـــر إلى بعث الناس ، أرى أن البير كامى واوجين يونسكو وانجمار برجمان وكثير من الفنانين الآخرين وكلهم من الغرب ، يبشرون بهذا البعث ، كلهم قنطوا من عاقبة أمر البشريـــة ف " اورسترات " عند سارتر يطلق الرصاص على الناس فى الشوارع وهو مغمض العينين ، وبطل " نابوكوف " يظل يسوق سيارته متجها بها إلى الناس ، و" مورسو " الغريب ، يقتل إنسانا بسبب حرارة الشمس فحسب .. وهذه النهايات القصصيـــة كلها أصداء للنهاية الواقعيـــة للبشر .. البشرية التى لم ترد أن " تفعص" تحت الآلة ، عليها حتما أن تدخل فى جلد خرتيت .. وأنا أرى أن كل هذه النهايات القصصيـــة تنذر بالساعة الأخيرة : إنه على يد شيطان الآلـــة " إن لم

نلجمه ونضـــع روحه فى الزجاجة .هناك قنبلـــة هيدروجينيـــة موضوعة فى نهايـــة طريق البشريـــــة .

ولنفس هذه المناسبـــة ، فلتــا أطهر قلمى بهذه الآية الكريمة { اقتربت الساعة ، وانشق القمر} .

قرالكتـــــــاب

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة - النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت . أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى نقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت

الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى

تاريخ السينما العالمية

مختارات من المسرح الإسبانى

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر

الحب الأول

أوبرا ماهوجونى

عالم التليفزيون بين الجمال والعنف

حروب المياه

ثلاث زنبقات ووردة

الأدب الأندلسى

الأدب المقارن

راية التمرد

السياسة والتسامح

مساءلة العولمة

ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى

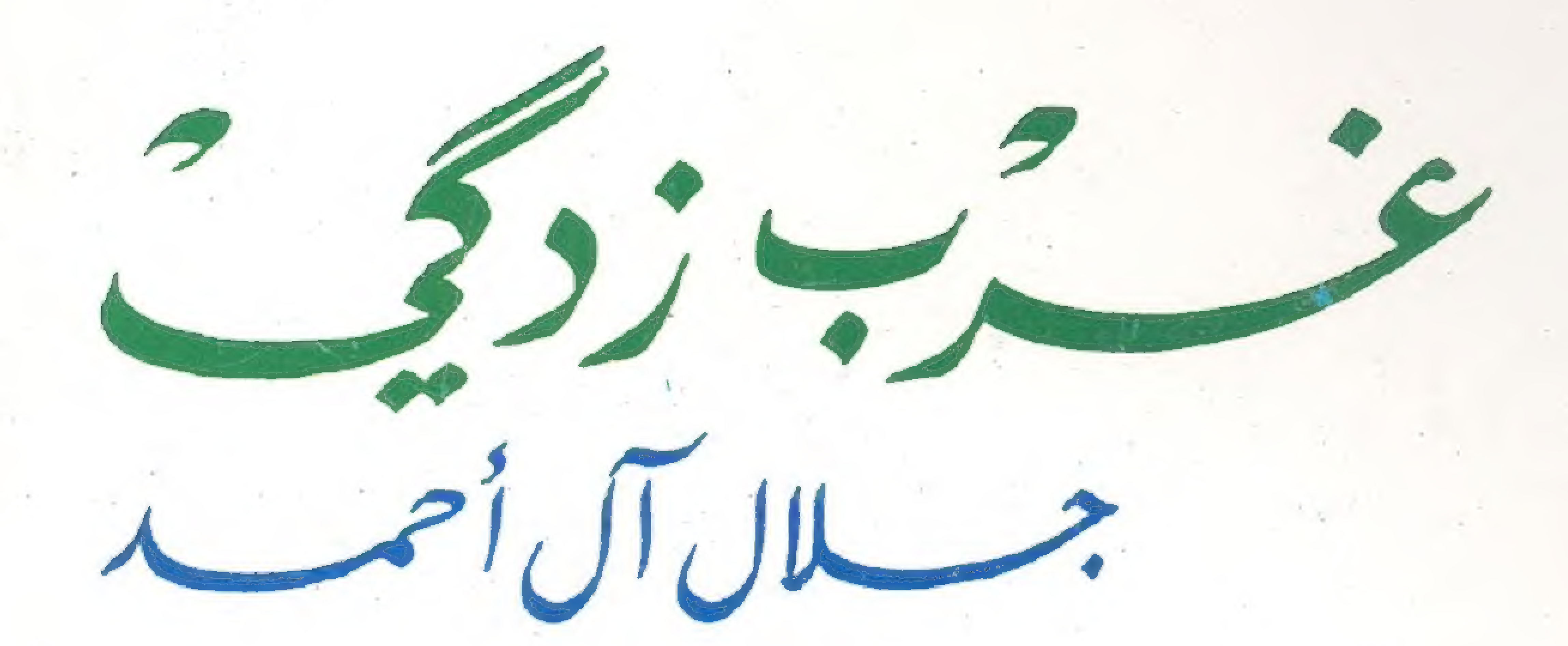
الفجر الكاذب

الشعر الأمريكى المعاصر

مدخل إلى النص الجامع

نظام العبودية القديم







يتناول هذا الكتاب قضايا وموضوعات لاتزال تهم القارئ فى هذا الجزء من العالم ، وكلنا فى الهم شرق ، وإذا كان هذا الشرق مسلمًا أعظم . وكتاب الابتلاء بالتغرب لجلال آل أحمد يقف على قمة وحده ضمن الأعمال الفكرية الإيرانية التى آثارت الجدل ، وحولت الوجهة ، وطرحت قضايا كان لها أقوى الأثر فى إقامة صرح الفكر الذى وقف وراء الثورة .

وتناول هذا الكتاب الصغير فى حجمه موضوعين رئيسيين :

١ - جذور التغرب أو الاتجاه إلى الغرب منذ أقدم العصور وحتى الوصول إلى بداية تغرب إيران الحقيقى فى العصر الصفوى .

٢ - آثار هذا التغرب الممتدة إلى كافة جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، تلك الآثار المتغلغة التى يزيدها المفكرون المتغربون تغلغلاً ، ويزيدون فى تأثيرها المشئوم ، ويمضون بأمتهم إلى مزيد من فقدان الهوية والضياع المطلق .

وعندما يتناول جلال آل أحمد هذه القضايا لايتناولها من موقف المفكر المشاهد المحايد ، بل من موقف المتألم المهتم ، فيزيدها عرضُه الساخر المتألم حياة فوق حياة ، وتشمل نظرته الثاقبة كل جوانب الحياة وزواياها ، فيمنح قضاياه الصماء حياة مفعمة بالنشاط ، ويتجلى كمتمرد يعتبر امتداداً لتيار المتمرد الفكرى فى تاريخ إيران .

الغلاف : عماد حليم